في ظلال
الماضي
بقلم
أمل القادري
DES: HANA

في ظلال الماضي

بقلم أمل القادري

نسخة معدّلة ومنقّحة بتاريخ 2017

حصري لجروب بين أروقة الروايات بقلم أمل القادري

مقدمة الكتاب

أكّد فرويد أنّ شخصيّة الإنسان يحدّدها ويصنعها ماضيه وحاضره ومستقبله. لذا لا حاضر بلا ماضي ولا مستقبل بلا ماضي ، حيث أنّ للماضي أهمّيّة كبيرة وجذرية في نحت شخصيّة الإنسان وصنعها وصقلها ودفعها إلى الحاضر. ومن هنا تأتي أهمّيّة الطّفولة حيث تشكّل الجزء الأساسي والأكبر من ماضينا.

ففي ذلك الجسد والعقل البريء والخام تتحدّد شخصيّتنا وهويّتنا المستقبليّة التي يسيطر عليها اللاوعي الذي اختزن كلّ أحداث الطّفولة والماضي وأعاد ولادتها من جديد في المستقبل على هيئة شخصيّتنا، طبعنا، نفسيّتنا وروحنا. فهي الآلية التي تسيطر على كلّ أحداث حياتنا المستقبليّة الواعية واللاواعية.

مقتبس عن نظريّة فرويد الوعي والاّوعي

تمهيد

على قدر ما يظنّ الإنسان أنّه يعرف نفسه، على قدر ما يتفاجأ منها عند أوّل فرصة تسنح لها بالتّحرر وإظهار ما تتبطّنه في طيّاتها، وكأنّها كانت تغطّ في سبات عميق وتنتظر المكان والزّمان المناسبين للاستيقاظ وتغيير مجرى حياته كلّيّاً.

ما زلت أذكر المرّة الأولى التي رأيته فيها وأنا أنزل من السّيّارة، مرتدية ثياب الحداد على وفاة والدي، حيث كانت خسارته أوّل خيباتي ومأساتي مسببةً فراغاً عميقاً وكبيراً في قلبي. لم يكن لي سواه في هذه الدّنيا الغدّارة، والتي من دون سابق إنذار، أخذت منّي شخصاً عزيزاً على قلبي مغيرةً جدول حياتي، لتنقلني من عالم الطّفولة واللامبالاة، إلى عالم آخر غريب لا أعرف فيه أحداً حتّى نفسي.

عيناه الزّرقاوتان كصفاء سماء صيفية أسرتا قلبي منذ اللحظة الأولى التي رأيتهما تراقبانني بتمعّن، وكأنّه اخترق قلبي بسهم خفيّ ما عدت قادرة على تحديد مكانه لنزعه. في ذلك اليوم، عيناه تحدّثتا وقالتا ما لم يقله لسانه حتّى الآن.

أحببته ولا أعرف لماذا؟ ومتى؟ وكيف حصل هذا؟ ولكنّي فعلت وبكلّ ما أملك من مشاعر وأحاسيس، سلّمته قلبي على طبق من فضّة وأضعته بين يديه، فما عدت قادرة على استعادته ولا حتى قادرة على استبداله.

فقلبي ينبض بحبّ إيّان، وروحي تناشد روحه، وسعادتي لا تكتمل إلا بوجوده. أحبّه كثيراً ولا أعرف كيف أجعله يرى نار حبّه المتّقدة في قلبي، علّه يرحمه ويبادله شعوره.

الفصل الاوّل

جلست على الأرض متّكئةً إلى حافّة السرير أراقبه نائماً، مستلقٍ على صدره، شعره مبعثر، أنفاسه ثابتة، إنّه شغفي هذه الأيّام مراقبته وهو نائم. وسامَته تفوق الوصف وكأنّه من عالم خياليّ، رائع، وسيم وأنيق وفتى أحلام كلّ فتاة، وها هو مستلقٍ أمامي على السّرير ويغطّ في نوم عميق، وجودي قربه هكذا يخلق صراعاً بداخلي ورغبةً جامحةً للاقتراب منه وتمرير أصابعي بين خصلات شعره وتنشّق رائحته العطرة الممزوجة برائحة جسده المثيرة. ولكنّي ما كنت لأجرؤ أبداً على هذا, فحدودي هي التسلل إلى غرفته بعد منتصف الليل لمراقبته نائماً دون أن يشعر بي والهرب من غرفته قبل استيقاظه وإلا...

***

استيقظت على صدى صوت إيّان الهادئ والقلق في نفس الوقت:

"نور.. نور! استيقظي... ماذا تفعلين هنا؟ ولم أنت نائمة على الأرض؟ أرجوك، لا تقولي أنّك قضيتِ الليلة هكذا"

فتحت عيناي بتكاسل أتململ بوضعيتي المرهقة، تلفتت حولي بتساؤل وإستغراب لأكتشف فعلتي الفضيعة، يا الله! أيعقل هذا!!! لا بدّ أنني غفوت البارحة قبل أن أترك غرفته.

رفعت بصري المضطرب إليه لأجده على السرير بقربي يراقبني بإستنكار ، نظراته حادّة ومخيفة، شعره مبعثر بحرية فاتنة ، عاري الصدر ، يتسائل عن سبب وجودي في غرفته، ونائمة على حافّة سريره.

"ماذا تفعلين هنا ؟ منذ متى وأنت هنا؟ لم أرك البارحة عندما عدت" سألني بنبرة مخيفة

يا لي من حمقاء،بماذا سأجيبه؟؟ ماذا سأقول وكيف سأبرر فعلتي الغبيّة، أشحت بنظري عنه أراقب البساط تحت قدمي لتجتاحني موجة حارة رافعةً درجة حرارتي لحدّ الغليان ، أشعر به يراقبني بتمعن منتظراً تبريري ، أغمضت عيوني عاجزة عن النظر اليه، لأفاجأ به يجذب كفّي بعيداً عن فمي ، رفعت بصري اليه برهقة مستغربة فعلته .

فرفع حاجبه بتساؤل محرراً كفّي البارد كالثلج منبّهاً إيّاي:"كفّي عن قضم أظافرك، إنّها عادة سيئة وغير صحّيّة"

فتحت فمي لأعلّق ، لأعود وأُطبقه ، لم أنتبه بأنني أقضم أظافري، بالطّبع فالتّوتّر أرهقني والخجل أعماني.

هزّ برأسه ناهضاً عن السّرير يفتش عن كنزته القطنية وأنا كالمعتوهة إستغليت الوضع لمراقبة عضلات صدره وظهره الرهيبة ، لأفاجأ به يستدير فجأة نحوي يخاطبني غير دارٍ بفعلتي المشينة :

"أنت تعرفين قوانين هذا المنزل نور، أنّه ممنوعٌ عليك الدخول إلى جناحي وجناح طلال لأي سبب من الأسباب لذا أتمنّى منك التقيد بها عزيزتي»

حدّق بي يفكر وكأنّه يحاول إيجاد الكلمات المناسبة، ثمّ عاد وجلس بقربي على حافّة السرير إقترب مني يخاطبني وكأني طفلة يحاول تلقينها درساً هامّاً:

"نور... هذا تصرّف غير لائق من فتاة محترمة مثلك أن تدخل غرفة شابّ أعزب في منتصف الليل والنّوم هكذا على الأرض بهذه الوضعية. لن أضغط عليك لمعرفة سبب فعلتك كي لا أزيد من إحراجك ، ولكنك ستعيديني بأنك لن تقدمي على تكرار ذلك،اتفقنا؟"

ومأت له برأسي متحاشية النّظر إليه، ووجدتني أعيد إصبعي إلى فمي لقضم أظافري من جديد فأمسك بيدي منبّهاً:

«وتوقفي عن قضم أظافرك هذه ، هيا ، عودي إلى غرفتك وأنا سأدخل لأستحمّ، لا أريد رؤيتك هنا عندما أخرج»

راقبت قفاه يبتعد نحو الحمام أحاول الوقوف على قدماي فعجزت،

يا الله!! أشعر بالعجز عن النّهوض عن الأرض، قدماي متيبستان من النوم بهذه الوضعية المؤلمة. ماذا سيظنّ بي الآن؟ سيظن بأني فتاة رخيصة متحرشة ، إرهابية ، يا لك من غبية يا نور ، نور الغبية .

وبعد جهدٍ جهيد وقفت تاركةً الغرفة متوجّهة نحو غرفتي... أعصابي ترتعش من هول ما حصل ، لقد ضُبطُّ بالجرم المشهود . يا للإحراج الذي سبّبته لنفسي، أظنّ

بأنّي سأعجز عن النّظر إلى عينيه للأبد. وكيف سأفعل هذا وأنا مضطرة لمواجهته كل يوم.

أخذت حمّاماً ساخناً طويلاً علّه يساعدني على الاسترخاء ونسيان فعلتي المشينة ، وفِي اللحظة التي خرجت فيها أجفف نفسي سمعت هاتفي يرنّ فأسرعت إليه.

إنّه إيّان، ماذا يريد الآن، فتحت الخطّ وأجبته بصوت ضعيف وخجول:

"ألو..."

"ألو نور.. أين أنت؟ هل عدت للنوم؟ نحن بانتظارك على الفطور، أسرعي ولا تتأخّري"

ثم أقفل الخط دون أن يسمع ردّي.

إنّه يطلب منّي النّزول إلى الفطور بكلّ بساطة، وكأنّ شيئاً لم يكن. ماذا سأفعل الآن؟ أأنزل وأتصرّف على هذا الأساس كذلك الأمر؟ ولكنّ التّوتّر والخجل لن يتركانني أتصرّف على طبيعتي. ألقيت نظرة إلى نفسي في المرآة، لأرى انعكاس صورتي يحدّق بي غير راضٍ عن تصرّفاتي وأفعالي، حسناً وما شأنك أنت بما يفعله هذا القلب، وكأنّ عقلي يؤنّبني على أني أستحقّ ما أعانيه وكأنّه حذّرني من عواقب ما كنت أفعله. ألقيت نظرة تمرّدٍ على انعكاس صورتي وتركته متوجّهة نحو الأسفل.

فور وطوء قدمي أسفل السلالم وصلني صوت ليلى من المطبخ تتساءل عن مكاني

"أين نور؟"

أجابها إيّان:"أتصدّقان أنّي وجدتها هذا الصّباح نائمة في غرفتي، لم أشعر بها حتّى طلع الصباح. أرعبتني حقّاً، لوهلة ظننت بأنّني أتيت بامرأة ما إلى المنزل دون أن أعي ذلك، فلم أتأكّد منها في بادئ الأمر، إلى أن وجدتها عزيزتنا نور"، سكت لبرهة

ثمّ تابع، "لقد بقيت لدقائق عدّة وأنا أحاول أن أستوعب ما إذا كانت لي علاقة بوجودها في غرفتي"

ضحكت ليلى ضحكة عالية وطويلة، ثمّ قالت:

"إيّان، عليك أن تحسّن معاملة هذه الطّفلة، فهي بحاجة للرعاية والاهتمام، ودائماً ما تسأل عنك، وتتذمّر من الوحدة والملل. اهتمّ بها قليلاً."

لقد مللت من هذه الكلمة، أنا لست طفلة، فالكل يعاملني في هذا المنزل على هذا الأساس، فأشهر قليلة وأكمل الثامنة عشرة.

دخلت المطبخ متحاشية النّظر إلى عيون أحدٍ منهم، ألقيت تحية خجولة بالكاد مسموعة ووقفت أنتظر تعليقاً ما من أحدهم:

رفع إيّان بصره إليّ مبتسماً وأجاب بحنان :

"صباح النّور! هيا اجلسي فنحن أوشكنا على الانتهاء"

جلست من الجهة المقابلة له ولطلال الذي بدوره رمقني مبتسماً وحيّاني بصمت عائداً إلى فطوره.

أخذت كوب العصير ووضعت ليلى طبق البيض المقليّ والخبز المحمّص أمامي وسألتني:

"أتحتاجين شيئاً آخر؟"

أومأت لها برأسي بلا مبقيةً إنتباهي عند طبقي، يداي ترتعشان من شدّة الخجل والتّوتّر، رحت أقلّب البيض دون أن آكل منه. فجأة اختفت شهيتي وما عدت أرغب بالطعام.

ليخرجني من خلوتي صوت إيّان الذي يبدو أنّه لاحظ توتّري فقال ملطّفاً الأجواء:

"هل تمشين وأنت نائمة؟ يبدو أنّك البارحة أخطأت في الغرفة. أظنّ بأنّه يجب إقفال الغرفة عليك عندما تخلدين للنوم. إذ غداً لا ندري أين سنجدك"

نخر طلال ضاحكاً ليسرع إلى كوب الماء أمامه مدّعياً أنه إختنق بطعامه ، فرمقته بغضب أعلمه بأنّ حركته هذه لا تخفى عليّ ومن ثمّ ألقيت نظرة تمرّد إلى إيّان مكتفيّة بالصمت المشين ، هذا ما كان ينقصني ، هذان الاثنان يسخران مني،وأنا البلهاء لا أملك سبباً لفعلتي القبيحة .

بعد دقائق قطع طلال حبل الصّمت الذي ساد على الطاولة قائلاً:

"لقد جهّزت كلّ الأوراق اللازمة لتقييم المخازن اليوم، يبدو أنّ نهارنا سيكون طويلاً"

هذا ما كان ينقصني ليكتمل نهاري الجميل،وضعت الشوكة بطبقي بقوّة معلّقةً بغضب :

"أسَتعمل اليوم، إنّه السّبت، يوم عطلة" سكتُّ لبرهة أحاول جاهدة كبت غيظي ثمّ تابعت " لقد وعدتني الأسبوع الماضي بأنّك ستخصّص نهاية هذا الأسبوع لي، فأنا أريد الخروج، لا أريد البقاء في المنزل"

أجابني ببرود وعدم مبالاة وهو منشغل في طعامه: "اليوم لا أقدر... ربّما غداً"

"ولكنّك وعدتني" أجبته بإصرار

"عندي عمل مهمّ في المخازن، وعليّ إنجازه اليوم دون تأخير"

"إذاً سأذهب معك إلى المخازن، يمكنني مساعدتكما، ولكن أرجوك لا تتركني في المنزل وحدي، لقد مللت الوحدة "

رمقني طلال بعطف مستغرباً طلبي، ثمّ وجّه إنتباهه إلى إيّان منتظراً ردّه.

ولكن يبدو أن إيّان لا يكترث لمعاناتي ، أذ وضع كوب العصير من يده يرمقني بعينيه الزرقاوتين الواسعتين ورموشه السّوداء الكثيفة، رافعاً حاجبيه وكأنّه يحاول الردّ عليّ بواسطتهما وقال بهدوء تام:"لا.. أظنّ.. ذلك".

شعرت برجفة تعتري جسدي، وكأنّ شرارة كهربائية بدأت من أخمص قدميّ وانتهت عند قمّة رأسي. نظرته هذه تبعث فيّ شعوراً لا أعرف كيف أصفه، ولا أحبّه، شعورٌ غريب لا أستطيع تفسيره.

ولكنّي لن أستسلم، لقد مللت حبسه لي في هذا القصر ومنعي من الخروج دون حراسة أو مرافقة فأجبته بتحدّي:

"حسناً.. إذاً دعني أخرج وحدي"

وقف عن كرسيّه، أخذ هاتفه ومفاتيحه قائلاً بحدّة ينهي المناقشة كعادته مجبراً إيّاي على تنفيذ أوامره :

"طلال قادم معي، ولا أثق بأحد غيره معك، لذا لا فرصة لك حتى للنقاش" ثمّ وجّه كلامه لطلال "حسناً طلال هيّا بنا... علينا الانتهاء اليوم، ولا أريد أن أضيّع يوماً آخر على المخازن" وترك المطبخ لمن فيه .

شعرت بالاختناق ، والرغبة الشديدة للبكاء ، أو اللحاق به والصراخ ، ما عدّت أحتمل هذا الوضع ، إنه يقيد حريتي كاملة ، لا أصدقاء، لا عائلة ، ولا أحد غيره وغير طلال وليلى ، وكأن باقي العالم وحوش على أتم إستعداد لإلتهامي عند أول فرصة تسنح لهم .

أخذ طلال رشفة طويلة من فنجانه، أعاده إلى الطاولة ،ربت على كتفي يخاطبني بحنان ، إنه الوحيد الذي يشعر بي في هذا القصر ولكنه رغم ذلك لا يجرؤ على مخالفة أوامر إيّان ، وإذ ذلك الأخير قال كلمته لا شيئ على وجه هذه الارض قادر على حثّه على تغيير رأيه :

"لا تغضبي، سنتدبّر أمراً ما نقوم به معاً غداً، إنّه وعد" ثمّ لحق بإيّان مسرعاً نحو الخارج.

****

كانت شمس المغيب شاحبة وحزينة، تتسلّل بهدوء خلف التلال وكأنّها متردّدة أتذهب أم تبقى، شعرتُ بقشعريرة في بدني، فالوحدة تقتلني ولا أعرف كيف أملأ وقتي في هذا القصر الكبير والفارغ المليء بالحرّاس.

حتّى أنّي مللت من ليلى، فهي الأنثى الوحيدة في القصر غيري، في حوالي الخمسين من عمرها، تعمل في القصر منذ أكثر من عشر سنوات، تهتمّ كثيراً لأمر إيّان وطلال وتعتبرهما كابنيها، وهما بدورهما يحترمانها ويقدّرانها كثيراً.

السّاعة قاربت الثّامنة مساءً وإيّان وطلال لم يعودا بعد. نزلت إلى المطبخ لعلّي أجد ليلى متفرّغةً لأقضي معها بعض الوقت، لأجدها تشاهد التّلفاز. بالطبع لن تعيرني انتباهها، فهي لا تحبّ أن أزعجها خاصّة إذا كانت تشاهد برنامجاً من برامجها المفضّلة، وإذا سألتها عن شيء سترمقني بنظرة باردة وتشير لي برأسها بألّا أزعجها. فأنا بتّ أعرفها جيداً الأن.

فقررت العودة إلى غرفتي بدل الخروج الى الحديقة، لطالما كان وما يزال محيط القصر يثير ذعري وخوفي وخاصّة أثناء الليل

ففي الأشهر الأولى من قدومي إلى هنا كنت لا أجرؤ على الخروج من محيط الحديقة خوفاً من أن أضلّ طريق العودة أو أن التقي بشيء ما.

إيّان يعيش وحيداً في هذا القصر مع طلال وليلى، والداه توفّيا وهو صغير تاركين له ثروة لا تأكلها النّيران.

ففي بعض الأحيان، أتساءل عن حاجته لهذا القصر الكبير، القابع في هذا المكان النّائي المحاط بمئات الهكتارات من الأراضي التابعة لملكيّته، مليئة بالأشجار والغابات، ومحاطة بسور اسمنتيّ عريض مؤمّن بأسلاك كهربائيّة لتمنع المتطفّلين من الدّخول إليها، وكاميرات المراقبة المزروعة في كلّ أرجاء المكان والحرس عند البوابة الأمامية.

ترك إيّان كندا بعد بلوغه الثامنة عشرة وأتى إلى لبنان ليبدأ حياته من جديد، على الأقلّ هناك نقطة تشابه بيني وبينه فأنا كذلك الأمر أتى بي والدِي من كندا بعد وفاة والدتي مباشرة ، ترك أهله وعائلته وأتى بي إلى هنا ليبدأ من جديد. فأنا وهو وحيدان، يتيمان، ولا أهل ولا أقارب لنا في هذا البلد، ربّما هذا هو سبب تعاطفه واهتمامه الزّائد بي، إذ مرّ قبلي بهذه التجربة الصّعبة والأليمة.

وها أنا ذا وجدت نفسي بعد وفاة والدي أعيش مع رجل لم أكن أعرف بوجوده في حياتنا من قبل، وكل ما أعرفه عنه أنّه صديق أبي وشريكه في العمل ووقف بجانبه كثيراً خاصّة أثناء فترة مرضه ورقوده في المستشفى لفترة قبل وفاته فتركني في عهدته وتحت وصايته.

دخلت غرفتي أفتّش عن هاتفي لأتّصل به، لا أعتقد بأنّه ما زال يعمل حتى الآن. لا بدّ أنّه وطلال يلهوان في مكان ما وبالطبع سيكون هناك نساء، كم أكره أن أفكر بأن إيّان مع امرأة ما، إنّ هذا الأمر يثير غيرتي ويذكّرني بعجزي عن سؤاله أو معاتبته فهو غير ملتزم اتجاهي بأيّ شيء وخاصّة فيما يخصّ حياته الخاصّة والعاطفية ولكن معرفة أن كل امرأة تلتقي به،تبذل كل جهدها للفت انتباهه وإيقاعه في شباكها يثير جنوني وغيرتي ويتركني أتمنّى لو أنّ باستطاعتي حجب رؤية كل النساء عنه ليكون لي فقط لا غير.

أرسلت له رسالة نصّيّة وأنا واثقة بأنه لن يجيب عليها:

نور:

مرحباً إيّان، أين أنت؟

لقد تأخّرت كثيراً، أرجوك أجبني وقل لي متى ستعود؟

بعثت الرسالة وجلست أنتظر الرّدّ مع يقيني بأنّه لن يرد.. فهذه عادته.

فهو دائماً ما يتذمّر إذا حاولت الاتصال به أكثر من مرّة، أو أرسلت له أكثر من رسالة نصّيّة، وكيف لا أفعل وهو لا يردّ على أيّ منهما. لا يريدني أن أزعجه فليردّ عليّ.

بعد مرور أكثر من عشرة دقائق طنّ هاتفي معلناً وصول رسالة نصّيّة. أسرعت إلى الهاتف غير مصدّقة أنّه أجاب على رسالتي.

إيّان:

ماذا تريدين؟

ما زلت في المخازن، اذهبي ونامي، سأتأخّر في العودة.

ملاحظة هامّة: (نامي في غرفتك)

هل سيستمر بتذكيري بفعلتي المشينة عند كل شاردة وواردة ، يا له من متسلّط، بارد وقاسٍ،ولكني رغم هذا كلّه أحبّه وبجنون. استلقيت على السّرير بإبتسامة بلهاء ، إنها مجرد رسالة سخيفة نور ، لا تعني شيئ ، حسناً ، ولكنه تكبّد عناء الرد عليّ هذه المرة .ضممت الهاتف إلى صدري وأغمضت عيناي مستعدّة للنّوم.

****

أيقظني الضّوء السّاطع في غرفتي هذا الصّباح، إذ يبدو أنّني لم أغلق السّتائر الليلة الماضية. ما زال الوقت مبكّراً وبالتّاكيد إيّان ما يزال نائماً خاصّة أنّه تأخر بالعودة ليلة البارحة.

دخلت الحمام غسلت وجهي وأسناني ونزلت إلى المطبخ، لأجد ليلى كعادتها تحضر للفطور.

"صباح الخير ليلى" حيّيتها متّكئة إلى الباب.

التفتَت نحوي ترمقني مستغربة، فأنا نادراً ما أستيقظ باكراً لتجيبني وهي مشغولة بتشريح رقائق البطاطا:

"صباح النّور، ليس من عادتك الاستيقاظ باكراً، فما الجديد اليوم؟"

تنهدّت بملل جالسةً إلى الطّاولة بتكاسل " نعم، فأنا اليوم متحمّسة لفكرة الخروج، لقد وعدني إيّان بذلك ولن أدعه اليوم قبل أن ينفّذ وعده لي"

"ما يزال نائماً، لقد تأخّر كثيراً بالعودة البارحة"

أخذت حبّة كرز من صحن الفاكهة، وضعتها في فمي وسألتها:

"أتعرفين متى عادا؟"

"لا، لقد نمت عند الواحدة وكانا ما يزالان خارجاً"

عقدت حاجباي غير راضية عن هذه المعلومة، الواحدة وكان ما يزال خارجاً، هذا يعني بأنّه سينام النّهار بطوله ويتركني في المنزل، لن أسمح له بذلك، نعم هذا ما سأفعله حتّى لو اضطررت إلى إيقاظه بنفسي.

"سأوقظه عند العاشرة، لن أتركه ينام أكثر" أجبت ليلى بحنق

فرمقتني بعدم رضى معلّقةً:"ولم تريدين إزعاجه، دعيه ينام، فهو نادراً ما يتأخّر في النّوم صباحاً"

أجبتها متذمّرة: "لقد وعدني بإخراجي اليوم وعليه أن يفي بوعده لي، فأنا ما عدت قادرة على تحمّل البقاء في هذا المنزل وحيدة وممنوعة من الخروج دون حراسة، فهو دائماً يعمل وفي أيّام العطل يخرج ويتأخّر بالعودة ولا يدعني أخرج وحدي أبداً. ماذا عليّ أن أفعل، وكأنّني أعيش في سجن كبير"

هزّت برأسها عاجزة عن الإجابة على تذمّراتي وعادت تتابع عملها. نعم فأنا محقّة، إنّها حياة صعبة وما عدت أتحمّلها، لا أحد يستطيع تحمّل الحياة وحيداً بلا عائلة ولا أهل ولا أصدقاء ولا حتّى أقارب، لذا على إيّان تسهيل الأمور عليّ وليس تعقيدها.

جلست إلى الطّاولة أراقبها تعمل بصمت، رغم عمرها الكبير فما زالت جميلة وجذّابة، متوسّطة القامة، نحيفة وشعرها بني يغطي كتفيها .

إنها إمرأة حنونة وطيبة جداً وساعدتني كثيراً علي تخطي حزني العميق بعد وفاة والدي فكانت لي الكتف الذي ألجأ اليه عندما أرغب بالبكاء .

"هل ستتناولين فطورك الآن، أم ستنتظرين إيّان وطلال؟" سألتني وهي تعبّئ الأواني في غسّالة الصّحون.

"سآكل الآن، وهكذا عندما يستيقظ إيّان أكون جاهزة كي لا أضيّع الوقت، ماذا تحضّرين للفطور؟"

"فطور اليوم قطع الدّجاج والبيض المقليّ والفطائر المحلّاة"

الحديث عن الطّعام جعلني أشعر بالجوع والرّغبة في تذوّق كلّ شيء.

أجبتها بحماس "أريد من كلّ شيء، فأنا جائعة جدّاً... أي ليلى وأسرعي أرجوك ما عدت قادرة على الانتظار"

ابتسمت وهي تتجه نحو الثلاجة لجلب الأغراض التي تحتاجها وقالت:

"كعادتك، عندما تعدين معدتك بالطّعام، ينفذ صبرك للانتظار، عشر دقائق ويصبح فطورك جاهزاً آنسة نور"

اقتربت منها أحتضنها برفق، إنها نبعٌ من الحنان وأنا أحبّها كثيراً " أي ليلى، تعرفين بأنّي أحبك كثيراً، ورائحة طعامك تجعلني غير قادرة على التحمل والسيطرة على معدتي"

"حسناً... حسناً طالما أنّك جائعة كثيراً... دعيني أحضر فطورك، اجلسي إلى الطّاولة وابدئي بشرب العصير ريثما أنتهي"

شعرت بأن فضولي سيقتلني إذ لم أسألها إذ كانت تعلم أين كان طلال وإيّان البارحة مساءً.

"من تقصدين؟"، سألتني وهي تضع طبق الطّعام أمامي

"إيّان وطلال من غيرهما؟"

رمقتني وكأنّ سؤالي لم يعجبها وقالت بجفاء:

"لا... لا أدري، ولا يهمّني. كلي طعامك ولا تشغلي بالك بهذه الأمور. فهما شابّان ويحقّ لهما أن يلهوان قليلاً. وأنت"

رفعت سبابتها نحوي محذّرة وتابعت:

"حاولي أن لا تضيّقي عليه، فإيّان غيّر نمط وأسلوب حياته كليّاً بعد مجيئك إلى هنا، وهو يحاول جاهداً أن يوفر لك الجوّ المناسب لعمرك وخبرتك في هذا المنزل"

"ماذا تقصدين؟" سألتها بفضول " كيف كان نمط حياته؟ كيف كان أسلوب حياته قبل أن آتي إلى هنا؟"

"أمور لا تخصّك، وبالطّبع ليست للنّقاش، المهم أن تعرفي أنه يراعي مشاعرك ووضعك، لذا حاولي أن تراعي ظروفه ووضعه كشابّ أعزب ومسؤول عنك."

رحت أقضم بقايا طعامي شبه شاردة الذّهن. ما الذي تقصده؟ كلامها زاد من فضولي ورغبتي في معرفة كيف كان نمط حياته قبل أن آتي إلى هنا، فأنا طوال فترة وجودي هنا، لم أر إيّان مع أيّ امرأة خاصة في المنزل، لا حبيبة ولا صديقة...

"صباح الخير، مم ، ما هذه الرّائحة الشهية؟" أتى صوت إيّان من خلفي عند الباب، قفز قلبي لسماع صوته، فاستدرت نحوه مبتسمةً ببلاهة عاجزة عن إخفاء فرحتي لرؤيته.

"صباح النّور إيّان" ردت ليلى.

"صباح النور" أجبته بحماس، " ها أنت ذا، جيد، كنت سأصعد لأوقظك"، تلفظت بجملتي الأخيرة وندمت ، إذ تعابير وجهه عبّرت عن إنزعاجه التام من ما تفوهت به .

مرّ بجانبي متحاشياً النّظر إليّ متوجّهاً مباشرة نحو إبريق القهوة، تناول فنجاناً، سكب لنفسه وجلس قبالتي الى الطاولة. ما يزال يرتدي ثياب النوم، بنطال كحلي مقلم بخطوط بيضاء، وكنزة قطنية بيضاء، شعره مبعثر وذقنه شبه بارزة يبدو جذّاباً وخاطفاً للأنفاس ، وجاهزاً للأكل ، بإمكاني التهامه بدل الفطور، أخذ رشفة من قهوته وطلب من ليلى تقديم الفطور إليه ثمّ سألني:

"هل أنت جاهزة للخروج اليوم؟"

قفزت من مكاني أجيبه بحماس طفولي غير مصدّقة عرضه:

"نعم، نعم ،كنت أنتظرك لتستيقظ ، لقد أنهيت فطوري سأذهب لأستعدّ." أخذت بطبقي إلى حوض غسل الأواني وتوجّهت مسرعة نحو الباب، لا أريد أن أضيع

الوقت، وأريد أن أستغلّ كلّ دقيقة من هذا اليوم لصالحي. ولكنّ صوته الرّزين استوقفني عند الباب وهو ينادي اسمي بحدّة وحزم شديدين.

"نور...."

نبرة صوته أرعبتني فتجمّدت مكاني، مستديرةً نحوه بتردّد لأجده يرمقني بنظرات حادّة ومعاتبة، ثمّ سألني بعصبيّة تامّة تنم عن عدم رضى :

"ما هذا الذي ترتدينه بحق السماء؟"

ألقيت نظرة خاطفة إلى نفسي وفهمت قصده، فثياب النوم خاصّتي فاضحة جداً، كنزتي قصيرة وبحمّالات على الكتفين، وشورتي قطني وقصير جداً. فأنا لم أتوقّع استيقاظه قبل أن أعود إلى غرفتي وأبدّل ملابسي.

ردّة فعله أحرجتني حدّ الموت متمنيّةً لو أنّ الأرض تنشقّ وتبتلعني أو أني أتمتّع بقدرات سحريّة فأختفي من أمامه بسرعة البرق. وبحركة عفوية جذبت شورتي

القصير جداً نحو الاسفل بهدف إطالته قليلاً ، حركة سخيفة ، أعرف ذلك ، ولكنّ الغريق يتشبث بقشة اليس كذلك ،لأتمتم مبررةً بخجل واضح متحاشية نظراته:

"أنا آسفة ، كان الوقت مبكراً وظننت أنّك لن تستيقظ قبل عودتي إلى غرفتي" واستدرت مسرعة راغبة بالهرب من أمامه فاصطدمت بصدر طلال الصلب الذي استلمني من ذراعي كي يمنع سقوطي على الأرض. وكأنّ هذا ما كان ينقصني كي يفقد إيّان عقله تماما.

"هاي... هاي.. إلى أين، ولم كلّ هذه العجلة؟" علّق طلال يحيطني بذراعيه بتملك يساعدني على استعادة توازني.

ولكنّ نظري كان على إيّان الذي وقف من مكانه منتفضاً بنية الإسراع الي ، فأبعدت نفسي من بين أحضان طلال متمتمةً

"آسفة... إلى غرفتي لأجهز نفسي" أجبته راكضةً بهدف الاختفاء عن أنظارهما.

صعدت إلى غرفتي ومباشرة إلى الحمام ، ما الذي يحصل معي بحق السماء ، وكأن الحظ يعاكسني منذ البارحة موقعاً إيّاي بالمآزق المحرجة .

أخذت حماما سريعاً، غسلت أسناني ثم توجهت إلى غرفة الملابس.

ولكن ماذا سأرتدي؟ فأنا لم أسأله إلى أين سيأخذني، كيف سأختار الثياب المناسبة؟ وأخيراً ارتديت سروالاً قصيراً من القماش النّاعم سكري اللون، وارتديت معه قميصاً بنفس اللون، وفيه تقليمات عريضة من الزّهر الفاتح والدّاكن فأنا أحبّ هذا اللون كثيراً. أشعر بأنه يحاكي لون بشرتي الحنطيّة. تركت شعري منسدلاً على كتفيّ ويغطّي ظهري سواده حالك كثيف وناعم. كان أبي يعشق شعري ويمنعني من تقصيره أو حتّى تغيير لونه فكان دائماً ما يقول لي:

"شعرك جميل جدّاً، ولونه مميز ونادر، يعطيك رونقاً خاصّاً بك أنت وحدك، لا تقصّيه ولا تغيّري لونه أبداً، إنّه هويتك وميزتك."

"أبي كم أشتاق إليك وأفتقدك."

أخذت نفساً طويلاً ، أحاول إحتواء الحزن الذي ضربني بالصميم ، ذكرى والدي العزيز الذي لا تفارق بالي أبداً . حبست دمعتي ملقيةً نظرة أخيرة إلى نفسي في المرآة وأخذت حقيبتي متوجّهةً للأسفل.

وصلني صوت طلال وإيّان يتحادثان في المكتب، الباب شبه مفتوح، طرقته بخفّة ودخلت.

إلتفت إيّان نحوي من عن حافّة المكتب يرتدي بنطالاً من الكتّان رماديّ فاتح اللون وكنزة بيضاء ،هذا الرجل يبدو رائعاً بأي شيئ يرتديه، ببدلاته الأنيقة التي يذهب بها إلى المكتب ، أو ثيابه اليومية التي يرتديها حول أرجاء المنزل ، آه التي نادراً ما أراه فيها لأنه حرفياً لا يمكث في المنزل إلاّ نادراً ،أو ثياب الرياضة .

وطلال هو الآخر لا يقل أناقة ووسامةً عن إيّان. إنّهما زوج رائع والعين تتحيّر بأيّ اتجاه ستنتظر عندما يكونان معاً. فكلّ منهما يمتلك خصائص وصفات فريدة ومختلفة عن الآخر.

إيّان يتمتّع ببشرة حنطيّة وشعر أسود كثيف وعينين زرقاوتين تخطفان الأنفاس.
وطلال أسمر، شعره بنيّ وعيناه عسليّتان جذّابتان.

إبتسمت لهما بخجل وسألتهما بتوتر جلي بصوتي الذي خرج مرتعشاً من نظراتهما المتفحّصة إتجاهي :

"إلى أين سنذهب؟ فأنتما لم تقولا لي"

وبدون تعليق تركا أماكنهما متجهان نحوي يناظرانني بطريقة غريبة أخجلتني وأربكتني،فاستدرت عنهما هاربةً من نظراتهما إلى الخارج حيث كانت السّيّارة بانتظارنا.

انطلقت السّيارة بسرعة معتدلة من أمام القصر، عبر الحديقة الأماميّة نحو البوّابة الرئيسية.

عند البوّابة هناك دائماً ثلاثة حراس يتبادلون الحراسة بين النّهار والليل. فُتحت البوّابة قبل وصول السّيّارة بلحظات قليلة وأغلقت فور عبورنا إيّاها وانطلقت بنا نحو الطّريق الرّئيسيّة وبعد حوالي العشرين دقيقة أخذت منعطف طريق السّاحل.

البحر عن يميننا والجبل عن يسارنا، مرّت أربعون دقيقة على وجهتنا ولم أتلقّ جواباً عن سؤالي بعد، ولا علم لديّ إلى أين نحن ذاهبون. إيّان وطلال كالعادة يتحدّثان عن العمل والمخازن وأشياء لا تثير اهتمامي، فحاولت أن أشغل نفسي بمراقبة المحيط ليجتاح معدتي غثيان طفيف وإنقباضٌ بقلبي لحظة سرحت بنظري إلى البعيد.البحر يخيفني لا أحبّ هواءه الرّطب ولا رائحته ولا ملمس الرّمال تحت أقدامي، والنّظر إليه يجعل قلبي ينقبض بشدّة، يشعرني بالخوف وعدم الأمان، والغدر...

"متى سنصل؟ وإلى أين نحن ذاهبون؟"

سألت ليلتفت الي إيّان بإبتسامة وسيمة قلّصت معدتي بشكل مؤلم ، فوجدتني أحوّل بصري من محيط واسعٍ ورهيب إلى محيط عميق وغامض. فزرقة عينيه تضاهي

زرقة المحيط لوناً وعمقاً. يا الله، لا أدري ما يصيبني،هذا الرجل يثير جنوني ، بقربه أشعر بهرموناتي تلعب بي ورغبةً جامحة للإرتماء بحضنه .

"وأخيراً سألتِ، يبدو أنّ لدينا فائز هنا" علّق إيّان بمرح عاجز عن إخفاء استمتاعه بما يدور حوله فسألته مستغربة جوابه:

"فائز، ماذا تقصد؟"

"مرّت أكثر من ساعة ولم أسمع منك تكراراً للسّؤال الذي لم تسمعي جوابه، وهذا لا يتماشى مع طبيعتك الفضوليّة والملحّة"

حدّقت به ببلاهة "أتقصد بأنّك لم تجبني أوّل مرّة لتكتشف مدى تحمّلي من الوقت قبل أن أعيد سؤالي" أجبته بغضب.

رمقني طلال عبر المرآة يبتسم هو الآخر ابتسامة ماكرة وكأنّه يخفي شيئاً ما عنّي، ماذا يخطّطان هذان الشّابّان، ليجيب إيّان " لا... ولن أجيبك. ولكن طلال توقّع عكس ذلك، توقّع أنّك لن تكفّي عن السّؤال حتّى تعرفي وجهتك، وأنا أصرّيت على أنّي لن

أخبرك إلى أن نصل وتعرفيها بنفسك. ولكن يبدو أنّك وفّرت عليّ سماع صوتك المزعج طوال الطّريق" قال عائداً بإهتمامه إلى هاتفه بيده معلناً إنتهاء الحديث

عقدت حاجبيّ معلنة عدم رضاي على كلامه شابكةً ذراعيّ حول صدري وقلت بحدّة:

"حقّاً. طالما أنّك تعترف بأنّ صوتي مزعج، لم لا توفّر على نفسك عناء سماعه وتخبرني إلى أين نحن ذاهبون"

هزّ إيّان رأسه رافضاً إخباري، وفي هذه الأثناء أخذت السّيارة منعطفاً صغيراً لتتوقف عند ميناء كبير فيه مئات المراكب واليخوت مصطفّة على طوله من كلا الجانبين. نظرت حولي شاهقة غير مصدّقة سوء حظّي. أيعقل هذا! إنّه آخر مكان على وجه الأرض أتمنّى أن أقضي نهاري فيه.

قلت راغبة في البكاء: " لا تقل لي بأننا سنذهب برحلة على متن قارب من هذه القوارب"

"بلى... هيّا ترجّلي من السّيارة" قال إيّان وهو ينزل، فتح طلال الباب لي يدعوني للنزول. لحقت بهما وأنا أتذمّر.

"آ،إيّان... لا أستطيع ركوب القارب، فأنا أعاني من دوار البحر"

"توقّفي عن التّذمّر، سارة بانتظارنا أمام المركب، سألتها أن تشتري دواءً، فأنا لم أرد أن أسألك ما إذ كنت تعانين من دوار البحر أم لا، كي لا أفسد المفاجئة، فطلبت منها شراء الدّواء في حال احتجته." بسط كفّه وسط ظهري يقودني أمامه بين المراكب واليخوت.

مشيت بصمت أندب حظّي التّعيس،أحاول تمالك نفسي أن لا أباشر بالبكاء كالأطفال متمنيةً أن تكون سارة وحدها، لأني بالطبع ،لا أريد أن أقضي نهاري وأنا أشاهد إيّان وطلال يمرحان مع حبيبتيهما، ألا يكفي ما سأعانيه من دوار في رحلتي هذه، فلن أحتمل وجود نساء أخريات يأخذن كلّ الاهتمام ويفسدن عليّ رحلتي البائسة.

"إسبيرو" يمكنك أن تميّزه من بين مئات اليخوت التي تتهادى على الشاطئ. رصاصي اللون وإسبيرو مكتوبة بالخطّ الفضّيّ العريض على واجهة المركب الجانبية.

هذه أول مرّة أرى فيها اليخت حقيقة ولكنّي أعرفه، فإيّان يملك مجسّماً مصغّراً عنه في مكتبه، إنّه مركب رائع وجذّاب وفريد من نوعه، لا مثيل له في كلّ الميناء.

اقترب الحاجب من إيّان فور وصولنا مرحّباً بنا. وأنا تنفست الصعداء لحظة رأيت سارة وحدها تنتظر أمام اليخت التي اقتربت مسرعة نحو طلال تحتضنه بتملك ، سلّمت علينا وأعطتني الدّواء ثمّ صعدنا على متنه.

الفصل الثاني

على سطح اليخت في المقدّمة يوجد التراس حيث يمتدّ مقعد عريض وطويل من الجلد الرّمادي وأمامه طاولة ممتدة على طول المقعد الذي يتّسع لحوالي ثمانية أشخاص.

ثمّ في الوسط قمّرة القيادة محاطة بالزّجاج من جميع الجهات، ثمّ الحجرة التي تقود إلى الأسفل عبر سلالم عريضة رماديّة اللون.

وبحركة عفوية أعطاني إيّان يده وقال بمرح " أتودّين رؤية إسبيرو من الدّاخل"

أخذت كفّه وأجبته بحماس" نعم... إنّه يخت رائع، كنت أجده خياليّاً في مكتبك ولكنّه يفوق روعةً وجمالاً وأناقة وهو هنا يتهادى في المحيط"

"نعم إنّه رائع، ولكنّه ازداد روعة بوجودك على متنه. فأنت بمثابة البريق الذي يشعّ منه تحت أشعّة الشّمس وسط زرقة المحيط." أجابني دافعاً إيّاي أمامه

توقف قلبي للحظات ، نعم حرفياً توقف ،أيعقل هذا ، إيّان يتغنّى بوجودي على يخته .شعرت بموجة حارّة تجتاح وجهي وتوشّحه بحمرة الخجل . هذه أوّل مرة يتحدّث فيها معي بهذه الطّريقة الرّقيقة، أيعقل أنّه تأثير البحر عليه.

إقترب مني حدّ التماس،لتظهر ردة فعل جسدي الخائن جلية وقلبي يعصف داخل صدري محاولاً الهرب مني اليه، رمقني بنظرة غريبة غامضة وكأنّه شعر بي وبما يجول بجوفي فحرر يدي متنحنحاً فاسحاً لي المجال أن أنزل أمامه على الدّرج . إنّها سبع درجات، شعرت بها وكأنّها مئة درجة، فقدماي ترتعشان عاجزتان عن حملي أكثر .

وقفت عند أسفل الدرجات مشدوهة الفاه أراقب محيطي بإعجاب، المكان فسيح ومنير إذ النّوافذ تحيط به من كلّ الجهات. الأرضيّة رماديّة اللون مائلةٌ إلى الفضّيّة البرّاقة، الى اليمين المطبخ بكل معدّاته من الستانليس ستيل وخزائنه رماديّة اللون، وطاولة طعام دائريّة كبيرة وضخمة تحيط بها المقاعد الجلدية الرماديّة ثمّ إلى اليسار غرفتي

نوم صغيرتين تضمّ كلّ واحدة سريرين وبعض الخزائن والمرايا والنّوافذ ثمّ حمّامين من كلّ جهة واحد ثمّ يواجهنا باب خشبي جرّار عريض، فتحه إيّان ودعاني للدّخول، إنّها غرفة النّوم الرئيسية، إذ تضمّ سريراً عريضاً، وكذلك الأمر الكثير من النوافذ المغطاة بستائر رماديّة والمرايا والخزائن تحيط به.

"هل تنام هنا؟" سألته مسرعةً نحو السرير راميةً بنفسي عليه بمرح أجرب مرونته ، أسندت ذراعي إلى الخلف، مسترخيةً ، وهو وقف عند المدخل مكتّف اليدين ويراقبني بإبتسامة خلاَّبة .

"بالتأكيد، فما لذّة امتلاك يخت دون استغلال كل مواضيع التّرفيه التي يقدّمها لصاحبه"

"أتُبحر وحدك؟"

سكت للحظات ثم أجاب بتردد

"في بعض الأحيان نعم... ولكن غالباً ما أكون برفقة أحد"

إجابته خيّبت أملي وظنّي ، أيعقل أنه يأتي بحبيبته إلى هنا ؟؟ فتحت فمي بنيّة سؤآله عن هويّة هذا الأحد، لكنّ الإحراج منعني... أو ربّما لم أسأل لأني لم أرد أن أعرف هويته فأشعر بالغيرة والإحباط .

إتكأ إلى حاجب الباب يحدّق إلى داخل الحجرة بشرود عيناه تحدّقان نحو المجهول وكأنّه يفكّر بأمر يشغل باله. نظراته غامضة وملامحه غير مقروءة، زفر نفساً طويلاً تاركاً مكانه مقترباً ، جلس بجانبي على السّرير وقال بهدوء :

"أحبّ البحر كثيراً، وغالباً ما آتي إلى هنا عندما أشعر بالضّيق، فأرمي همّي وأعود إلى الشاطئ إنساناً جديداً خالياً من الهموم"

أطلقت العنان لنظراتي الوقحة المتفقدة دون رقابه تجول على ملامحه الخلاّبة، أي نوع من الضّيق يمكن أن يعانيه رجل يملك كلّ شيء في هذه الدّنيا: المال، السلطة، الجمال، الشباب، والصحة. وأي امرأة مستعدة أن تعطيه قلبها وروحها من مجرّد إشارة منه.

وبدون سابق إنذار رفع بصره نحوي لأفاجأ به قريباً مني متّحدةً نظراتنا مسببةً شحنة كهرومغناطيسية بيننا، غير قادرين على فكّ أسرنا لبعضنا نظراته تلك تركتني في حالة هلع ورغبة، حاولت أن أغض بصري عنه فعجزت ليعاني قلبي المسكين من الإرهاق الشديد،... حاولت أن أعلّق أو أقول شيئاً ما ولكنّي شعرت بأنّ لساني لا يطاوعني، ليعلو فجأة صوت طلال ينادي من الأعلى:

"إيّان...أصبح كل شيئ جاهز للانطلاق... إننا بانتظارك"

إنتفض إيان عن السرير برهقة ،وكأن فيه ناراً لسعته، إستند إلى جدار الحجرة للحظات قبل أن ينادي طلال مجيباً:

"حسناً، أنا آتٍ" ثمّ وجّه كلامه لي متحاشياً النّظر إليّ: " من الأفضل أن نصعد سنبحر قريباً" ثمّ ترك الغرفة مسرعاً نحو الأعلى.

في الأعلى كان طلال وسارة قد ارتديا سترتي النّجاة وجاهزين للانطلاق، أخذ إيّان سترة وفتحها بين يديه منتظراً منّي ارتدائها ففعلت، ثمّ أغلقها بإحكام على صدري.

ارتدى سترته وساعده طلال على إغلاقها ثمّ توجّها معاً نحو قمّرة القيادة يتحدّثان مع الرّبّان.

وقفنا أنا وسارة نراقب بَعضُنَا بصمت، لا يوجد بيننا أحاديث مشتركة فنحن نادراً ما نرى بعضنا البعض ثمّ قررت المبادرة فقلت:

"شكراً لك على الدّواء"

ابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت بلطف:

"أهلاً... أرجو أن يساعدك، فإذ لم يفعل ستكون رحلتك صعبة"

أومأت لها برأسي موافقةً وقلت:

"أرجو ذلك... فأنا لا أريد إفساد رحلتكم بسبب دواري"

" لا تقلقي بهذا الشأن... وكيف هي الأجواء في القصر؟ هل تأقلمت مع جوّ إيّان وطلال والوحدة أم بعد؟"

"أني أتدبر أمري ...ففي النهاية لا خيار عندي سوى التأقلم "

"نعم... ولكنه صعب على فتاة في مثل سنّك، أن تعيش وحيدة دون أصدقاء في ذلك المكان النّائي مع شابّين أعزبين وامرأة عجوز"

نعم هي محقّةٌ ، ولكن للظرورة أحكام ، وهكذا حكم القدر عليّ ، أن يتولى رعايتي شابّان أعزبان بعد وفاة والدي لأن جميع أقربائي يعيشون في كندا ورفضوا إستقبالي بسبب مشكلة قديمة بينهم وبين والدي ، فهم لم يكونوا راضين عن زواجه من أُمِّي الأجنبية وبالطبع ليسوا راضين عني كقريبة لهم.

"وأنت هل تأقلمت مع جو طلال وإيّان" سألتها وأنا أراقب نظراتها نحو طلال حبّها له بادٍ في كل حركاتها مثيرةً غيرتي متمنيّةً لو أنّي أستطيع النّظر إلى إيّان بنفس الطّريقة دون الخوف من أن يُفضح أمري.

أجابت بتنهيدة حالمة "لقد تعوّدت كحالك... وماذا عليّ أن أفعل؟ ففي النّهاية عليّ الاختيار، إمّا تقبّل طلال كما هو، أو تركه، وأنا اخترت أن أتحمّل علاقته بإيّان والبقاء معه"

لتبتسم ابتسامة عريضة وهي تراقب طلال قادماً نحونا، الذي بدوره احتضنها دون تحفظ يسألني بمرح، يبدو كمراهق في هذه الثياب وهذا الوجه البشوش، فهو دائماً ما يكون جدّي الطّلّة والملامح:

"أرجو المعذرة، هل تسمحين لي باستعادة حبيبتي الآن" قادها أمامه نحو مقدّمة اليخت حيث وقفا يتكآن إلى الحافته يراقبان المحيط .

أغمضت عيوني مستلقيةً على كرسيّ عند مقدّمة اليخت داعيّةً الله أن لا تسوء حالتي أكثر، إذ إنتابني الغثيان منذ اللحظة الاولى من انطلاقنا.

الدواء لا يساعدني كثيراً، إنّه يخفّف من عوارض الغثيان ولكنّه لا يقضي عليها كليّاً.

لم أرد أن أخبر إيّان بذلك كي لا أخيّب ظنّه، إذ يعتقد بأنّه يقدّم لي رحلة جميلة، خاصّة أنّه وعدني أن يخصّص لي وقتاً للخروج منذ فترة طويلة، ولكن ماذا عليّ أن أقول، أنا وحظّي التعيس.

يبدو أن طلال وسارة هما الوحيدان اللذان يستمتعان بوقتهما إذ ما إنفكا عن العبث وسرقة القبلات كمراهقين ظنّاً منهما أن لا أحد يعيرهما إنتباهه غافلين عنّي .

أرى الحبّ في كلّ ما يفعلانه... إنّهما جميلان معاً.

يبدو أنّها متفهّمة لوضعه مع إيّان، فهو متطلّب جداً إلى درجة أشعر فيها أنّه لا يدخل الحمّام دون طلال فالعلاقة التي تربطهما متينة وغامضة، حتى أنا لا أفهمها.

إيّان ما يزال متمركزاً وراء دفّة التّوجيه يتحدّث مع الرّبّان المساعد، أظنّهما يتناقشان بمسألة الوجهة والوقت، إذ إيّان يشير إلى السّاعة ثمّ إلى البوصلة أمامه. قررت أن أغمض عيني وأستمتع بالهواء الرطب الذي يداعب شعري ويلامس بشرتي.

"نور، هل أنت بخير؟... تبدين شاحبة"

فتحت عيناي بتكاسل لأجده واقفاً أمامي يراقبني بقلق.

"نعم... أنا بخير، هل وصلنا أم بعد؟" أجبته وأنا أحاول الاعتدال بجلستي لأعود وأخمد ، حركة خاطئة جداً.

"عشر دقائق ونصل. المياه في تلك المنطقة صافية وهادئة ممتعة للسباحة. بإمكانك أن تنزلي للأسفل وتبدّلي ملابسك هناك بعض ثياب السّباحة الجديدة في الخزانة يمكنك اختيار ما يناسبك منها." أجابني بحماس مفرط

حدّقت به بفزع ،هذا ما لم يكن بالحسبان، أن أسبح، أجبته بصوت مرتعب:

"من!أنا! بالطّبع لا" أرعبتني فكرة النّزول إلى المحيط وسط المجهول " أنا لا أسبح... لا أعرف السّباحة"

جثى بقربي يضحك وكأنّه لا يصدّق ما أقول، وقال:

"حقّاً..." ثمّ اختفت الضحكة عن شفتيه يراقبني بقلق :

"يا للهول! نور، لا تقولي لي بأنّك تخافين من المياه"

" المياه لا... ولكن البحر نعم... فأنا أخاف من البحر ولا أحبّذ فكرة النّزول إلى المحيط والسّباحة وسط المجهول"

حدّق بي بعينيه الزّرقاوتين وكأنّه لا يصدّق ما يسمعه، أو كأنّي أخبره قصّة من المستحيل أن تكون حقيقة. لتلين نظراته متحوّلةً إلى حنان خالص.

إنه غافل عن تأثير نظرته هذه التي أشعر بها تزيد من قوّة الدّوران والغثيان لديّ، بدأت معدتي تعتصر نفسها وقلبي يرقص من قوّة وسرعة خفقانه.

أمسك بكفِّي برفق تام متلمساً جبهتي وقال:

" ما كان يجب أن آتي بك إلى هنا... لمَ لم تقولي لي أنك تخافين من المحيط. بالطّبع الدّواء لن ينفعك، لأنّ مشكلتك هي الخوف أكثر من كونها دوار البحر. إنّها غلطتي، كان يجب أن أستمع اليك" لم أقوى على رؤية الحزن الخيبة بعينيه،إذ يشعر بأنه أفسد يوم عطلتي.

"أنا بخير إيّان ، طالما أنا بعيدة عن المياه، والدّواء يساعدني حقاً، فمن دونه كانت حالتي ستكون أسوء بكثير."

توقّف اليخت في هذه الأثناء،ليظهر سارة وطلال في ثياب السّباحة مستعدّين للنزول إلى المياه.

إقترب طلال يسألنا مستغرباً " ما هذا؟ ألم تجهزا بعد؟ إنّها الثانية سنسبح قليلاً ثمّ نبدأ بإعداد الطّعام هيا."

أجابه إيّان بخيبة واضحة بصوته: "نور لا تسبح، لن تنزل إلى المياه. انزل أنت وسارة وأنا سأبقى معها"

"لا تعرفين السّباحة! هذه سابقة لا سابقة لها. ضيفة الشرف لا تسبح. لقد أقمنا هذه الرّحلة على شرفك، ولن تسبحي"

"أي طلال... أنا لا أحبّ السّباحة، وسأستمتع كثيراً بمشاهدتكم تسبحون. خاصّة وأن المركب توقّف" لألاحظت إيّان يراقبني بأسى وكأنّه يشعر بالذّنب حيالي فقلت له

أحاول التخفيف عنه " وأنت إيّان، أرجوك انزل إلى المياه، منذ قليل كان الحماس يعتريك لمجرّد فكرة السّباحة، أرجوك سأكون سعيدة برؤيتكم تسبحون وأنا بخير، ها أنظر إلي" وقفت مترنحة لأثبت صحّة كلامي، فأنا لا أريد أن أفسد متعتهم بدواري السّخيف وخوفي من المياه.

ربّت طلال على كتف إيّان بخفّة وقال:

"هيّا اذهب وبدّل ملابسك، لا تجعلها تشعر بالذنب أكثر مما يبدو عليها"

"انزل أنت وسارة، سألحق بكما بعد قليل" أجابه بفتور

تركتهما يتناقشان وتوجّهت إلى الأسفل قاصدة الحمام.

ليستوقفني إيّان عند أول السلالم يسألني:

"إلى أين أنت ذاهبة؟؟"

أجبته بخجل: "أحتاج إلى دخول الحمام"

"انتظريني، سآتي معك لأبدل ملابسي"

***

يا الله!! الآن فهمت سبب قلق إيّان عليّ. حدّقت بانعكاس وجهي الشّاحب بالمرآة، عيناي الخضراوتان باهتتان، التعب والإرهاق بادٍ بشكل واضح على ملامحه.غسلت وجهي بالماء البارد علّي أخفف من شحوبه وأنتعش قليلاً .

أغمضت عيوني مستعيدةً ذكرى مماثلة ، ذكريات أحداث رحلتي مع أبي على متن قاربنا. كانت المرّة الأولى والأخيرة حيث اكتشفت وقتها عدم مقدرتي على تحمّل دوار البحر. كم أفتقد أبي واشتاق إليه.

طرق إيّان الباب بخفّة وناداني بصوت قلق:

"نور... نور هل أنت بخير؟"

فتحت الباب لأفاجأ به مرتدياً ثياب السّباحة مستعدّاً للنزول إلى المياه.

أسر إنتباهي منظره الجذّاب والرّائع، لا أجد فيه تفصيلة شاذة، شعره الأسود والكثيف المتناثر على جبهته، عيناه الزّرقاوتان الواسعتان وأهدابه الطّويلة والكثيفة، أنفه متوسّط الحجم والطّول، شفتاه الممتلئتان، أسنانه المصفوفة والنّاصعة البياض، لون بشرته الحنطيّة وطوله وامتلاء جسده المتناسق من ممارسة الرّياضة.

وجدتني أراقبه دون أن أشعر ناسيةً ما أعانيه من دوار فأعادني صوته إلى اللحظة:

"هل أنت بخير؟"

"نعم... أنا بخير" أجبته أحاول رفع شعري وأعقده بمحاولة فاشلة في إلهاء نفسي عنه "هل أنتَ جاهز؟"

فسح لي المجال لأتقدمه معلّقاً " لن أنزل إلى المياه قبل أن أتأكّد من أنّك بخير، هيّا معي إلى الأعلى سأحضّر لك عصيراً يساعد معدتك على أن تهدأ قليلاً"

أجبته متذمرة "إيّان... لا أستطيع شرب شيء. أرجوك، لا تشعرني بأن حالتي أثّرت على سير رحلتنا. إذا كنت تريد إسعادي انزل إلى المياه واستمتع بوقتك مع طلال وسارة، وأنا سأكون سعيدة جداً بمشاهدتكم عن التّراس"

"هاي... هل أنت متأكّدة أنّك لا تريدين النّزول. المياه رائعة ودافئة" نادى طلال من المياه عندما رآني أراقبهم عند حافّة اليخت.

"لا... لن أنزل. سأترك لكم متعة المياه الدّافئة، وأنا سأمتّع نفسي بمشاهدتكم"

يبدو أنّ إيّان تحمّس لمشهد طلال وسارة في المياه إذ سرعان ما نزع عنه كنزته ورماها بجانبي على الكرسيّ وغطس بالمياه.

وقفت أراقبهم عن التّرّاس والتقط لهم الصّور.

طلال يغوص تحت المياه ثمّ يرفع سارة على كتفيه بسرعة إلى الأعلى ثمّ يعود ويرميها إلى المياه فتغوص ثم ترتفع بين ذراعيه من جديد. وإيّان يوتّرني إذ يغوص

ويبقى تحت المياه فترة أعجز خلالها عن حبس أنفاسي، ثم أشعر بالارتياح عندما أرى رأسه يطل من تحت المياه".

لا أدري ما الذي يحصل لي. إذ إن ذكرى والدي تطاردني منذ الصباح ربما بسبب رحلتي معه على متن القارب، وجدتني شردت نحو البعيد، أفكّر وأتذكّر أحداث تلك الرّحلة فأعادني صوت إيّان يناديني:

"هاي نور... بماذا تفكّرين؟ تبدين شاردة الذّهن؟ ما الذي يشغل بالك"

خرج من المياه، تناول منشفة، جفف بها وجهه وشعره ثمّ وقف بجانبي مواجهاً المحيط.

"أتشتاقين إليه؟ ... والدك" سألني وهو ما يزال ينظر نحو البعيد، فاجأني سؤاله ، كيف عرف بأني كنت أفكر بوالدي . تنهدّت بحزن مجيبةً

"نعم... دائماً... لقد كان كلّ ما أملك، وبعد أن فقدته شعرت بأنّي وحيدة وعاجزة لا سنَد لي في هذه الدّنيا. أشتاق إلى صوته الحنون وصدره الواسع. لقد كنت دائمة

التّذمّر ومتطلّبة جداً. وكان دائماً ما يتفهّمني ويرضيني بطريقته الخاصّة التي كنت أعشقها كثيراً. وفاته كسرت شيئاً في داخلي إيّان. فأنا لم أكن متحضّرة لخسارته، لم أكن جاهزة لها."

أحاط كتفي بذراعه وقال بصوت هادئ فيه شيء من الحسرة والحزن:

"لا أحد يكون متحضّراً لخسارة من يحبّهم ويهتمّ لأمرهم نور، فالموت لا يستأذن ولا يمهل ولا يتردّد، ودائماً ما يترك خلفه قلوباً محطّمة ومنكسرة ومعذّبة"

كلماته حزينة ومؤثّرة وعميقة ذكرتني بأنّه هو كذلك الأمر خسر والديه صغيراً فسألته:

"كم كان عمرك عندما توفّي والداك؟"

" لا أذكر والدي أبداً، توفّي وأنا في الثالثة من عمري"

صمت لبرهة وكأنّه يستعيد ذكريات أحداث غير محبّبة إلى قلبه ثمّ تابع "أمّا أمّي..." سكت للحظات طويلة مردفاً بحزن وآسى عميق " توفّيت أمّي وأنا في السّابعة من عمري"

وجدته يتصارع مع نفسه ليجد الكلمات المناسبة،ربما ما كان يجب أن أطرح عليه هذا السّؤال، إذ يبدو أنّه أعاد إليه ذكريات لا يرغب في تذكّرها. شعرت برغبة جامحةً لاحتضانه والتّخفيف عنه ولكنّي منعت نفسي عن هذه المبادرة لأتنبّه للموسيقى الهادئة التي تعمّ أرجاء اليخت، فسألته دون تردّد أن يراقصني.ناظرني بتساؤل:

"حقّاً! ... تريدين أن ترقصي وأنت بحالتك هذه؟"

أجبته بتعالي:" ألست أنا ضيفة الشرف لهذه الرحلة؟ إذاً يحقّ لي المطالبة برقصة، وأنت لا يحقّ لك الرّفض"

رسم ابتسامة بدأت من شفتيه وانتهت عند عينيه، هذا جيّد، لقد نجحت في القضاء على التّوتّر والجو المشحون الذي خلقناه منذ قليل. أعاد ارتداء كنزته ، أعطاني يده وقال:

"أمراً وطاعة يا آنستي الجميلة"

وبتردد وضعت يدي في يده مقتربةً منه ، مرتبكة،جاهلةً للخطوة الثانية المطلوبة ، فانتظرت منه المبادرة.

ضحك بسلاسة، قرّبني إليه واضعاً ذراعه اليمنى حول كتفي واليسرى عند أوسط ظهري، وأنا احتنضته بخجل، ألقيت برأسي على كتفه وأغمضت عيني ورحنا نتمايل على نغمات الموسيقى الهادئة.

هذا رائع، وأخيراً أنا بين ذراعين إيّان كرم ، أشعر بدفئه وحنانه. كم من المرّات تمنّيت وتخيّلت نفسي قريبة هكذا منه، ولكن ما أشعر به الآن يفوق كلّ توقّعاتي وأحلامي التي كنت أتخيّل الشّعور بها لو كنت بين يديه، إحتضنته بتملك لأشعر

بعضلات ظهره تتقلص تحت أصابعي،تتحنح يحاول خلق مسافةً بيننا لكنّي تمسكت به بعناد لأسمعه يتمتم :

"أطلبي مني التوقّف في حال شعرت بالتّعب، لا أريد أن تزيد حالتك سوءاً"

أجبته بتكاسل " أنا بخير، لم أتخطّى بعد الخطّ الأحمر لحالتي، ما زلت في المنطقة الصّفراء، حالة التأهب"

" كلامك هذا لا يطمئن"

"حالتي الآن تُعد أكثر من رائعة مقارنة مع المرّة الماضية حيث قضيت معظم وقتي في الحمّام"

"لِمَ أشعر بأنّك ستعجزين عن رفع رأسك عن كتفي إذا سألتك ذلك".سألني متحدّياً

"أرجوك توقّف عن الكلام ودعني أستمتع باللحظة"

توقف عن الحركة وسألني بريبة« الاستمتاع بماذا بالتحديد؟؟»

« آه إيّان ، الكلام يزيد حالتي سوءً »تذمرت ببراءة تامّة

تنهّد عائداً إلى مراقصتي ، أشعر به يحاول خلق مسافة بيننا، ولكنّه بذات الوقت لا يريد كشف نيّته لي ، وأنا إدعيت البلاهة التامّة مندسةً بحضنه .

إنه لا يشعر بي، ولا يريد أن يشعر بي ، يصّر على معاملتي كطفلة مسؤولاً عن رعايتها ، لا يبخل على بالعطاء والاهتمام ولكنّ لكل شيئ حدود عنده ، وحدود إيّان هي إقترابي منه بأي طريقة ، لطالما عاملني بجفاء تام مغلقاً أمامي كل الأبواب إلى قلبه ومشاعره ، غامض بارد وقاسي ، وبذات الوقت حنون ودافئ .

شعوري إتجاهه فريد وقوي ، لا أملك مثيله لأحد ، ولا أعتقد بأني سأملك لغيره .

خرج طلال وسارة من المياه يناديان قاطعين عليّ متعتي المؤقته ، موقنةً بأنها لن تتكرر قريباً :

"هاي... أين أنتما.. لقد جُعنا، سنبدأ بتحضير الطّعام"

وكأنّ هذا ما كان ينتظره إيّان ليبعدني عنه حاولت رفع رأسي عن كتفه موقنةً بأني في اللحظة التي سأرفعه فيها وأفتح عيناي ستسوء حالتي، فتركت مكاني راكضةً نحو الأسفل ناشدة الحمّام.

بدأت معدتي تعتصر نفسها بمحاولة فاشلة لإخراج محتواياتها ، فأنا لم أشرب أو آكل شيئاً منذ ركبنا اليخت وهذا أمر جيّد نظراً لحالتي هذه.

"هل أنت بخير؟" أتى صوت إيّان القلق من خلفي، يبدو أنّني نسيت أن أغلق باب الحمام خلفي.

"آ،إيّان... أرجوك اخرج... أخرج. لا أريدك أن ترى هذا"

أشرت له بيدي من وراء ظهري بأن يرحل، ولكنه بدل الرحيل اقترب مني جاثياً بجانبي على الارض ،رفع شعري عن وجهي وخاطبني بحنان :

"اهدئي... سيكون كل شيء على ما يرام. سنعود حالاً إلى الشاطئ، تعالي معي. فأنت لم تأكلي شيئاً منذ الصباح، لن يخرج شيء من معدتك"

ساعدني على النّهوض متوجّهاً بي إلى غرفة النّوم، إستلقيت على السرير لأتنشق رائحته على الوسادة ،لتعتصر معدتي نفسها من جديد، نزع حذائي برفق واختفى.

سمعته يتحدّث إلى سارة وطلال في الخارج، ثم عاد بعد قليل يحمل وعاءً فيه ماء. أعطاني حبّة دواء مع كوب ماء ثم انتشل قطعة قماش من الوعاء، عصرها قليلاً ووضعها على جبهتي رائحتها منعشة، يبدو أنّه وضع في الماء قطعاً من الليمون الحامض.

وبحركة متقنة حنونة شرع يمسح وجهي وجبهتي بقطعة القماش " ستكونين بخير.. أعدك. حاولي أن تنامي سيساعدك النّوم على تخطّي الدّوار إلى أن نصل".

جلس بقربي على السرير يداعب خصلات شعري برفق إلى أن غلبني النّعاس فغرقت في النّوم حيث تلاشت على أثره بوادر التّعب والإرهاق وما عدت أشعر بشيء سوى تمايل اليخت وهو يشقّ طريقه بين الأمواج نحو الشّاطئ.

***

لا أدري لكم من الوقت غفوت إذ عندما استيقظت كان الظلام يحيط بالمكان وسمعت إيّان يقول:

"تبدو مرهقة جداً. أأوقظها كي تأكل شيئاً ما، أم أتركها نائمة حتى الغد"

وإذ به يحاول أن يحملني،فتحت عيناي بتكاسل وإرهاق لأجد نفسي نائمة في السيارة بدل اليخت، لم أشعر بالوقت ولا حتى بالمكان. يبدو أنهم نقلوني دون أن أشعر.

"هاي... هل استيقظت؟ كيف حالك؟ أتشعرين أنك قادرة على المشي، أم أساعدك في الدخول؟" سألني إيّان بصوت هادئ وحنون.

حاولت رفع رأسي والاستقامة من وضعيتي فعجزت.

"يبدو أنها ما تزال تعاني من الدوار" قال طلال "أأساعدك في إدخالها إلى المنزل"

وضعت يدي على رأسي ضاغطةً بشدة، يا الله، الألم رهيب.

"أنمت كل هذا الوقت؟ كيف لم أشعر بذلك؟" سألت وأنا أخرج من السيارة مترنحة فإستندت إلى السيارة أحاول إستعادة توازني.

"تعالي" حملني بين ذراعيه قائلاً " ما زلت غير متوازنة، سأوصلك إلى غرفتك"

أحطتُّ عنقه بذراعي ملقيةً برأسي إلى كتفه بدون تذمر ، سعيدة بقربه وإهتمامه .

صعد بي مباشرة إلى غرفتي، وضعني على حافة السرير ثم توجه إلى غرفة الملابس خاصتي. ماذا يفعل في خزانتي؟؟ غاب لدقائق ثم عاد يحمل بيجامتي.

خطفتها من يده محرجةً من فعلته إذ قلّب للتوّ أدراج ملابسي الداخلية، أما كان بإمكانه سؤالي أن أحضرها بنفسي؟؟!!

دخلت ليلى في هذه الأثناء والقلق بادٍ على وجهها فقلت لها مُطَمْئنةً:

"أنا بخير ليلى ... لا تخافي، فإيّان يغالي في قلقه"

"لست أغالي، ولكني حذر، لا أريدك أن تقعي وتؤذي نفسك بسبب الدوار"

"أرجوك ليلى، ساعديها على دخول الحمام وتبديل ملابسها. لا تتركيها إلا وهي نائمة في سريرها. وأنا سأنزل لأحضّر لها شيئاً تأكله."

"لا أريد... لا أريد أن آكل، ما زلت أشعر بالغثيان، أريد فقط تبديل ملابسي والعودة إلى النّوم."

ومأ برأسه يتلفت حوله وكأنه يتأكد من حسن حال كل شيئ حوله ثم قال:

"حسناً كما تشائين. أنا في غرفتي إذ احتجت لشيء ما. اتصلي بي أو بليلى اتفقنا". ثم خرج مغلقاً الباب وراءه.

أووف، إنه مجرد دوار وغثيان، ماذا يحصل معه؟ لم كل هذا القلق؟

حسنا إنه شعور جميل أن أكون محطّ اهتمام الجميع من جهة، ولكن من جهة ثانية أشعر أحياناً أنّه يخنقني من شدّة اهتمامه وخوفه عليّ.

****

يبدو أن هذه الليلة لا تريد أن تنقضي، فالساعة تتقدم ببطء شديد وكأنّها الرابعة صباحاً منذ دهرٍ مضى. لم أعد أشعر بالدوار والغثيان ولا حتى النّعاس ولكن الجوع الشديد بدأ يتملّكني. تسللت إلى المطبخ وصنعت لنفسي شطيرة من حواضر الثلاجة وعندما انتهيت رحت أتجوّل في أرجاء القصر، الكلّ نيام، ماذا سأفعل بوقتي حتّى يحلّ الصّباح... نعم... وماذا أفعل في مثل هذه الظروف، غير التسلل إلى غرفة إيّان ومراقبته نائماً. هذه المرّة لن أغفو بجانبه أنا متأكّدة.

استرقت السّمع من وراء الباب لأتأكّد من أنّه نائم ثم فتحته بخفّة وتسللت إلى الداخل، ضوء القمر يبعث خيوطه البراقة عبر باب الشرفة الزجاجي المطل على غرفته تنيرها بضوء رماديّ خافت يبعث السكون والطمأنينة في القلب والروح. اقتربت من سريره جالسةً على الأرض متكئةً إلى حافّة السرير،مكتفيةً بمراقبته.

لا أدري ما الذي يشدّني للقيام بهذا الأمر. ربّما لأنّه الوقت الوحيد الذي أستطيع فيه فعل ذلك دون أن يُفضح أمري. فوجودي قربه يشعرني بالأمان والطّمأنينة.

إنّه طيّب وحنون. وقاسٍ وبارد وغامض في آن معاً، فهذا التناقض في شخصيته يجعله مميزاً ومثيراً للاهتمام يشدني إليه ويجعلني غير قادرة على مقاومته.

ما زلت أذكر عندما أتيت إلى هذا القصر بعد وفاة والدي حيث حاول الجميع مواساتي والتخفيف عني لأجد نفسي ومن غير وعي وتخطيط أقع أسيرة نظراته الخلاّبة ، أتوق لسماع صوته للمسة عابرة منه، لإهتمامه ، لسؤاله عن حالي ، ولكنّه يرفض رؤية إهتمامي وشعوري على أنه حب وهذا يرهقني ويعذّبني ، ماذا عليّ أن أفعل كي يشعر بحبي له .

في بعض الأحيان، أشعر وأنا أراقبه برغبة في البكاء، فأبكي بصمت قربه. ما الذي يحصل لي؟ ولم أحبّه كلّ هذا الحب؟ إلى أين سأصل في نهاية الأمر معه؟ هل سيأتي

يوماً ويراني كما أراه ويشاركني حبّي، أم سيبقى حبي له مختبئاً بين ثنايا قلبي يتآكلني رويداً رويدا.

إنّه بالنسبة لي النبض الذي يضخ الدّماء في جسدي، النّفس الذي ينقّي الهواء في رئتي، لا أستطيع الاستمرارية بدونهما.

بدأت الخيوط الفضّية تتبدّل بخيوط صفراء مشعّة والضوء بدأ يتسلل ببطء في أرجاء الغرفة لأفاجأ بإيّان يتقلّب في فراشه، إبتعدت مذعورة هاربةً من غرفته ، لا أريد لتلك الليلة أن تتكرر .

تسللت إلى غرفتي عائدةً إلى السرير أنتظر قدوم الصباح.

****

استيقظت على صوت آلة جزّ العشب الصادر من الحديقة الأماميّة، إنه يوم تنضيف القصر العام ، حيث تقوم ليلى بقلبه رأساً على عقب ، تنهدّت بإرهاق ، لا بدّ أني عدّت وغفوت بعد عودتي من غرفة إيّان .

تفقدت هاتفي لأجد رسالة من إيّان .

إيان:

"مرحباً نور، كيف حالك، أرجو أن تكوني قد أصبحت بخير. لم أشأ إزعاجك في الصباح، فرحلت دون الاطمئنان عليك. أنا أدعوك للغداء خارج القصر، أرجو أن تكوني جاهزة عند الثانية ظهراً. سيأتي طلال لاصطحابك. هناك أمر مهم أريد مناقشته معك."

نور:

"أنا بخير، شكراً لسؤالك.

سأكون جاهزة عند الثانية."

هذا رائع إنّها فرصة لأراه اليوم خارج القصر ، ماذا يريد مني يا ترى؟؟آه، فضولي سيقتلني إلى أن يحين موعد الغذاء.

في تمام الساعة الثانية كان طلال في انتظاري أمام المدخل.

دخلت السيارة، ألقيت عليه التحية وأنا أضع حزام الأمان.

ابتسم مجيباً:"أهلا... تبدين بحالة جيدة اليوم، لقد أقلقتِنا كثيراً عليك البارحة"

"شكراً لك على سؤالك، وأنا آسفة لأني أفسدت نهاركما البارحة أنت وسارة"

"أبداً لم تفعلي... بالعكس نحن من شعر بالسوء، كان من المفروض أن البارحة هو يومك لتمرحي وترفّهي عن نفسك، فحصل العكس."

"أتعرف ما الموضوع الذي يريد إيّان مناقشته معي؟؟"

هزّ برأسه ضاحكاً :"نعم... نعم... ولكني لن أخبرك... سأترك الأمر لإيّان"

"أي طلال... لا تقل لي بأنه مفاجأة أخرى! فمفاجآت إيّان أصبحت تخيفني"

إسترسل بالضحك يهز رأسه معلّقاً « لا تخافي ، مفاجأته ستسعدك هذه المرّة »

طلال رائع ، أُحبّه كثيراً، أشعر بحنانه وإهتمامه، ولكنه قليل الكلام،وكأنّه دائم التفكير ، وكأنّ عقله يعمل بإستمرار فلا يجد عنده وقتاً للكلام والتحدث مع الآخرين

"طلال" ناديته بتردد

"نعم" أجابني مركّزاً انتباهه إلى الطريق أمامه.

"منذ متى وأنت تعرف إيّان؟"

التفت نحوي، يرمقني بنظرة مستفسرةً وكأنه يحاول اكتشاف مغزى سؤالي ثم أجاب بحماس وكأنه يستعيد ذكريات جميلة:

"أنا وإيّان أصدقاء طفولة. كان لا يفصل بين منزلي ومنزله سوى سور خشبي عتيق."

فاجأتني كثيراً هذه المعلومة، لم أتوقعها أبداً. مع أني أعرف بأن هناك شيئاً عميقاً وقديماً يجمعهما أكثر من ربّ عمل وموظف ولكن أصدقاء طفولة، هذه غير متوقعة.

"هذا يعني أنك كنت تعرف إيّان طوال فترة حياته" سألته ببراءة.

"نعم، أعرفه جيداً."

"ماذا تعرف عنه.. فهو يثير فضولي كثيراً.. أهناك امرأة في حياته؟" وجدتني أنهال عليه بالأسئلة علّه يجيب عن أحدها ويشبع فضولي نحو إيّان.

تغيّرت ملامحه، ومن تعابير وجهه العابسة عرفت أن سؤالي لم يعجبه أبداً.

حسناً إنه محق فها أنا أستغله لمعرفة أسرار إيّان، إنها لعبة دنيئة مني.. نعم أنا أعرف ذلك. ولكن مع كل هذا تمنيت لو أنه يجيبني. وبعد صمت ساد بيننا لدقائق طويلة سألني بصوت رتيب مخيف:

"نور... بما أنك فتحت الموضوع، فلنتحدّث بصراحة ولا ندّعي السذاجة حول ما يدور حوله. أنت معجبة بإيّان، أليس كذلك؟"

صدمني كلامه المباشر، لم أتوقعه منه أبداً ، هل مشاعري لإيّان واضحة لهذه الدرجة ؟ ولماذا لا يلاحظه هو كما طلال.

رمقته بطرف عيني فوجدته ينتظر إجابتي فاكتفيت بتحريك رأسي ليفهم بأني أجيب بنعم.

رفع حاجبه مستنكراً ردّي وقال:

"إجابة خاطئة جداً... أتعرفين فارق السن بينكما؟ هناك عشر سنوات نور. أنت في السابعة عشرة وهو في السابعة والعشرين. إيان أبداً لن ينظر إليك بهذه الطريقة فهو يعتبر نفسه وصيّاً عليك، أي بمثابة والدك الذي يهتمّ لأمرك ويسهر على راحتك وأبداً لن تكوني غير ذلك بالنسبة إليه."

كلماته حادّة، وكأنّها سكين تخرق قلبي وتخرج لتخرقه من جديد. شعرت بأني عاجزة عن التنفس، وأحتاج للبكاء... أبداً لا أريده أن يكون كوالدي، فهو ليس والدي، وأشهر قليلة وسأصبح في الثامنة عشرة ولن أبقى تلك الطفلة في نظره. عليه أن يحبّني ويعتبرني امرأة ناضجة أستحقّ منه الحبّ والاهتمام.

ضمّيت كفّاي أفركهما ببعضهما البعض أحاول دفع الارتباك عنّي وكتم دموعي التي تهدد بالإنهمار بأي لحظة.

أمسك طلال بيدي يخاطبني بصوت هادئ ورقيق وكأنه يحاول التخفيف عني:

"أرجوك نور... أعذريني على طريقة كلامي معك، ولكني أهتم كثيراً لأمرك، ولا أريدك أن تتأذي. فأنت تستحقين حياة جميلة وبريئة ومفعمة بالحب والاهتمام. وصدقيني، لن تجدي كل هذا مع إيّان. مشاعرك تجاهه ليست سوى حب طفولي ومع مرور الوقت ستتخطينه وعندما تجدين الحب الحقيقي ستسخرين من كل لحظة شعرت فيها بأنك تحبينه"

"لا..."

"لا ماذا؟؟!!..."

أجبته بصوت مخنوق وكأن الكلمات شفرات تمزّق حنجرتي:

"لا... لن أتوقّف عن حبّه... ولست أتوهم حبّه...ولن أحبّ سواه أبداً. أنت لا تفهم ما أحسّ به"

زفر طلال محرراً تنهيدة طويلة يهزّ برأسه قائلاً:

" يا لعنادك ، يبدو أنّي لن أستطيع تغيير رأيك، ولكن أرجوك، عديني أن تنفذي ما سأطلبه منك"

نظرت اليه وكلّي آذان صاغية على أمل بأنّه سيدُلّني على مفاتيح قلب إيّان.

"لا تدعي إيان يحس بمشاعرك نحوه، أرجوك... أنا أطلب منك هذا لأجلك أنت، لأنّي أعرف إيّان جيداً، لن يعجبه هذا الأمر أبداً، ولن تكوني سعيدة أبداً بردّة فعله. أعطيني بعض الوقت، لأرى ما يمكنني فعله"

وكأنّ حبال الأمل عادت لتمتدّ بيني وبين إيّان من جديد، ابتسمت مجيبةً بحماس شديد

"حقاً... أحقاً ستساعدني؟؟"

هزّ برأسه وكأنّه يحاول أن ينفض عنه أفكاراً لا يريدها، أو يفكّر في حلٍّ لمسألةٍ لا حلّ لها... ماذا هناك؟؟.. بالتّأكيد هو يعرف الكثير من الأمور، ولكنّه لا يريد التّحدّث فيها.

"لا أعدك بشيء نور... خاصّة بمسألة تتعلّق بمشاعر إيّان.إنّه من المستحيل أن يقبل بمشاعرك إتجاهه، الأمر الوحيد الذي أستطيع أن أعدك به هو محاولة التّحكّم بردّة فعله حالما يعلم بمشاعرك نحوه، ولكنّي أحتاج للوقت، هذا كلّ ما أطلبه منك."

قاطع حديثه رنين الهاتف ليجيب عليه

" نعم... خمس دقائق ونصل.. لا ... لا تقلق... بالطبع سألتني أيعقل هذا... حسناً لن نتأخر"

أعاد هاتفه إلى جيبه وأكمل القيادة دون تعليق إضافي على الموضوع. ركن السّيارة أمام مطعم يطلّ على البحر... لقد أتيت إلى هنا مسبقاً برفقة إيّان وطلال وسارة، يقدّم سمكاً طازجاً شهياً جداً.

نزلت من السيارة وسبقت طلال نحو المطعم فلحق بي حاجباً عني الطريق ، وقفت أمامه محدّقة به بتساؤل.

لمس كتفي برفق وقال:

"دعيني أراك... لا أريد إثارة تساؤلات وشكوك إيّان.. ابتسمي يا جميلة ، لا تدعي زعيمنا يتسائل عن سبب حزن أميرتنا "

ضحكت وأنا أراقبه يردّ خصلات شعري عن وجهي ليكشف عيوني بوضوح ثمّ قال وهو يتفقّدني:

"حسناً... أنت جاهزة الآن... تبدين رائعة، هيا بنا"

الفصل الثالث

استقبلنا المضيف في قاعة الاستقبال وقادنا نحو طاولتنا حيث إيّان جالس عند التراس مواجهاً للبحر. وقف فور وصولنا إلى الطاولة وأزاح لي الكرسي لأجلس، ثمّ سأل طلال:

"هل أنت متأكّد من أنّك لن تأكل معنا؟"

"بالتأكيد.. أتريد من سارة خنقي... إنّها تنتظرني على الغداء. حسناً، أرجو لكم يوماً سعيداً وغداءً هنيئاً... المعذرة"

كان عند الباب قبل أن ينهي جملته.

ضحك إيّان وقال وهو يجلس قبالتي "يبدو أنه تأخر على سارة، ويبدو أنها ستخنقه في كلا الحالتين" ثم سألني "والآن، ماذا سنأكل، أنا جائع، هل أنت جائعة؟؟"

"بالطبع أنا جائعة، وأحب كثيراً الأطباق الذي يحضّرها هذا المطعم"أجبته بخنقة ، أحاول عدم تذكر كلام طلال ونصيحته لي .

رفع يده مطالباً بحضور أحد المضيفين.

أتت بعد لحظات امرأة ترتدي تنورة سوداء قصيرة وقميصاً أبيض وعندها بطاقة معلقة على صدرها الأيمن يحمل اسمها "هناء".

"أهلاً وسهلاً بكما، بم أخدمكما اليوم" قالت وهي تقدّم لنا قائمة الطّعام تراقب إيّان بعينين جائعتين،فأنا لا ألومها إذ أرى تلك النظرة بكل أنثى تقابله وأنا واحدة منهم .

ردّ إيان القائمة لها وقال "لا أحتاج إليها، أريد طبق رقم 7 دون أي تغيير عليه، وأريد معه النبيذ الأحمر"

سجَّلت طلبه ثم حولت انتباهها إلي منتظرة طلبي، راحت عيناي تجول في القائمة سعياً لإيجاد طبق رقم 7 فوجدت بأنّه نفس الطّبق الذي طلبته المرّة السابقة وأحببته كثيراً "أريد رقم 7 كذلك الأمر"

"وماذا تريدين أن تشربي"

ردّ إيّان عليها قبل أن أفتح فمي "عصير برتقال لها لو سمحت"

ابتسمت المضيفة له وأخذت القائمة منّي وانصرفت.

فور ابتعادها علّقت متذمرّة "ولمَ عصير البرتقال...فأنا أريد أن أجرب النبيذ الأحمر مثلك"

"لا أظن ذلك" أجابني بحزم "ما زلتِ قاصر لهذه المشروبات ولا أنصحك بها ابداً... والآن أخبريني، أما زلت تشعرين بالدوار أو الغثيان"

"لا أنا بخير الآن. لا أشعر بشيء وكأن البارحة لم يكن"

"هذا جيد"

عادت المضيفة بالعصير والنبيذ.

اقتربت من إيّان وعيناها تراقبانه بشغف تحاول لفت إنتباهه اليها، انحنت أمامه ملصقةً كتفها بكتفه بحجّة أنها تضع كوب النبيذ أمامه... ابتعد إيّان عن دربها فاسحاً لها المجال أمامه يراقبها بمكر ملاحظاً حركتها الرخيصة، لا بدّ أنه فهم مقصدها، ولكنّ ردّة فعله أثارت حيرتي ، لم يبدو سعيداً بإهتمامها بل بدا مشمئزاً منها .

راقبها تبتعد عنه بنظرة غامضة ليعود بإنتباهه الي فسألته بفضول :

«ما هو الموضوع الذي أردت محادثتي به»

رفع حاجبه وكأنه لم يفهم سؤالي ثم قال "......دعينا نأكل أولاً"

بعد دقائق عادت المضيفة بأطباقنا. رائحة السمك المشوي مع الثّوم والحامض والكزبرة الخضراء لا تقاوم. رحت ألتهم طعامي بشهية واضحة فأنا جائعة جداً. رفعت نظري عن طبقي لأجد إيّان يراقبني مستمتعاً برؤيتي وأنا آكل بشهية ضحك معلّقاً«أعشق رؤيتك وأنت تأكلين ، تفتحين شهيّتي على الاكل »

إبتسمت بخجل جلي على ملامحي إذ أشعر بالسخونة تجتاح وجهي بعنف ، منّبّهةً نفسي أن أتباطئ بالأكل فأنا لست في المنزل .

"ماذا فعلت اليوم؟" سألني مباشراً بطعامه

تنحنحت مجيبةً "لم أفعل شيئاً مهماً...فكما تعرف، ليلى تقيم حفلة نظافة للقصر، فحاولت قدر الإمكان الابتعاد عن طريقهم"

"نعم أعرف، لهذا دعيتك للغداء هنا" أخذ رشفة من نبيذه وتابع "أترغبين يوماً ما في أن تديري أعمال والدك، وتكوني المسؤولة العامة عن حصتك التي تركها لك"

توقفت الملعقة وسط الطريق إلى فمي محدّقة به بذعر. فأنا أبداً لم أفكر بهذا الأمر. لطالما كان أبي هو المسؤول عن كل شيء، ثمّ استلم إيّان أعماله من بعده. لم يخطر ببالي قط أن يأتي يوماً وأكون مديرة أعمال وأجلس وراء مكتب. لطالما كنت متحيزة لدراسة علوم الأحياء، فهذه المواد كانت تثير اهتمامي كثيراً في المدرسة.

"ماذا تقصد... أتريد مني أن أدير أعمال والدي؟ فأنا لا أعرف شيئاً عن إدارة الأعمال"أجبته بذعر واضح بنبرة صوتي

"لا... بالطبع لا...على الأقل ليس الآن. ولكني أريد منك البدء بالتفكير في مستقبلك وكيفية الحفاظ على شركة والدك لذا، سأساعدك في اختيار الجامعة والفرع الذي يناسبك. ألا تظنين بأن الوقت قد حان لذلك."

وضع يده في جيبه مخرجاً منه ظرفا وقدمه لي.

فتحت الظرف لأرى فيه بعض عناوين وأسماء جامعات وعناوين البريد الإلكتروني التابع لكل جامعة، قال وهو يراقبني أتصفح الورقة:

"بإمكانك تصفح هذه الجامعات ودراسة ما تقدمه لك من خدمات واختيار ما يناسبك، وأريد أن ألفت انتباهك باعتبار إدارة الأعمال مهنة محتملة."

مبادرته هذه أشعرتني برغبة ملحّة للبكاء...إنه حقا لا يفوته شيء وخاصة في تأمين ما هو الأفضل والأنسب لي، تذكرت كلام طلال في السيارة عندما قال لي بأن إيّان

يهتم كثيراً لأمري ولكن ليس كما أنا أهتم لأمره. فهو يشعر بأني مسؤولة منه وحمايتي فرضٌ عليه. وضعت الظرف في حقيبتي وقلت وأنا أحاول جاهدة في أن أخفي رغبتي بالبكاء:

"شكراً لك... فأنا حقاً بحاجة إلى هذه الخطوة في حياتي، أعدك بأني سأعلمك بقراري قريباً."

"هذا يسعدني، فأنت تستحقين الأفضل، إنها فرصة لك لتبدأي فصلاً جديداً من حياتك، تتعرفي فيه على أصدقاء جدد وحياة جديدة."

***

أمضيت فترة بعد الظهر أتصفح عناوين وأسماء الجامعات التي زودني بها إيّان. إنه حقاً لعالم واسع، لوهلة شعرت بأني ضِعت داخل الفروع والحقول التي توفرها كل جامعة، وكلّما توسعت في البحث، كلّما وجدت صعوبة في الاختيار.

يا الله، لم أكن أعرف بأن المسألة صعبة إلى هذه الدرجة

ماذا سأفعل؟ أشعر بأن رأسي سينفجر، وفقدت التركيز كلياً.

أغلقت الحاسوب ونزلت إلى الأسفل، إنها الثامنة، لابدّ أن إيّان قد عاد من المكتب، وقريباً ستقدم ليلى العشاء.

مررت بطريقي إلى المكتب لأجدهما كالعادة يجلسان على الأريكة الجلدية بجانب النافذة المطلّة إلى الحديقة الخلفية يتحادثان بأمور العمل.

سأل طلال "وهل ستذهب وحدك كالعادة، أم ستصطحب أحداً هذه المرّة؟"

-"لا، سأذهب وحدي كالعادة، لا أحتاج إلى رفيق في حفلة كهذه، فأنا عادة أجد رفيقةً هناك، إنها فرصة لي لأتعرف على وجه جديد"

عن ماذا يتحدثان، وما قصة الوجه الجديد. طرقت الباب ودخلت.

"مرحباً، كيف حالكما؟"

-"أهلاً نور... هل جهز الطعام؟"

-"ليس بعد" توغلت الى الداخل واقفةً وراء طلال مواجهة لإيّان لأُلاحظ وجود ظرف دعوة على الطاولة، إذاً هذه هي القصة، إيّان مدعو إلى حفلة.

سألته بحماس "ما هذا؟ هل أنت مدعو إلى حفلة؟"

تبادل إيّان وطلال نظراتٍ غريبة وكأن هناك حديثاً سرّياً يدور بينهما ثم قال وهو يضحك بمكر "حسناً حسناً، يبدو أنها فرصة جديدة للتعويض عن رحلة اليخت."

وبحركة سلسة وقف من مكانه مقترباً مني، انحنى قليلاً وقال بمرح:

"آنستي...هل تقبلين دعوتي إلى الحفل الخيري المقام في نهاية الاسبوع ... أرجوك، لا ترفضي طلبي، فقبولك يعني لي الكثير"

ضميّت كفّي إلى بعضهما سعيدة بمزاجه المرح، فرحةً بطريقة سؤاله وأجبته مقلدةً نبرة صوته:

"نعم أقبل دعوتك سيدي"

ولكنه أفسد فرحتي بهربه السريع من أمامي، إذ كان بمحاذاة الباب قبل إنهائي جملتي ، وكأن شيئاً لم يكن،معلّقاً "هيا هيا... أنا جائع وما عدت قادراً على الانتظار أكثر"

وقف طلال هو الآخر فاسحاً لي المجال لأتقدمه .

قدّمت ليلى الطعام وجلست تأكل بصمت.

سأل طلال وهو يسكب الطعام في طبقه:"ماذا قررت بشأن عملية شراء المصنع؟"

"لا أدري...لم أقرر بعد...مازلت أدرس الموضوع"

أجابه طلال متعجباً "هذا غريب! فأنا لم أرك يوماً متردداً بخصوص صفقةٍ ما سابقاً"

"ربما لأني أخالف القواعد هذه المرّة، فعادة الدراسة تخبرني مسبقاً عن كمية الربح التي ستوفرها الصفقة التي أقوم بها. وهذه المرة، رغم أني متأكد 100% من أنها صفقة خاسرة، مازلت متردداً في رفضها."

أثار فضولي ما قاله فسألته:-"طالما أنك واثق من خسارتها، لما التردد إذاً؟"

أجابني وهو مشغول في تقطيع شريحة الدجاج في صحنه:

"ربما لأنني هذه المرة أفكر بعاطفتي وليس بعقلي. إذا لم أشتري هذا المصنع فسأتسبب بتشرد أكثر من ألف عامل يعيشون ويربون عائلاتهم من مدخوله. " ثم فجأة توقف عن التقطيع ورفع حاجبه وكأن فكرة عبقرية طرأت بباله فنظر إلي راسماً ابتسامة ماكرة على شفتيه وسألني:

"ما رأيك أنت؟ أأشتري المصنع أم لا..؟"

صدمني سؤاله... إنه يسألني رأيي حول شراء مصنع سيكلّفه ملايين الدولارات، وبكل برودة أعصاب

"حقاً!... أنت تسألني رأيي إذ تشتري مصنعاً بالملايين وتعرف مسبقاً بأنه صفقة خاسرة!؟"

رفع حاجبه محدّقاً بي بعينيه الزرقاوتين قائلاً ببرودة:

"نعم... ما رأيك؟ أأشتري، أم لا...؟"

رفعت رأسي وحاولت الاستقامة في جلستي وقلت بصوت واثق جداً علّي أخفي توتري وترددي في إعطاء رأيي في مسألة مهمّة كهذه:

«طالما أنّك تقوم بشرائه بهدف عمل خيري وليس بهدف الرّبح، فأنا واثقة بأن الله سيوفقك وستتفاجأ من مردوده بعد أن تقوم بالإصلاحات التي يحتاجها... أظنّ بأنّه عليك شراءه»

التفت إيّان إلى طلال الذي كان بدوره يراقبني باستمتاع ثمّ علّق على كلامي وهو يضحك:

"هذا لا يبشّر بالخير... يبدو أنّك ستكونين مديرة أعمال فاشلة. في إدارة الأعمال أبداً لا يجب أن تتركي قلبك وعواطفك يتحكّمان في صفقة ما، وإلا ستجدين نفسك تُشهرين الإفلاس من الصفقة الأولى."

ثمّ ضحك أكثر وهو يهزّ برأسه. وضع قطعة خضار في فمه وتابع "رغم ذلك، سآخذ بنصيحتك وأشتري المصنع"

تفاجأ طلال من قرار إيّان ولكنّه اكتفى بهزّ رأسه وهو يبتسم وعاد إلى طبقه من جديد.

****

مرّت بقية أيام الأسبوع بنفس الوتيرة. إيّان في العمل طوال النّهار ويتأخّر أحياناً في العودة إلى المنزل، وأنا أحاول أن أجد الجامعة التي تثير اهتمامي والمجال الذي سأدرسه، يبدو أنني سأختار إدارة الأعمال في نهاية المطاف إذ هو ما أحتاج إليه لإدارة أعمال والدي. فإيّان لن يبقيها تحت إدارته لفترة طويلة إذ يكفيه ما يواجهه من

مشاكل في شركاته الخاصة المنتشرة في أنحاء العالم من لبنان ودبي وتركيا وفرنسا وكندا. وهناك حفلة نهاية الأسبوع، بعد غد، لذا عليّ البدء بالتّجهيز لها. فأنا حتى الآن لم أجهّز ما سأرتديه.

رنّ هاتفي معلناً وصول رسالة نصّية:

ليلى:

"هناك مفاجأة بانتظارك في الأسفل، أسرعي بالنزول"

مفاجأة لي! ما هي يا ترى؟ وضعت الهاتف وأسرعت إلى الأسفل حيث كانت ليلى بانتظاري عند أسفل السلالم تحمل صندوقاً أبيض ملفوف بشريط ذهبيّ برّاق، ويبدو عليها الحماس أكثر مني.

أخذت الصندوق من يدها ، وضعته على الأرض وركعت أمامه أفك عقدته بعدم صبر.

"ما هذا يا ترى؟ أتعرفين من أرسلها؟"

كانت عيون ليلى تراقب الصندوق بشغف كبير، إذ تريد أن تعرف ما يحتويه.

"هيا نور، أسرعي؟"

فتحت الصندوق وإذ بداخله فستاناً ذهبياً فاتح اللون مصنوع من القماش الناعم والهادل، قبّته مربعة، منخفضة من الأمام وعاليه من الخلف، مصنوعة من الدانتيل الناعم وعنده شريط من الساتان العريض تحت الصدر وعقدة عند جانبه الأيسر وينسدل فضفاضاً حتّى مستوى الركبتين.

وبرفقته حذاء رائع، يا للهول! ... ما هذا؟ ... أشعر بأني سندريلا وليلى جنّيتي.

"آ ليلى... إنّه فستان رائع جداً" ألقيته على جسدي ورحت أدور به وأدور.

"هاي... اهدئي ستقعين وتؤذين نفسك" قالت وهي تمسك بذراعي "إنه حقاً رائع! ستكونين أميرة الحفلة إن شاء الله"

***

وأخيراً أتى اليوم المنتظر... يوم الحفلة... وأنا متحمّسة جداً لها، إنّها فرصتي كي أخرج مع إيّان وأكون قريبة منه علّي ألفت انتباهه إليّ.

أصبحت الدقائق الأخيرة فوضوية جداً، إذ بدأ إيان يستعجلني برسائله النصية، وأنا رحت أركض حول الغرفة أحاول أن أجهز بسرعة. ارتديت فستاني وحذائي ثم ألقيت نظرة أخيرة إلى نفسي في المرآة. لقد تركت تبرّجي خفيفاً وبرزت عيوني بالماسكارا الكثيفة وصنعت القليل من التعرجات العريضة في شعري وتركته يتدلّى على كتفي مغطّياً ظهري.

أخذت نفساً عميقاً وتوجّهت إلى الخارج أشعر بالتوتر الشديد ، وقفت عند أعلى السلالم أراقب أيّان الواقف عند أسفله ينتظرني بعدم صبر حيث كان يتجول ذهاباً وإياباً ببدلته الأنيقة المهيبة الفرساتشي ، رائعة عليه إذ لونها الأسود يبرز أناقته وجاذبيته بطريقة خيالية وسحرية ولون عينيه يخطف الأنظار.

ما إن أطلّيت عليه ورآني حتّى وجّه كل اهتمامه نحوي منبهراً،مشدوه الفاه ، نعم مع أنه يحاول أن لا يظهر إعجابه بما إرتدي إلاّ إنه لم ينجح بذلك ،إذ نظراته لم تفارقني طوال نزولي السلالم حيث إستلمني أسفله، تنحنح متمتماً : "تبدين .... تبدين »

حدّقت به بوقاحة منتظرة عبارته التي أظن بأنه يفكر بكيفية الإفصاح عنها ، أو أنه بكل بساطة لا يريد الإفصاح عنها .

عبست بوجهه معلّقةً « ماذا ، ألى هذه الدرجة أبدو مريعة لا تجد عبارة تصف قباحتي »

فتح عينيه مصدوماً من تعليقي ، « يا للهول ، لا ، تبدين فاتنة ، بصراحة أنا متردد من أخذك معي إذ ستكونين محط أنظار الجميع هناك .»

رفعت حاجبي أسأله بتحدّي « وهل أنت خائف من أن يقوم أحد بخطفي منك »

تراجع مصدوماً من كلامي وأنا كتمت على فمي كالبلهاء ، ماذا حصل لك نور؟؟ كيف تقولين هذا ؟

تغيرت تعابير وجهه لتعود باردة بعيدة منفصلة عائداً إلى جديّته التامة ، شبك ذراعي وتوجّه بي نحو الخارج حيث سيارته الفضية اللامبورغيني تنتظرنا في الخارج.

سألته متفاجئة وغير مصدّقة، فأنا دائماً ما كنت أرغب بأن يصطحبني بنزهة فيها "هل سنذهب بسيارتك هذه... هذا رائع" صحت بحماس واضح.

إبتسم لتصرّفي الطّفولي وقال:

"نعم... أظن بأن الوقت قد حان لتجربي ركوبها "

فتح الباب ودعاني لدخولها ثمّ توجّه نحو مقعد السائق وانزلق فيه بخفّة وانطلق.

صوت محرّكها رائع، إذ كلّما ضغط على دوّاسة الوقود يصدر هديراً يبعث شعوراً بالإثارة والحماس في القلب.

« شكراً لك على الفستان ، إنّه رائع ، لقد أحببته كثيراً وكأنّه فُصِّل على مقاسي »

"يبدو أنّ إميليا قامت بعمل رائع بانتقائها هذا الفستان" علّق ببرودة

فاجأني ما قاله فسألته:

"ماذا! ألم تر الفستان؟ ألست أنت من اختاره؟"

"لا... لقد طلبت من إميليا صاحبة المتجر أن تقوم باختياره. أعطيتها مواصفاتك وقياسك وعمرك وتركت لها حرية الاختيار. يجب أن أرسل لها شكراً خاصّاً على اختيارها"

كلامه خيّب أملي، فهو لم يختره بنفسه.

رمقني بتساؤل:"ماذا؟... أعندك مانع أن يكون انتقاء صاحبة المتجر؟"

أجبته عابسة وغاضبة من فعلته:

"نعم... لقد ظننت أنك أنت من إختاره لي"

ضحك على ردة فعلي الطفولية وقال:

"يجب أن تفرحي أنه ليس انتقائي، إذ لا أظن بأني كنت سأنتقيه بهذا الجمال. إنه رائع عليك.

تبدين كزهرة الصباح الباكر يشع منها الندى نوراً تحت خيوط أشعة الشمس الخجولة."

حدّقت به أحاول تذكر ما قاله للتو، هل ما سمعته صحيح ؟؟ أخجلني تعليقه وتركني عاجزة عن متابعة التذمر، إذ ألقى لتوّه شِعراً يصفني بما أرتديه. فاكتفيت بالصّمت فرحةً به وبفستاني .

***

أخذ إيّان بذراعي وقادني نحو الداخل وهو يقول:

"أعرف أنّ هذه أول مرة تأتين فيها إلى حفل كهذا، لذا لا أريدك أن تتوتري، ابقي هادئة وعلى طبيعتك وابتسمي دائماً. وإذ سألك أحد عن هويتك اكتفي بالقول بأنك شريكتي في بعض الأعمال. اتفقنا."

كلامه وتّرني أكثر فضغطت على ذراعه مندسّةً به متذمّرة:

"لن تتركني في الداخل، ستبقى بقربي أليس كذلك؟"

"سأحاول، ولكن لا تخافي، سيسير كلّ شيء على ما يرام، إنها حفلة وأنت هنا للاحتفال والاستمتاع بوقتك، والكل هنا لهذا الغرض" ثم قال يحذّرني "لا تأخذي أي نوع من المشروب،وإذ كان عصير تأكدي أولاً أنه لا يحتوي على الكحول إتفقنا "

وبعد دقائق من السير في البهو وقفنا أمام مدخل زجاجي عريض عليه نقوش شفافة، قدم إيّان الظرف للحاجب ودخلنا.

الصالة كبيرة وواسعة، سقفها عالٍ جداً وتتدلى منه ثريا كبيرة وطويلة من البلّور، والأزهار منتشرة في أرجائها والستائر ذهبية تحيط بالصالة من كل الجهات. إنها تعجّ بالمدعوين والكل يتمتع بكامل أناقته من بدلات رسمية وفساتين سهرة متنوعة.

ترك إيان ذراعي لحظة دخولنا وأشار لي أن أسير بمحاذاته، اقتربت منا سيدة شقراء، طويلة القامة، ترتدي فستاناً أسود طويلاً مكشوف الصدر والذراعين. ابتسامتها عريضة وحماسها واضح لرؤية إيّان. فتحت ذراعيها وأخذته بالأحضان وهي تقول:

"أهلا وسهلا إيّان، وسيم وأنيق كعادتك"

أجابها وهو يحضنها برفق:

"وأنت تزدادين جمالاً وشباباً مع كلّ يوم"

ضحكت فرحةً بإطرائه ثم التفتت إليّ وسألت بفضول واضح:

"ومن تكون رفيقتك؟"

أحاطني بذراعه قائلاً "أقدم لك نور، وجه جديد في عالم رؤوس الأموال وإدارة الأعمال."

صافحتني تتأمّلني بإعجاب ودهشة " أنا لطيفة ماهر، المديرة التنفيذية لهذا الحفل، أرجو أن تستمتعي بوقتك هنا" ثمّ سلّمت على إيّان وانصرفت.

"أنظري طلال وسارة" قال إيّان وهو يشير إليهما.

أشار طلال إلينا ودعانا للانضمام إليهما.

الموسيقى هادئة والمدعوون ما يزالون يتوافدون إلى الصالة كلّ منهم يفتش عن طاولته. وبعد حوالي النصف ساعة أعلن أحدهم عن بدء تقديم العشاء.

جلست إلى الطاولة مع إيّان وطلال وسارة ورجل يبدو وكأنه في حوالي الخمسين من عمره برفقة امرأة شابة تبدو وكأنها في أواسط العشرينات جميلة وأنيقة ترتدي فستاناً أحمر اللون بلا حمّالات على الكتفين. وقف الرجل باللحظة التي جلسنا فيها واقترب من إيّان، سلّم عليه وعرّفه على الفتاة على أنّها ابنته. حيّاها إيّان وعاد

يتحدّث إلى والدها. جلست أنا بين طلال وإيّان، وسارة كانت بجانب طلال من الجهة الثانية.

اقترب مني طلال هامساً في أذني:

"أميرة الحفلة دون منازع... كيف حالك؟"

"بخير... اشتقنا إليك في المنزل سيد طلال. فأنا لم أرك منذ يومين."

"العمل... تعرفين.... فأنا عندي ربّا عمل، إذا أرخى أحدهما الحبل لي، شدّه الثاني، فلا مفرّ عندي من أحدهما."

رمقت سارة بطرف عيني ضاحكةً على تعليقه، المسكين، إنّه حقاً واقع بين نارين سارة وإيّان.

وأنا!!!... وكأن هذا ما كان ينقصني في هذه الحفلة ، يبدو أن هذا الرجل أتى بابنته إلى الحفلة خصيصاً ليعرّفها الى إيّان، إذ لم يتوقّف عن الحديث عنها منذ جلسنا، وهي تبدو مستمتعة بأحاديثهما إذ لم تنزع نظرها عن إيّان ولا حتّى للحظة.

سألها إيّان: "هذا جيد... خريجة كليّة الحقوق... هل بدأت بممارسة مهنة المحاماة أم بعد؟"

"نعم... تخرجت منذ فترة ، ولكنّي انتسبت حديثاً لنقابة المحامين، بدأت بممارسة المهنة رسمياً منذ حوالي الأربعة أشهر."

محامية، جميلة، أنيقة وذكية... حسناً يبدو أن حفلتي هذه ستنقلب ضدي. الآن فهمت قصد إيّان عندما قال بأنه سيأتي إلى الحفلة بلا رفيق لأنه سيجد حتماً واحدة هنا.

كان يقصد هذا النوع من الرفقة. فتيات آتيات إلى الحفلة ليتعرّفن إلى أحدهم، وليس مجرّد أحدهم، بل المليونير، الوسيم والشّاب إيّان كرم. أشعر برغبة في الدّوس على قدم إيّان وجعله يصرخ من شدة الألم، ربما ينسى على إثرها وجود هذه الآنسة قبالته بردائها الأحمر المثير ونظراتها الوقحة والجريئة.

بدؤوا بتقديم العشاء في هذه الأثناء، ثمّ ألقى عدد من المدعوين خطابات عن أهمية هذا الحفل وريعه للأطفال اليتامى والعجّز والمرضى والمحتاجين. حسناً ومتى تبدأ

الحفلة، أيعقل أنها ستقتصر على الكلام والخطابات، أرجو العكس، فالملل بدأ يقتلني ونظرات هذه الآنسة بدأت تحرقني، ألا تخجل من نفسها، إذ بدا واضحاً رغبتها بإيّان الذي لم يتوقف عن التحدث إليها منذ جلسنا إلى الطاولة.

ليتغيّر الحال أخيراً مع تغيّر الموسيقى ليتهيّأ الجميع للاستمتاع بوقتهم مشيرين إلى بدء موعد الاحتفال واللهو.

اصطحب طلال سارة إلى وسط الصالة للرقص. وأنا إتكأت إلى ظهر مقعدي عابسة ، أشعر بالغضب الشديد ، سأقتل إيّان، هل هو جاد؟؟ هل أتى بي ليبقيني جالسة طوال الوقت أستمع اليه يتحدّث إلى تلك القبيحة الحمراء الشمطاء .

زفرت بحنق مقتربةً منه بهدف إستمالت إنتباهه ، فإلتفت الي بتساؤل لينحبس الكلام بجوفي ، تنحنحت قائلة «أشعر بالملل ، هل سنبقى جالسين هنا طوال الوقت ، أريد أن أرقص »

ومن نظرته المتفاجأة عرفت أنّ هذا لم يكن من ظمن مشاريعه لليلة ، وبدون تعليق عاد يكمل حديثه السخيف مع ليلى والذئب .

حدّقت بشعر رأسه بحنق شديد متمنيةً لو أنّ بإمكاني إحراقه بنظراتي تلك إلى أن وقف أخيراً يسألني مرافقته.

آه نعم بإمكانكم تصور إبتسامتي البلهاء التي رسمتها على وجهي رامقةً تلك الآنسة بنظرة انتصار، ثمّ شبكت ذراعي بذراعه ومشيت بجانبه بتفاخر.

اصطحبني مباشرة إلى حلقة الرّقص أحاطني بذراعيه وراح يراقصني "أسف لأني تسببت لك بالملل "

رفعت بصري إليه لأفاجأ بقربه الشديد،قربه ونظراته قطعا أنفاسي ليهلع قلبي يطرق كالطبول بصدري ويتراقص الدم بعروقي.

أجبته وأنا أحاول أن أبدو طبيعية وغير متأثّرة من قربه مني، ومن ذراعه التي تحيطني:

"نعم لقد شعرت بالملل،... ولكن يبدو أن هذه لم تكن حالتك! إذ بدوت مستمتعاً بحضور تلك المرأة ذات الرّداء الأحمر، يبدو أنّها أثارت اهتمامك كثيراً."أجبته حانقة ، نعم لن أمررها له مدّعيّةً أَنِّي لم أَمَلَّ من تواجدي على تلك الطاولة المشؤومة.

ضحك يجول بنظره بين المدعوين وقال:

"أثارت اهتمامي كشخص وليس كامرأة"

أثار جوابه تساؤلي "لماذا؟"

وبحركة عفوية أخذاً خصلات شعري المتحررة عن وجهي مثبّتاً إيّاها وراء أذني جعلت قلبي يقفز من مكانه .

"إنها مسألة تخصّ ذوقي واهتماماتي"

"وما الذي يثير اهتمامك بالمرأة؟" سألته بفضول أحاول الهاء نفسي من قربه ورائحته العبقة التي إجتاحت حواسي كلها .

رفع حاجبه يرمقني بنظرة وكأنّ سؤالي لم يعجبه " أظنّ بأنها مسألة تخصّني ولا أرغب بمشاركتها مع الآخرين وخاصّة مع قاصر ليست جاهزة للتحدث بهذه الأمور"

"أنا لست صغيرة، وأعرف عن الحب أموراً كثيرة، فهي لم تثر اهتمامك كامرأة لأنها ليست من النوع الذي يعجبك، أليس كذلك؟"

ناظرني بحنق عاقداً حاجبيه مستنكراً تعليقي وقال بحزم "بلى، أنت ما زلت صغيرة، ولا، ليس كذلك"

وإذ بامرأة تقترب منا ترتدي فستاناً رماديّاً فاتح اللون يكشف من جسدها أكثر مما يغطّي، لمست كتف إيّان قائلة:

"ها أنت ذا... فأنا أفتش عنك منذ وصلت"

بدا وكأنها تعرفه جيداً، إذ جذبته من بين ذراعيّ مرتميةً بين أحضانه .

ومن ثمّ رمقتني بعدم مبالاة قائلة:"أرجو المعذرة، سأستعيره منك قليلاً."

يا لها من امرأة سخيفة، ما هذا التصرف الغير لائق.

ضحك إيّان أخذاً إيّاها بين ذراعيه متابعاً الرقص معها.

وأنا وقفت مصدومة مذهولة، لا أعرف ماذا أفعل، إذ سُرق إيّان مني للتوّ وأنا عاجزة عن فعل أي شيء،جلت بنظري أفتش عن مكان أقصده أو أحد أعرفه وإذ بإيّان يناديني

"نور... لا تبتعدي وتختفي عن الأنظار، قليلاً وأعود إليك"

أومأت له برأسي مبتعدةً، يبدو أن إيان يعرف كل من في الحفلة وأنا لا أعرف أحداً. توجهت نحو طاولتنا، إنها فارغة، جلستُ أراقب هذه المرأة التي سرقته مني مفسدةً عليّ متعتي، يا لها من مُفسدة للمتعة، أشعر بأني أكرهها، فها هي تحتضنه دون خجل وفمها لم يتوقف عن الكلام منذ اللحظة التي اقتربت فيها منه، تتحدث وتتحدث وهو يضحك ويضحك... ما هذا؟ أشعر بأني قنبلة موقوتة ستنفجر بين لحظة وأخرى.

وإذ بامرأة تجلس قربي، تبدو في أواخر العشرينات من عمرها، جميلة وجذّابة، سمراء، نحيفة، ترتدي فستاناً أسودا وفضيا، لم أرَها قادمة نحوي، إذ كانت عيناي مشغولتان بمراقبة إيّان وتلك المرأة.

قالت وهي تفترسني بنظراتها:

"مرحباً... يبدو أنك لا تستمتعين بوقتك هنا. هل هذه المرة الأولى التي تأتين فيها إلى حفل خيري؟"

"نعم... هذه حفلتي الأولى... ولكن لا بأس بها حفلة، هادئة وأنيقة" أجبتها وعدت إلى مراقبة إيّان.

"عفواً... لم أعرّفك على نفسي" قالت باسطةً ذراعها لمصافحتي" أدعى رُوبي... وأنت؟"

صافحتها وأجبت: "أهلاً... أدعى نور"

سألتني وهي تراقب إيّان "هل أنت صديقة إيّان؟"

هذا رائع، معجبة أخرى بإيّان، ما هذا الرجل، وكأنه حقاً يعرف كل من في الحفلة، أجبتها:

"نعم... أنا شريكته في بعض الأعمال"

رمقتني بنظرة اتهام وكأنها لم تصدق ما قلته لتجيب بنبرة ساخرة أثارة حنقي :

"مجرد أصدقاء عمل!... لا أظن ذلك" ضحكت بسخرية ثم تابعت

"على كل حال فهو لا يُعْلِنْ عن علاقاته ونادراً ما يظهر معهن بالعلن. ولكني متأكدة من أنك تكنّين له مشاعراً أكثر من صداقة عمل. لقد رأيت الحبّ في عينيك حين كنت بين ذراعيه تراقصينه، ذكرتني بنفسي حين كنت مكانك، مولعة بحبّه وهو غير دارٍ ولا مكترث." ثم ضحكت من جديد تهز برأسها متابعةً وعيناها ما تزالان تراقبان إيّان بحسرة والم " وما يثير حيرتي في كل هذا، شخصيته الساحرة والجذابة، الآسرة والغامضة في نفس الوقت. يأسرنا فنتعلق به دون تردد أو تخطيط، وسرعان ما نجد أنفسنا نعشقه ونتوق إلى المزيد منه... نحبّه بكل جوارحنا. ونحن

معه نشعر بأننا نملك الدنيا وما فيها، وكأننا نسبح فوق الغيوم، وعندما يتركنا نشعر وكأن أجنحتنا تكسّرت وهوت بنا إلى أرض الواقع، حيث نكتشف حقيقة واقع العلاقة التي تجمعنا... فهو أبداً لا يحب... ولا يعدك بالحب. لأنه بكل بساطة، لا يعتبر للحب وجوداً.ونحن نتقبله كما هو، دون وعود ولا شروط، ولا تسألي لماذا؟"

حدّقت بها أراقبها بهلع ، تتحدث بأسى وحزن، التفتُّ نحو إيّان لأكتشف بأنه قد اختفى ولا أثر له في أي مكان من محيط نظري. كلماتها فاجأتني. أيعقل هذا؟ أيعقل أنها تتحدث عن نفس الشخص الذي أعرفه وأحبّه؟ ولم تخبرني بهذه الأمور؟ ما قصدها من هذا كله؟ هذا غريب! ولكنها تبدو صادقة جدا بما تقوله. تتحدث والمرارة تتآكلها والحزن واضح في عينيها، لا بد أن إيّان جرحها وأذى مشاعرها ورفض حبها، ومع كل هذا كانت تراقبه بحب ورغبة. لذا أنا لا أفهم ماذا يحصل هنا؟

ولكنها تابعت بنفس الوتيرة:

"فكلّ امرأة يدخل حياتها تتغير نظرتها إلى كل شيء، حتى قلبها ومشاعرها وروحها. إنه مثل الرصاصة، حتى بعد الشفاء منها، تترك أثراً داخلك لا يمكن محوه أو التخلص منه أبداً."

كلماتها بعثت القشعريرة في بدني والخوف في قلبي، أيعقل بأن إيان هكذا. علاقاته كلها عابرة، هذا يعني أنه يتلاعب بالنساء، يتسلى بهن ويصرف أمواله عليهن وعندما يمل من واحدة يتركها ويذهب إلى أخرى، وجه جديد وشعور جديد، أيعقل أن هذا هو السبب الذي جعل طلال يحاول جاهداً إبعادي عنه؟

قالت ما قالته ثم استأذنت وتركتني في صراع مع ذاتي.

لم إيّان لا يؤمن بالحب؟ ولم يطلب من صديقاته عدم التأمل بأن يحبهن يوماً ما...؟ هل سينتهي بي المطاف كما انتهى بهن؟ بقلب مكسور وروح محطّمة. يا الله!!! لا بد أن هناك سبباً كبيراً وخطيراً ليجعل إيّان على ما هو عليه.

أذكر طلال عندما حاول إقناعي بأن لا أحبّ إيّان وأخبرني بأنه أبداً لن يبادلني شعوري هذا. راحت عيناي تفتشان عن طلال وسط الجموع... لا بد أنه يعرف شيئا ما ، لا بل أنا واثقة من انه يعرف كل شيء، وعليه أن يخبرني، فأنا الآن أصبحت في منطقة اللارجوع منها. وبينما عيناي تجولان بين المدعوين تفتشان عن إيّان أو طلال اللذان لا أثر لهما، رأيت شاباً قادماً نحوي من بعيد، وقف أمامي وهو يحمل كأسي مشروب، ابتسم مقدماً لي إحداهما . تذكرت تنبيه إيّان لي بعدم شرب أي شيء، ولكني لم أرد أن أخجله فأخذت الكأس من يده وبادلته الابتسامة.

"ماذا تفعل فتاة بهذا الجمال وحدها على طاولة في زاوية الصالة" قال وهو يفترسني بنظراته الخبيثة، لم يعجبني تصرفه فأجبته بجفاء علّه يتركني ويذهب في حال سبيله.

"شكراً لك على لطفك، ولكني لست وحدي، بل أنتظر أحدهم"

"لا أظن ذلك، فأنا أراقبك منذ فترة، ولم أرَ برفقتك أحداً."

ومن ثمّ جلس على الكرسي القريب مني متّكئاً إلى الطاولة وكأنه يعطيني كامل اهتمامه.

أخجلتني وقاحته الجريئة ، إذ دعاني للتوّ وبطريقة لبِقَة بالكاذبة .

رمقته بنظرة جانبية عائدة بإنتباهي إلى حلبة الرقص والنَّاس حولي .

« الن تخبريني بإسمك أيتها الجميلة »

جأرته حانقة موليةً إيّاه ظهري ، لا أريد إعطائه فرصة بفتح حديث معي .

أخذ الكأس بيده يدعوني لمشاركته فعلّقت بجفاء "عفواً... أنا لا أشرب"

ضحك ضحكة ساخرة وقال :"ولم؟... أنبهك والدك على عدم الشرب مع الغرباء، أم ما زلت قاصر لتشربي؟"

يا له من سخيف وغليظ، وما شأنه بي،لو أني لست خائفة من إفتعال فضيحة وإغضاب إيّان لكنت لقّنته درساً لن ينساه بحياته .لأفاجأ بإيّان يردّ عليه بحنق :

"بإمكانك اعتبار السببين"

فرح قلبي لسماع صوته ورؤيته. وأخيراً أتى. ولكن أين كان كل هذا الوقت؟

وقف وسيم من مكانه مذعوراً من ظهور إيّان المفاجئ من العدم، ليقف الاثنان قبالة بعض يحدّقان ببعضهما بتحدّي ، حركتهما هذه أثارت ذعري وإذ بوسيم يعلّق ساخراً « اليست صغيرة عليك إيّان ، ليس من عادتك معاشرة القاصرات »

« لا ترغمني على طردك من الحفل وسيم ، إذهب في حال سبيلك قبل أن تندم »

إقترب وسيم منه أكثر متحدياً إيّاه « آه ، لا تظن بأني أخاف منك ، فأنت سرقت مني أعز ما أملك ، ما عاد يهمني شيئ من بعدها»

وإقترب إيّان منه أكثر حدّ الالتحام ، يبدو هادئاً جداً ومتماسكاً ، بعكس وسيم الثائر الذي يبدو على وشك الانفجار « أنا لم أسرق منك شيئ وسيم ، وكما قلت لك سابقاً وأقولها من جديد ، هي من رمت بنفسها عليّ ولم تخبرني بأنها مرتبطة ، لقد كذبت علينا سوياً وخدعتنا وتركتها مباشرةً بعد قدومك الي معلناً خدعتها »

أمسك وسيم بياقة سترة إيّان فدفعه عنه محذّراً «إيّاك ولمسي ، هل فهمت وسيم ، أنا صابر عليك فقط لأني أشعر بغضبك ولكنّ إيّاك أن تتعدى حدودك معي أفهمت»

فإبتعد وسيم يناظره بغضب مستعر، عندها إلتفت إيّان الي يناظرني بغضب وكأنّني أنا المخطئة بكل هذا ، بادلته نظرته تلك بحنق موازي ، أين كان كل هذا الوقت تاركاً إيّاي هنا وحدي .

وإذ به يمسك بيدي دافعاً إيّاي أمامه بين الجموع ، وأنا مشيت بمحاذاته بصمت خوفاً مني أن أثير حنقه أكثر .

قادني بصمت بين الجموع ظاهرياً يبدو هادئاً جداً ولكني أشعر به يضغط على يدي بقوّة رهيبة مثيراً ألمي الحاد ، حبست أنفاسي لا أجرؤ على التذمر خوفاً من أن أثير غضبه الكامن بين أوصاله ، قادني مباشرة نحو الخارج ، وعندها فقط حرّر كفّي التي ما عدّت أشعر بها .

كانت الساعة الثانية عشرة والنصف عندما ركبنا السيارة وانطلقت بنا مسرعة في شوارع المدينة الشبه فارغة، الهدوء يعمّ المكان، والأضواء شبه ساطعة، الموسيقى داخل السيارة هادئة ومنخفضة تشعر بالراحة.

التفتت اليه لأراه يقود بشرود تام فلم أتمالك نفسي عن سؤاله .

« هل كنت مغرمٌ بزوجته ؟؟»

تلقائياً إزدادت سرعة السيارة بطريقة رهيبة مزمجرةً هادرة وسط سكون الليل .

« أنا أسف لإضطرارك لمشاهدة ذلك الحدث السخيف ، إنه خطئي، ما كان يجب إحضارك إلى الحفل»

« أنا لست صغيرة إيّان ، أرجوك توقف معاملتي كأني صغيرة ولا أفهم شيئاً من حولي »

« لم تصرين دائماً على تكرار بأنك لست صغيرة ، أنت صغيرة ، ولا يحق لك التدخل بخصائص الغير ، وعليك أن تتوقفي عن أسئلتك الفضولية التي لا تعنيكِ »

صرخت به حانقة من برودته القاتلة التي أنا واثقة بأنها مصطنعة « لقد كنت موجودة أثناء تلك المشاحنة ومن حقّي أن أعرف ما سببها ، لأنّ الفضول سيقتلني إذ لم تخبرني »

ضحك مستهزئاً « وتصرين بأنك لست مراهقة فضولية»

« لاني أريد الحقيقة ، أريد أن أكذّب أقاويل تلك المرأة المدعوة روبي ، وذلك الرجل المدعو وسيم »

داس على الفرامل بقوة دافعاً إيّاي إلى الامام مرتدةً إلى الوراء بفعل حزام الامان أوقف السيارة على عارضة الطريق مولياً إيّاي كامل إنتباهه

« أين التقيت بتلك المدعوة روبي وماذا أخبرتك »

إزدردت بلعابي الكثيف الذي فجأة تجمع بفمي مسبباً شعوري بالغثيان الشديد وأجبته متمتمةً « لقد أتت إلى الطاولة بينما كنت تراقص تلك المرأة ، وبدأت بالكلام ، أخبرتني أموراً كثيرة عنك ، بأنك ، .... بأنك أقمت علاقة معها ومن ثم تخليت

عنها ، كما تخليت عن الكثيرات قبلها وستفعل بعدها ، بأنك لا تؤمن بالحب ، أو لا تعترف به ، شيئ كهذا .... و ، »

رفعت بصري اليه لأراه يصارع نفسه ليبقى هادئاً ، ملامحه غاضبة جداً ، أخذ نفساً عميقاً تاركاً السيارة نحو الخارج وقف أمام السيارة متكئاً إليها.

بقيت في السيارة أراقبه واقفاً لا يفعل شيئاً سوى النّظر إلى الأفق البعيد وبعد فترة وجيزة قررت اللحاق به.

وقفت بجانبه بصمت، السكون والظلمة يعمّان المكان، وأضواء المدينة تلوح من بعيد، بدا منظرها وكأننا ننظر نحو الأسفل إلى سماء مليئة بالنجوم والكواكب البرتقالية والصفراء المصفوفة بطريقة عشوائية وملفته.

وبعد دقائق من الصمت المتبادل قال دون أن يلتفت إلي:

"أنا لست كذلك نور، لست كما قالت عني روبي تلك زير نساء يلعب بمشاعرهن ويتركهن بعد حين. فأنا دائماً ما أكون صريحاً معهن من بداية العلاقة حتى نهايتها،

كي لا يتوقعوا شيئاً مني بالمقابل مع مرور الوقت. وأترك لهن الخيار بقبول العلاقة كما هي أو الرّفض."

صوته حزين وعيناه مليئتان بالألم والأسى، سألته بصوت مرتعش:

"ولم تتقرّب منهن وتقيم علاقة معهن طالما أنت واثق من أنك لن تحبّهن وعلاقتكما لن تتطور لتكون أكثر من علاقة عابرة؟"

"إنها طبيعتي، والعلاقات العابرة هي كل ما أستطيع تقديمه لكل امرأة تريدني، هذا الموضوع يخصّ عقيدتي حول الحب والمشاعر المرتبطة به"

"ماذا تقصد ، أنا لا أفهمك " سألته حائرة

"الحب بالنسبة لي ليس إلا تمويهاً للحقيقة المختبئة وراءه وهي الرغبة الخالصة، ليس أكثر ولا أقل، لهذا لا أستعمل تعابير الحب في علاقاتي لأني بكل بساطة لا أؤمن به."

صدمني كلامه وأخافني أكثر من كلام روبي، أيعقل هذا، سألته بعصبية محاولةً كبت غيظي:

"أهذا منظورك للحب إيّان!؟ الحب أسمى من هذا بكثير أنت تنظر إليه من جهة جانبية مهمّشة مصدرها الرغبة الحيوانية الخالصة. لمَ كل هذا التشاؤم وهذه الأفكار السوداء، هذا آخر ما كنت أتوقّع سماعه منك، ماذا حصل لك لتفكّر بهذه الطريقة أخبرني؟"

"أنا لم أعرف الحب في حياتي نور، وكل من أحبني، أحبني لمصلحة يسعى للحصول عليها من وراء ادّعائه الحبّ. قولي لي، أخبريني عن اثنين أحبّا بعضهما ولم يتوقّعا شيئاً من بعضهما البعض مقابل هذا الحب. لذا لا تناقشيني، لأنك بكل بساطة لن تجدي أحداً، فكلمة حب أصبحت موضة الآن يقولونها دون أن يعرفوا معناها حتّى ."

وقفت قبالته محدّقةً بعيناه الحزينين إحتضنت وجنتيه الدافئتين بين كفي الباردين وأجبرته على النظر إليّ قائلة:

"أنت مخطئ إيّان، إذا كنت مررت بتجارب مؤلمة في الماضي، وعانيت من طمع النساء اللواتي ادّعين حبّك للحصول على شيء منك بالمقابل، فهذا لا يعني أن لا وجود للحب، وأنّه ليس هناك بعض القلوب التي تحب دون مقابل.

الحب بالنسبة لي إيّان، هو اتّحاد روحين في جسد واحد، وجسدين في روح واحدة، يمدّان بعضهما البعض بالقوة والعزيمة والرغبة، والأمل في الحياة والسعادة.

الرّغبة يا إيان هي نتاج هذا الحبّ وليس العكس.

فأنا إذا كنت أرغب بك فلأني أحبّك، أن تحب شخصاً ما معناه أن تضحي من نفسك لأجله وليس العكس.

الحب موجود، ولكنه كما قلت متخفٍّ بأوجه مختلفة وعديدة، عليك فقط أن تؤمن به لتجده أمامك وبانتظارك."

مع أن الظلمة حالكة، إلا أني لمحت بريقاً في عينيه، شعرت بالألم يحيط به، فلم أتمالك نفسي واحتضنته بقوة راغبة في جعله يشعر بصدق مشاعري وحناني. ظل ساكناً لم يتحرك ولم يحضنّي، ولكنّي شعرت بقلبه يتخبّط في صدره بسرعة وقوّة رهيبة، أنا أصدقه ، إنه ليس سيئ ، رغم علاقاته تلك الغير مبررة الاّ أني لا أستطيع الحكم عليه ، هناك سبباً رهيباً أوصله إلى هذا الاعتقاد ، وعلي أن أعرفه .

حررته مبتعدةً عنه ليلفحني البرد القارس ، إحتضنت نفسي أفرك ذراعي بهدف بثّ الدفئ بأوصالي الباردة معلّقةً :

"بدأ الجو يبرد، من الأفضل أن أعود إلى السيارة"

جلست في السيارة أراقبه وأفكر بهول ما حصل للتو...

إنه رجل محطّم الفؤاد. أي امرأة على وجه الأرض طاوعها قلبها على كسر قلبه؟ ماذا فعلت به لتجعله يقلب موازين الرغبة والحب؟ إنها لامرأة بلا قلب ولا مشاعر لتفعل ما فعلته به.

لم أتوقع رؤيته أبدا على هذه الحالة. لطالما وجدته قوياً ومندفعاً، شعرت برغبة في البكاء لحاله، ولكني أمسكت نفسي خشية أن أنهار أمامه. رقّة أحاسيسه جعلتني أحبّه أكثر. إنّه طيب القلب والروح، فهو في أكثر حالاته ظلمة لم يفقد أعصابه معي وراعى مشاعري، بينما أنا لم أراع مشاعره ودخلت عليه بطريقة غبية، قاسية ولجوجة. ظل واقفاً مكانه لأكثر من ربع ساعة، ثم عاد إلى السيارة وانطلق إلى المنزل دون أي تعليق إضافي من أحدنا.

الفصل الرابع

لا أستطيع النوم، شعوري بالذنب حيال ما فعلت زادني قلقاً وإرهاقاً. إنها الرابعة صباحاً ومازلت أتقلب في السرير دون جدوى. تركت غرفتي وتوجهت نحو غرفة إيّان بنيّة تفقّده والاطمئنان عليه.

فتحت باب غرفته بهدوء متمنّية أن يكون نائماً وليست حاله كحالي، الظلمة حالكة وسريره مرتّب كأنه لم يدخلها منذ وصوله. انقبض قلبي لفكرة عدم وجوده. أين هو يا ترى؟ عندما وصلنا كانت الساعة تقارب الواحدة والنصف، استأذنته وذهبت إلى غرفتي، لا أظن أنه رحل من جديد. نزلت السلالم لألاحظ ضوءاً خافتاً منبعثاً من غرفة المكتب، الباب شبه مفتوح، توجّهت إلى هناك مسترقةً النظر إلى الداخل حيث رأيته جالساً على الأريكة في زاوية المكتب، ما زال في ثيابه ولكنه خلع السترة

وربطة العنق وأزرار قميصه مفكوكة، قدماه ممدودتان على طاولة الضيافة، في يده كأس يرتشفه، بدا شارداً ومهموماً .

أحزنني حاله كثيراً ليزيد من شعوري بالذنب، كيف تصرفت بهذه الطريقة، بسبب فضولي الأرعن فتحت جراحاً قديمة في قلبه مسببةً له الألم. لم أره بهذه الحالة قط، يا لي من غبية. بدل أن أجعله يحبني ويتقرب مني، سببت في فتح جراحه القديمة وذكرته بالماضي الأليم.

جلست على الأرض مستندةً إلى حائط غرفة المكتب، لم أستطع كبت نفسي، اغرورقت عيناي بالدموع شارعةً بالبكاء ، أبكي دون توقّف، حتى شعرت بأني ما عدت قادرة على كتم تنهيداتي، ويبدو أن هذا ما حصل بالتحديد ، إذ ودون أن أشعر به رأيته واقفاً أمامي يراقبني باستفهام.

شهقت فزعةً لظهوره المفاجئ أمامي، لقد أرعبني ، إذ لم أتوقع رؤيته. حجبت وجهي بكفّي محاولةً كبت أنفاسي وتنهداتي فعجزت.

جثى أمامي على الأرض يناظرني برفق وحنان ، وإذ بأنامله تجوب وجهي برقّة فائقة تمسح دموعي عنه، عيناه الزرقاوتان المرهقتان تراقبانني بتمعّن، قرّبني منه ضامّاً إيّاي إلى صدره برفق: "أرجوك توقفي عن البكاء.... لا أعتقد بأنّ هناك سبباً في هذا العالم بأسره يستحقّ دموعك"

لم أرد الكلام ولا التعليق، بل أردت فقط أن أبقى قريبة من قلبه أسمع صدى نبضاته التي هي وحدها هدّأت من روعي مستوقفةً بكائي وحزني. رائحته المنعشة الممزوجة برائحة جسده المميزة والفريدة تدغدغ أنفي وتبعث الطمأنينة في قلبي، احتضنته بشدة راغبة في البقاء هكذا قريبة منه إلى للأبد.

بقينا على حالنا دون حراك يده تمشط شعري بنعومة، وعندما تأكد أني هدأت وتوقفت عن البكاء، أبعدني عنه برويّة يراقبني باهتمام. عيناي تحرقانني من كثرة البكاء ووجهي رطب من كثرة الدموع. رفع ذقني إلى أن التقت نظراتنا وقال:

"ماذا تفعلين هنا في هذا الوقت المتأخّر، أما زلت مستيقظة منذ وصولنا؟"

أومأت له برأسي مجيبة بنعم ولكني تحاشيت الإجابة عن السؤال الأول.

"لم تبكين؟ أهناك شيء ما يزعجك؟" سألني منتظراً اجابتي باهتمام.

أشحت بنظري عنه أفتش عن كذبة ما أخبره بها، فأنا لا أستطيع أن أعترف له عن سبب جلوسي باكية على الأرض أمام مكتبه، ولكن بماذا سأخبره؟

"ماذا هناك نور؟ أخبريني، بماذا تفكرين؟ ما الذي أبقاك صاحية إلى الآن وجعلك تبكين هكذا؟ ثقي بي وأخبريني علّي أستطيع مساعدتك"

"لا شيء،... إنّه...انّه أمر تافه، لا تشغل نفسك بما أفعله... فأنا في بعض الأحيان أقوم بأمور، حتى أنا لا أعرف سبب قيامي بها"

رفع حاجبه بتساؤل:

"كدخولك غرفتي، ونومك على الأرض بجانب سريري. أتقصدين مثل هذه الأمور؟"

أحرجني تعليقه، غضضت بصري عنه ووجدتني ألعب بأظافري وقبل أن تصل يدي إلى فمي قال:"من الأفضل أن تذهبي وتغسلي وجهك وتحاولي أن تنامي قليلا. أوشكت شمس الصباح على البزوغ. وأنا سأذهب لأنام قليلاً، هيا."

قادني أمامه إلى السلالم ثم توجّه كل منا إلى غرفته بصمت.

لا أعتقد بأنه غير قادر على الحب، فأنا أرى الحب في كل حركة يقوم بها وكل كلمة يقولها وكل بسمة يبتسمها لي.

أنا متأكدة، ومتأكدة بأني سأقدر على كسر هذا الحاجز الذي بناه على نفسه ظناً منه أنه يحميها من الألم والعذاب.

****

استقبلتني صباح اليوم الثاني ليلى بالأسئلة: "صباح الخير... وأخيراً استيقظت يبدو أنكم تأخرتم كثيراً بالعودة البارحة. كيف كانت الحفلة؟ هل أعجبتك؟"

"آ ليلى... أشعر بألم في كل أنحاء جسدي، أريد مسكّناً للألم أرجوك."

جلست على الكرسي حاضنةً رأسي بين كفي متكئة إلى الطاولة.

أعطتني كوب عصير وقالت مطمئنة: "لا تقلقي... إنها آثار السهر. دعيني أحضر لك شيئاً تأكلينه أولاً ثم أعطيك مسكّناً"

"أما زال إيان نائماً؟" سألتها وأنا أضغط بكفّي على رأسي علّي أخفف من ألمه.

"لا... لقد استيقظ منذ فترة، إنّه في صالة الرياضة، شرب قهوته وتوجّه مباشرة إلى هناك"

"وطلال، هل عاد؟"

"لا... ما زال عند سارة"

وبينما كنت أقضم بقايا فطوري، دخل إيّان المطبخ مرتدياً ثياب الرياضة، العرق يتصبب من شعره وصدره. مر بقربي متجاهلاً وجودي، تناول تفاحة من وعاء الفاكهة وراح يقضمها.

سألته ليلى: "أأحضر لك شيئاً تأكله؟"

"لا... سأنتظر حتى يجهز الغداء، سأذهب لأستحم، سيأتي بعض الأصدقاء للزيارة عند الرابعة، لو سمحت هلّا حضّرت المائدة في الحديقة الخلفية بجانب حوض السباحة؟"

"أهناك شيء معين تريد مني تحضيره؟"

"لا... أنا واثق من قدرتك على إرضاء جميع الحاضرين ومن ضمنهم أنا"

"وهل أنا مدعوّة للغداء في الحديقة مع أصدقائك؟"علّقت بمرح علّه يتنبّه لوجودي، فهو يتصرّف كأنّي غير مرئية حتّى أنّه لم يلقِ عليَّ التحية.

رمقني بعينيه الواسعتين البرّاقتين وقال مشدِّداً على مخارج الحروف:"بالطبع لا... لست مدعوة. جِدي لنفسك شيئاً تفعلينه بعيداً عن الحديقة الخلفية كليّاً."

« ولماذا هذا ؟ حسناً سأخرج إلى السوق ، أحتاج لشراء بعض الاغراض»

«طلال سيمضي نهاره عند سارة ، لذا لا أعتقد بأنك ستذهبين إلى مكان »

وقفت من مكاني حانقة « بل سأخرج ، إمّا أحضر الغذاء معك ومع أصحابك وإمَّا أخرج من القصر »

« نور!! » ناداني محذّراً لأخسر جرأتي تماماً متراجعةً عن عنادي، رمقته بغضب صامت متوعدةً له ، سيأتي يوماً وأجبرك على الخضوع لي.

ومأ لي بإكتفاء ذاتي ، راضياً عن نفسه متجهاً نحو الباب وقبل أن يختفي عن الأنظار سألني عن الباب:

"هل قررت ما ستفعلينه بدراستك؟"

أجبته بجفاء "نعم قررت"

"هذا جيد، إذاً جهزي نفسك غداً ليصطحبك طلال إلى الكلية التي قررت الانضمام إليها."

"وماذا سأفعل أنا بباقي نهاري، بينما أنت تمرح مع أصدقائك؟"

ولكنّه لم يجب عن سؤالي، بل تركني في المطبخ ورحل.

"بإمكانك أن تساعديني في تحضير الطعام" ردّت ليلى على سؤالي لإيّان.

أجبتها متذمّرة: "لا... لن أقوم بمساعدتك في تحضير الطعام الذي ستقدمينه له ولأصدقائه دوني... لن أفعل."

ضحكت متوجّهةً إلى الثلاجة لترى ماذا يتوفر عندها من خيارات للبدء بتحضير الغداء.

ماذا يحصل معه... تصرفاته تربكني كثيراً. فالبارحة كان رقيقاً وحنوناً معي، واليوم بارداً ولا مبالٍ... حسناً!! وما الجديد في ذلك، فهو دائماً هكذا، وكأن هناك منبّهاً في عقله وقلبه يبدأ بالطّنين في اللحظة التي يبدي فيها اهتمامه ليتوقّف ويتراجع عن ما يفعله أو يشعر به. حسناً على الأقل أعرف بأنه قادر على أن يحب ويكون حنوناً. ودوري الآن هو أن أعطّل هذا المنبّه وأجعله يحبّني غصباً عنه. نعم هذا ما سأفعله.

****

إنّه أوّل أيام الأسبوع، ويومي الأول في الجامعة. وأخيراً اخترت ما أريد فعله بمستقبلي، ووجدت أن إدارة الأعمال هي الاختصاص الأنسب لي، نظراً إلى أنني الوريثة الوحيدة لشركة والدي وأسهمه.

"هل أرافقك إلى مكتب الاستعلامات؟" سألني طلال وهو يركن السيارة أمام مبنى الجامعة.

"شكراً طلال، لقد أرسلت لهم مبدئياً كل ما يحتاجونه من معلومات عبر البريد الإلكتروني ودفعت كل مصاريف الفصل الأول. عليّ فقط المرور إلى هناك لأخذ جدول المواد وأتوجه مباشرة إلى قاعة المحاضرات."

"هذا جيد، اتصلي بي حالما تنتهين كي أصطحبك إلى المنزل."

أخذت هاتفي من محفظتي وقلت:

"انظر، هاتفي معي، ولا تقلق، فأنا هنا في كلّيّة، أي مكان آمن، لذا لا داعي للقلق، أنت وإيّان، وكأني ذاهبة إلى جبهة حرب."

هزّ برأسه ضاحكاً" حسناً، انزلي، لقد تأخرت على إيّان"

الساعة التاسعة صباحاً، وقت ازدحام الطلاب وهم يتنقلون بين قاعات المحاضرات.

توجّهت مباشرة إلى غرفة الاستعلامات للحصول على لائحة المواد وأرقام القاعات.

دخلت المكتب وإذ هناك عدد من الطلاب ينتظرون أمامي فجلست على كرسي شاغر أنتظر دوري مثلهم.

اقتربت منّي فتاة متوسّطة الطول ، جميلة ورقيقة، نحيفة ويبدو أنّها تضع عدسات ملونة، سألتني:

"هل أنت طالبة جديدة؟"

فاجأتني مبادرتها فأجبت بخجل: "نعم... أدعى نور، إنّه يومي الأول وأنتظر دوري لآخذ جدول المواد."

"أنا رينا وهؤلاء أصدقائي، نحن سنة ثانية إدارة أعمال" قالت مشيرةً إلى مجموعة مؤلّفة من بنت وشابّان "تعالي معنا، لا داعي لانتظار دورك، سندخلك مباشرة"

ثم سحبتني ودخلت بي مباشرة إلى المكتب غير مكترثة لمن ينتظر قبلي.لأُلاحظ شابّاً وراء المكتب في منتصف العشرينات يلبّي طلبات الطلاب. دَخَلَت عليه بقوّة، وكأنها على معرفة وثيقة به وقالت دون مقدمات:

"هاي آدم... أعطني جدول المواد الخاص بنور..."

ثم نظرت إليّ وكأنّها تنتظر مني قول شيء ما.

بادلتها النظرات وأنا في حالة ذهول، لا أعرف ماذا يحصل حولي أو كيف أتصرّف لتسألني:

"ما هو اسمك كاملاً؟"

أجبتها مرتبكة "آ... رِضى... نور رضى"

"سألبّي طلبك بعد لحظات، آنسة رينا" قال الشاب ساخراً وهو يصوّر بعض المستندات ويجمعها.

وقفت أمام المكتب بخجل، لتلاحظ رينا ذلك فقالت بإبتسامة رقيقة

"لا داعي للتوتر والخجل، فنحن هنا كعائلة واحدة، نساعد بعضنا البعض، وهذا أخي آدم، إنّه يدرس ويعمل هنا"

ثمّ أشارت إلى أصدقائها وقالت: " هذه تمارة، وهذان عمر وسليم."

اقترب سليم من تمارة، واضعاً يده على كتفها وقال:

"أهلا بك في كلية إدارة الأعمال، ونحن هنا بالخدمة إن احتجت إلى أيّ شيء"

أجبتهم بخجل: "أهلا بكم... وشكراً لكم."

"والآن، بم أخدمكم؟" سأل آدم يقلّب الملفّأت في الدّرج: "ماذا قلت اسم الطالبة؟"

فأجبته مقاطعة "نور رضى"

توقّف آدم عن التنقيب بين الملفّات رافعاً رأسه يفتّش عن مصدر الصوت بين الطلاب، إذ رينا والبقية يحيطون بي من كل جهة، شعرت بخجل كبير، إذ وجدت نفسي محطّ أنظار كل من في المكتب.

ابتسم آدم عندما رآني أشق طريقي نحو مكتبه وقال:

"أهلاً، أنا آدم، كيف أخدمك اليوم؟"

"نور رضى، أحتاج إلى جدول المواد، وبطاقة الانتساب"

توجّه إلى عامود من الأدراج المصفوفة فوق بعضها البعض، فتح واحداً منها يفتّش فيها ليعود بعد لحظات مع ملفّ برتقالي، أخرج منه بطاقة الانتساب وعدّة أوراق سلّمني إيّاها وقال بطريقة رسميّة وكأنّه يلقي محاضرة ما:

"أهلاً بك في كلّية إدارة الأعمال، أنا هنا دائماً في خدمتك يومياً ما عدا السبت والأحد، من الساعة السابعة صباحاً حتى الحادية عشرة ظهراً"

يبدو أنه يكرر هذه العبارة مئات المرات في اليوم الواحد إذ قالها بشكل تلقائي ودون تفكير. أخذت الأوراق منه، شكرته ثم توجهت نحو الخارج، لحقت بي رينا تسألني:

"هل استلمت جدول موادك؟ متى تبدأين؟"

"تبدأ محاضراتي عند التاسعة وتنتهي عند الثانية."

"هذا جيد، يمكننا أن نلتقي بعد الثانية في المقهى المقابل للمبنى. هل ترغبين في ذلك؟"

"بالطبع أقبل" لم أستطع إخفاء حماسي وأنا أجيبها، إنها فرصة لي للتعرف على أصدقاء يساعدونني على الانخراط في جوّ الجامعة والدراسة، يبدو أنهم طيبون وخَدومون والأهم، أنهم أبدوا اهتماماً بي وبمصادقتي

قضيت باقي النهار وأنا أتنقل بين المحاضرات، وعند الثانية تماماً رنّ هاتفي، إنّه طلال:

"ألو نور... هل انتهيت؟ أنا في الأسفل بانتظارك"

فاجأني اتّصاله والأكثر منه وجوده في الأسفل، كيف عرف بموعد انتهاء دوامي، سألته مستغربة:

"حقاً! وكيف عرفت أنني أنتهي عند الثانية؟"

"ما هذا السؤال السخيف، لقد حصلت على جدول موادك قبل حصولك عليه"

"ولم الاستغراب، هذا أمر طبيعي منك ومن إيّان، أنا قادمة."

أدار طلال محرّك السيارة في اللحظة التي دخلت فيها وانطلق:

"كيف كان نهارك؟" سألني باهتمام.

"جيّد"

"يسعدني ذلك"

لقد هربت من درب رينا وأنا قادمة إلى السيارة إذ وعدتها بلقائها بعد الدوام ، ولكن يبدو أنّ إيّان له مخطط آخر ، يبدو أنه لا يريدني أن أمضي وقتاً إضافياً في حرم

الجامعة ، إيّان يتحكم بحياتي بشكل خانق ، في بعض الأوقات أحتار معه وبتصرفاته ، والمصيبة أني دائماً أخرج الخاسرة الوحيدة إذ حاولت معاندته لتنفيذ مطالبي ، لأعود وأرضخ له بالنهاية .

"طلال، أتعرف امرأة تدعى روبي"سألته من دون مقدمات

بدا متافجئاً من كلامي: " ومن أين تعرفينها أنت؟"

"التقيت بها في الحفل الخيري، أخبرتني أموراً عن إيّان أثارت قلقي وحيرتي"

"وماذا أخبرتك؟"

"أخبرتني بأنها كانت صاحبته، ولكن ليس حبيبته لأنه لا يعترف بوجود الحب ولا يؤمن به، منذ متى كان إيّان على علاقة بها؟"

" لا أدري ، أعتقد منذ فترة طويلة مضت"

"هل هناك امرأة في حياته الآن؟"

"عزيزتي نور هل هذه مقابلة صحفية أم ماذا ، إذ فجأة إنهلت عليّ بالأسئلة وكأنك تستجوبيني "

"أرجوك طلال، أنا بحاجة لأن أعرف بعض الأمور عنه، وأنت الوحيد القادر على مساعدتي"

"وكيف أساعدك آنسة نور؟"

"بالإجابة عن أسئلتي ، أنا يجب أن أعرف إيّان أكثر"

"أتريدين مني الإجابة عن أسئلة تخصّ إيّان وحياته وماضيه؟ ألا تظنين بأنه من الأفضل لك سؤاله مباشرة فتوفرين عليّ عناء الشعور بأني أخون ثقته بي في كل مرة أفكر في الإجابة على أسئلتك، أو محاولة مساعدتك عليه"

"ولم تفكّر بأنّك تخون ثقته...أنا أصلاً سألته عن روبي"

نظر إليّ مصدوماً من كلامي وكأنه لا يستوعب ما قلته للتو "سألته؟... أنت حتماً جُننتِ؟"

"لم أستطع تمالك نفسي ، فأنا بحاجة لأن أعرف سبب تصرفاته ومعتقداته وبرودته ، نعم لقد سألته لأُفاجأ بقوله أنه لا يؤمن بالحب وبأن الحب ليس إلا تمويهاً للحقيقة المختبئة وراءه وهي الرغبة الخالصة. لقد أخافني ما قاله. أفكاره حول الحب مشوّهة وتضعه في إطار بشع مليء بالأنانية."

"حسناً ، طالما أنّه أجابك ، ماذا تريدين بعد ؟؟!! "

"لأنّ إجابته زادتني تساؤلاً ، أنا بحاجة لأن أعرف سبب إعتقاده ذاك »

زفر طلال بحنق عاجزاً عن مجاراتي "ما يقوله ويظنّه إيّان، نابع عن قناعة زُرعت فيه منذ الصغر، لذا من الصعب تغييرها أو إقناعه بعكسها، لهذا السبب نصحتك بالابتعاد عن طريقه، لقد عانى إيّان من فترة طفولة ومراهقة صعبة جداً قلبت مقاييس حياته ومعتقداته كليّاً .

أرجوك نور، فأنا أهتمّ كثيراً لأمركما. لا أريد أن أراك تقعين في دوّامته، لذا اكتفي بما تعرفينه لتقنعي نفسك بالعدول عن التفكير به، ومحاولة المضي في حياتك بعيداً عنه"

"لا أستطيع طلال... أوتظن أني سعيدة هكذا، تصرفاته معي تحيّرني... فأنا أشعر بأني كلما اقتربت منه خطوة يبتعد عني عشرة، وكأنّه رؤيتي ومحادثتي، أو حتى النظر في عيني. وفي نفس الوقت أشعر بحنانه واهتمامه بي ،لقد فات الاوان طلال لأني علقت بدوّامته وإنتهيت ، عليه أن يشعر بي ويبادلني مشاعري "

أجابني طلال بإصرار وكأنه واثق مما يقول:

"لن يفعل نور... لن يفعل أبداً... وأنت بالذات لن يحبك، ولن يسمح لنفسه بذلك"

أجبته بخنقة تحرق وجداني، عاجزة عن فهم ظروفه وأسبابه"لم؟... أريد أن أعرف لم، طلال؟... هل السبب امرأة ما من الماضي، أرجوك أخبرني بالسبب"

"لا أستطيع نور... وأرجوك لا أريد التحدث بهذا الموضوع بعد الآن"

أحزنتني إجابة طلال وأغضبتني كثيراً فجلست بالسيارة عابسة وصامتة للمسافة المتبقية إلى المنزل. إجابته كانت متوقعة ولكنها لن تجعلني أستسلم. فهو الوحيد القادر على ملء الفراغات التي ما تزال تتزايد يوماً بعد يوم. أنا بحاجة لأن أعرف مواصفات هذه المرأة التي كسرت قلب هذا الرجل الشامخ كالجبل برجولته وكبريائه وعنفوانه، كالبحر واسع وعميق في كتم أسراره وآلامه وأحزانه.

وأنا عليّ أن أجد طريقة لاختراق قلبه وإقناعه بوجود الحبّ الطاهر والخالي من الأنانية والرغبات المادية.

****

شرعت عصافير معدتي تزقزق من شدّة الجوع وأنا أنتظر قدوم طلال وإيّان من غرفة المكتب،ماذا يفعلان هذان الاثنان ، الا يكفيهما العمل طوال النهار في المكتب ليأتيان يكملان العمل بالمنزل.

"أي ليلى" قلت متذمّرة " ما عدت قادرة على التحمّل، سأبدأ بالأكل، لن أنتظر أكثر"

مددت يدي لآخذ فطيرة فصفعتها ليلى بخفة قائلة:

"لن تلمسي شيئاً قبل حضور الجميع إلى الطاولة" لتنظر خلفي قائلة "ها هما قد اتيا "

التفتّ خلفي ورأيتهما قادمان " وأخيراً" تنهدّت بارتياح وقبل أن يجلسا في مكانيهما كنت قد أنهيت سكب الطعام في صحني وبدأت بالأكل.

تأمَّل إيّان طبقي المليئ حتى الشُفّة ضاحكاً"يبدو أننا جعلناك تنتظرين كثيراً. أأنت جائعة إلى هذه الدرجة؟"

أجبته بفم ملآن "نعم، والذنب ذنبكما، فأنا أنتظركما منذ أكثر من نصف ساعة"

"كيف كان نهارك الأول في الجامعة؟" سألني إيّان وهو يسكب الطعام في طبقه.

أجبته بحماس "كان جيداً، لقد تعرّفت إلى بعض الأصدقاء، يبدو أنهم لطفاء" ثم خاطبت طلال قائلة "على فكرة طلال، لا تذهب غداً لِتُقِلَّني عند الثانية، بل انتظر اتصالي، لأني وعدتهم بأن ألتقي بهم بعد الدوام في المقهى؟"

نظر إيان وطلال نحوي في آن معاً، الاستغراب وعدم الرضى واضح في نظراتهما. اكتفى طلال بإلقاء نظرته الغير راضية أمّا إيّان علق دون تردد:

"من هم هؤلاء الأصدقاء؟ فأنت لم تتعرفي على المبنى وكافة صفوفك بعد، وتعرفتي على مجموعة أصدقاء! ليس صديق واحد، بل مجموعة!" ثم سأل بنبرة متسلطة لم تعجبني أبداً "من هم؟؟"

"ماذا الان ؟؟!! وهل ستتدخل في كيفية انتقائي لأصدقائي؟" أجبته بحدّة وتمرّد "أتريدني أن أجمع لك بياناتهم لتتحرّى عنهم، وعندها تعطيني الإشارة الخضراء أو الحمراء. ففي كلا الحالتين سيكون قرارك هو الذي نُفّذ. هذا لن يحصل أبداً. أنا ناضجة وأعرف كيف أحمي نفسي وأختار أصدقائي بحكمة" قلت وأنا أقلّب الطعام في طبقي بعصبية.

"لم أقصد ذلك" قال إيان مبرراً ما صدر منه وكأنه شعر بأنه تخطّى حدود الواقع، ويغالي في قلقه عليّ:

"أنت ما زلت صغيرة ومندفعة ولا خبرة لديك في التعامل مع الجنس الآخر، وبالتأكيد هم أكبر منك سناً وخبرة ومعرفة بالحياة وألاعيبها. بالطبع سأقلق عليك معهم، فأنا لا أريدك أن تتأذي على يد أشخاص كهؤلاء"

"أنت حكمت عليهم بالسّوء دون أن تعرفهم، أو تعرف شيئاً عنهم، فقط لأنهم أكبر مني سناً، هذا ليس سبباً كافياً لأرفض صداقتهم. لا يمكنك أن تقيس درجة النضج بالعمر إيان، فهناك الكثير من الأشخاص البالغين ودرجة نضجهم متدنيّة جداً وبالعكس. لا تقلق عليّ، وأعدك إذا شعرت بأنّهم ليسوا كفؤاً ليكونوا أصدقائي سأنسحب دون تردد"

"أتمنى هذا." حاول إيان بكل جوارحه أن يبدو مطمئناً حيال فكرة مجموعة الأصدقاء هذه ولكنه فشل إذ أكمل طعامه بصمت، شارد الذهن وكأنه غارق في عالمه الخاص يفكر ويفكر دون الوصول إلى نتيجة.

آخر ما أريده الآن هو أن أشغل باله، ولكن قلقه غير مبرر وأنا أحتاج للأصدقاء، فالوحدة ليست بشيء أحسد عليه ، ومع الوقت سأبرهن له أنه مخطئ في سبب خوفه وقلقه.

****

انقضت باقي أيام الأسبوع بسرعة، إذ كان وقتي مليئاً بين حضور المحاضرات في فترة الصباح وتمضية بعض الوقت مع رينا والبقية فترة بعد الظهر إذ وجدتهم مرجين وطيبين وخاصة رينا، توزع الفرحة والبسمة على كل من حولها. وجدتها صديقة رقيقة ومفعمة بالحيوية، كنت ألتقي بهم كل يوم بعد انتهاء الدوام ولكن طلال كان دائماً ما يستعجلني لاصطحابي إلى المنزل ونادراً ما كنت أتذمّر، إذ أعرف بأنّها رغبة إيّان وليست رغبته.

كنت أمضي فترة بعد الظهر أطالع وأحضّر لليوم التالي، ونادراً ما كنت أرى إيان، إذ كان غالباً ما يفوِّت فترة العشاء ويعود متأخراً إلى المنزل وهذا ما كان يثير

جنوني، إذ لا يرد على اتصالاتي ولا رسائلي، وكأنه يتحاشى رؤيتي أو مكالمتي وهذا ما لم أفهم سببه أبداً.

قررت بأني لن أنام الليلة، بل سأنتظر مجيئه، حتى لو تأخر إلى منتصف الليل، غداً عطلة نهاية الأسبوع ولست مضطرة للاستيقاظ باكراً.

إنقبض قلبي لحظة سمعت صوت محرّك سيارته يتوقف أمام مدخل القصرمعلناً قدومه إلى المنزل ، أين كان لهذا الوقت ، هل يتقصد البقاء بعيداً عن القصر كي يبقى بعيداً عني،أمْ ريبتي تؤثر على رجاحة تفكيري.   إنها الواحدة بعد منتصف الليل.

سأنتظر لبعض الوقت حتى يغفو وأذهب إليه، لقد اشتقت إليه كثيراً وما عدت قادرة على تحمّل فراقه أكثر من ذلك، إذا كان لا يريد رؤيتي فليفعل، لن أجبره على ذلك، ولكني أحتاج إلى رؤيته والشعور بدفئه وتنشق رائحته العبقة.

تسللت إلى غرفته كالمعتاد، الظلمة تعمّ المكان، دلفت إلى الداخل بخطوات خفيفة كي لا أوقظه لأشهق فزعةً متجمدةً مكاني لحظة فُتح باب الحمّام وخرج منه إيّان مبلل الشعر، ويلف منشفة حول خصره.

وقف متصلّباً لحظة سمع شهقتي متنبّهاً لوجودي ، وقف قبالتي بتعابير غامضة ، يحدّق بي بصمت رهيب.

وأنا بدوري وقفت متجمّدة من رهبة ما يحصل ،غير قادرة على الهرب أو التّقدم، فاكتفيت بالوقوف في منتصف الغرفة عاجزة عن الحراك.

عيناه تجتاح جسدي بحنق لأتذكر بأني أرتدي البيجاما التي منعني من الخروج بها من غرفتي فأنا لم أحسب بأني سأجده مستيقظاً.

" ماذا تفعلين هنا نور؟؟" سألني بصوت مهزوز

" أنا...أنا...أتيت أطمئن عليك ، فأنا لم أراك منذ فترة طويلة "

رفع حاجبه بإستنكار" الم أحذرك من القدوم إلى غرفتي نور" نبر بي على وشك فقدان أعصابه .

إقتربت منه بتردد مبررةً بصوت مرتعش " أنا ..أنا أفتقدك ، فأنت نادراً ما تعود إلى المنزل باكراً ، لقد ... لقد إشتقت اليك، فأتيت لأراك "

" أتعرفين عقبات ما تفعلينه ، هذا أمرٌ غير مقبول منك ، أنت فتاة وقاصر ، لا يجوز عليك التسلل إلى غرفتي هكذا وفِي منتصف الليل ، المرّة الماضية لم أشأ أن أُؤنبك ولكنّي لن أعدّيها لك هذه المرّة "

إقتربت منه أكثر مشتعلةً بنار الغضب المستعر بداخلي صارخةً به" إذ كنت لا تريدني أن أتسلل إلى غرفتك عد باكراً إلى المنزل كي يتسنى لي رؤيتك والتحدث اليك، لماذا أشعر وكأنّ غيابك متعمّد ، وكأنك تتحاشى التواجد بالمنزل لأجلي ؟؟."

"ولماذا أفعل ذلك ها ؟؟ وما شأنك أنت بي ؟؟ " صرخ بي غاضباً حانقاً

إجابته أفقدتني رشدي " أنت رجل أناني ، أعمى ، إلى متى ستبقى متجاهلاً مشاعري مدّعياً بأنك لا تفهم ما يختلج بصدري من عشق لك ، أنا أحبك ، أحبك "

شهقتُ مذعورةً لحظة دفعني نحو الحائط ورائي متبّتاً إيّاي هناك حدّق بي بحنق مستعر صارّاً على أسنانه بعنف " لا بدّ أنك فقدت عقلك لتخاطبيني بهذه الطريقة "

حدّقت به بعيون متلقلقة بأنفاس متسارعة ، قربه هكذا مني أسرني برائحته العبقة وعري صدره الملتصق بي أغمضت عيوني أستلذ بقربه هذا لأفتحهما من جديد شاهقة متفاجئةً لحظة أطبق فمه على فمي مقبلاً إيّاي

قبلته كتمت شهقتي المتفاجئة ، للوهلة الاولى ظننت بأنه سيصرخ بي أو يؤنبني ولكني لم أتوقّع بأنه ..... أغمضت عيوني منتشيةً من قبلته التي شعرت بها بأعماقي ،حرّرَ ذراعي شابكاً أصابعه بشعري فأحتضنته ناشدةً الاقتراب منه أكثر ولكن يبدو أن حركتي تلك نبّهته لما يفعله فحرر فمي دافناً وجهه بشعري بأنفاسه

المتسارعة الحامئة ، شعرت بكل نفس حاد يأخذه ونفس يدفعه ونبضات قلبه تتخبط بين أضلاعه،

إنحنى هامساً في أذني بأنفاسه الحارة وكأنها نار حامية تخرقها:

"ماذا فعلت بي... ماذا صنعت مني؟" أخذ نفساً عميقاً من شعري وقال يرجوني: "عودي إلى غرفتك، أرجوك"

أسدل يديه فاسحاً لي المجال لأبتعد من أمامه دون أن ينظر إلي ،وكأن الحياة غادرت عينيه ليحل مكانها الحزن والألم والندم.

أردت أن أقول شيئاً ما، أن أعلق على ما حصل، أخبره بأنني أحبه وأريده وأحتاجه، ولكن رؤيتي له على هذه الحالة جعلتني عاجزة عن التفكير فيما علي فعله أو قوله، فقررت الانسحاب دون تعليق.

الفصل الخامس

لم البث أن وطأت قدمي باب غرفتي حتى سمعت صوت محرك سيارة إيان وانطلاقها بسرعة هائلة، إنتفض قلبي جزعاً عليه ، إلى أين يمكن أن يذهب في هذا الوقت المتأخر من الليل؟ ماذا حصل له؟ أيعقل أن قبلتنا هي السبب؟

أسرعت إلى هاتفي أحاول الاتصال به دون جدوى، إذ بعد عدّة محاولات أعطاني أن الرقم خارج نطاق التغطية... يبدو أنه أقفل هاتفه... يا الله!!!،ماذا أفعل الآن ، ماذا إذ حصل له مكروه ، لم أحد أمامي حلاًّ أخر إلاّ الاتصال بطلال الذي أجابني من المحاولة الثانية بصوت متحشرج وقلق:"ألو... نور ماذا يحصل؟ هل أنت بخير؟"

صمتُّ للحظات أفكر بكيفية نقل الخبر اليه لأشعر بالكلمات تختنق في حنجرتي عاجزةً عن التحرر. ماذا سأقول له؟ كيف سأشرح له ما حصل. ثم تمتمت بالكلمات:

"أنا بخير، ولكن إيان..."

قاطعني مذعوراً "ما به إيان؟ أجيبيني؟"

" لقد ، لقد تسللت إلى غرفته كالعادة لأفاجأ به مستيقظ، أنّبني وصرخ بوجهي ومن ثم ..... ثم قبّلني و "

قاطعني ثائراً " يا للهول !! إنها مصيبة، ماذا فعلت أيتها الغبية ؟"

إهتزّ صوتي لتسبح عيوني بدموعي الحارّة خجلاً وخزياً من فعلتي "لقد حصل الأمر دون تخطيط، وبعد ذلك أخذ السيارة ورحل... أنا خائفة عليه، لم يبدُ بخير عندما غادرت غرفته وبالتأكيد لم يكن كذلك عندما غادر المنزل، أرجوك طلال جِده.. أنا قلقة جداً عليه." شعرت بأن يداي عاجزتان عن حمل الهاتف من شدة توتري وخوفي عليه، يا الله ماذا فعلت؟؟!!.

" لقدّ حذّرتك من تصرفاتك الرعناء ، لقد أخطأت خطأً غير قابل للغفران، أنت لا تعرفين ماذا فعلت به ، فعلتك هذه كيف ستؤثر عليه،أتريدين تدمير ما تبقى منه ، إنه ضحية ، ضحية تحاول الاستمرار بحياتها ولكنّك تدمرين حصونه المنيعة .»

أنهى عباراته الغاضبة مغلقاً الخط بوجهي ، متأكدة لو أني أمامه لكان صفعني بقوة ، طلال غاضب جداً وقلق على إيّان ، ماذا هناك؟؟ ضحية ماذا؟؟

أغلق الخط وتركني وحدي في عتمة الليل ووحدته أسترجع ذكريات ما حصل. لقد شعرت بلهفته إتجاهي ، كنت طليقة حرّة بين ذراعيه، أشعر بقوته تحيطني والطمأنينة تغمرني، فجُلّ ما أردته هو البقاء بقربه كل العمر. ولكن صدى كلماته بقي يتردد في ذهني:

"ماذا فعلت بي؟ ماذا صنعت مني؟" ماذا يقصد بهذه الكلمات البسيطة في التركيب العميقة في المعنى.

غادر النوم عيوني مثيراً قلقي المتزايد مع مرور الوقت ، بزغ الفجر ولم أسمع حتى الآن خبراً مطمئناً عن إيّان. وطلال هو الآخر يتحاشاني ولا يرد على اتصالاتي.

غادرت غرفتي متّجهةً نحو غرفة إيّان لأجد الضوء مضاء والباب مفتوح على مصراعيه. دخلت الغرفة بتردد أتلفت حولي لأجد شظايا المرآة المعلقة على الحائط في كل مكان وقطرات من الدماء متناثرة على الأرض ونحو الحمام،إنقبض قلبي شاهقة بفزع تابعةً الآثار لأجد منشفة مليئة بالدماء ملقاة على طرف حوض الاستحمام.

أنا السبب، أنا من قاده إلى هذا ، يا لي من حمقاء أنانية ، هذا الرجل يثير قلقي وهمّي ، لقد لكم المرآة بقبضته مسبباً جرحها . أيعقل أنه أسرع إلى المشفى .

استلقيت على سريره أبكي شاهقةً خيبتي وحزني وقلقي ، رائحته تفوح من كل مكان، حضنت وسادته مجهشةً بالبكاء المرير، قلبي يؤلمني وروحي تؤنّبني وكأني مجرمة طعنت حبيبها للتوّ... ما الذي يعذبه ويجعله غير قادر على حبي؟ فأنا متأكدة من أنه

يهتم لأمري ولا يطيق أن يصيبني مكروه. ولكنه يموّه اهتمامه بي على أنه واجب ووعد قطعه على والدي. رغم هذا كله فأنا متأكدة بأن هناك شيئاً أكثر من واجب ووعد، ولكن كيف أقنعه بأن هذا هو الحب.

الغموض الذي يحيط به يرهقني ويتركني عاجزة عن إيجاد وسيلة لمساعدته. أحبه ولا أعتقد بأني سأقدر على التوقف عن حبّه يوماً...

****

"يا الله !!! ماذا حصل هنا؟ وأين إيان؟ نور، لم أنت نائمة هنا؟"

استيقظت على صوت ليلى وهي تناديني بقلق، ما زلت أشعر بنعاس شديد. فتحت عيناي بصعوبة لأراها واقفة بجانب السرير تنتظر مني تفسيراً لسبب الفوضى التي تعمّ في غرفة إيان.

نظرت إلى الساعة مباشرة وإذ بها تشير إلى الثانية ظهراً:

"هل نمت كل هذا الوقت؟ هل عاد إيان؟"سألتها بتكاسل وأنا أتمدّد في السرير.

"وأين هو؟ يبدو أنه لم يعد منذ ليلة البارحة، فأنا لم أصعد لتفقّدك حتى الآن، ظناً مني أنك ما تزالين نائمة ، بغرفتك"شدّدت على أخر كلمة ترمقني بإستنكار

جالت بنظرها حول الغرفة ليلفت انتباهها الدماء على الأرض، التفتت إلي وسألتني بذعر:

"ولكن أجيبيني، ماذا حصل هنا؟ ودماء من هذه؟ ولم أنت نائمة هنا؟"

"آ ليلى، أرجوك، فأنا حتى الآن لا أعرف ماذا حصل، وإيان... لقد... لقد" سكتُّ للحظات أفكر بكيفية صياغة كلماتي "لقد تشاجرت معه... ثم يبدو أنه لكم المرآة بيده وجرحها، ثم غادر المنزل من دون تعليق"

حدّقت بي بنظرات شك لا تصدق بأن هذه هي القصة الكاملة، لا بد أنها شعرت بأني أخفي شيئاً ما، ولكنها لم تلحّ مطالبة بالمزيد، بل أخذت هاتفها تاركةً الغرفة تتصل منه.

إنتشلت هاتفي وتبعتها مسرعة علّي أسمع منها شيئاً يطمئنني عنه.

"ألو... نعم... نعم... لقد عرفت للتو. أين هو... هل هو بخير؟ ... وكيف حال يده؟... حسناً لا تقلق" ثم التفتت إلي وأجابته "إنها بخير... نعم" ثم أغلقت الخط.

سألتها بعدم صبر، "أخبريني، هل هذا طلال؟ هل وجد إيان؟"

"نعم، وطلب مني إخبارك بأن لا تقلقي، فهو بخير"

"متى سيعود؟"

"ليس قريباً... لا تنتظري عودتهما اليوم"

ثم تركتني وعادت إلى الغرفة بأغراض التنظيف.

******

كنت أتصفح الإنترنت عندما رن هاتفي فأسرعت إليه ظنّاً مني أنه إيان أو طلال وإذ برينا المتصلة:

"الو رينا، كيف حالك؟"

"أهلا نور، ماذا تفعلين؟"

"لا شيء، أشعر بالملل، وأنت؟"

"إننا نخطط للخروج للسهر في مكان ما الليلة، أترغبين في القدوم؟"

"نعم ولم لا، فأنا لم أفعل شيئاً منذ الصباح غير النوم والأكل وتصفح الانترنت، ولكن عليّ تدبر أحدهم ليقلّني فأنا بعيدة عن وسط المدينة"

"بإمكانك أن تطلبي سيارة أجرة"

"إنها فكرة جيدة، نعم أظنني سأفعل ذلك، متى وأين نلتقي؟"

"عند السابعة، أمام المقهى المقابل للبنك، أتعرفين المكان؟"

"سأسأل، لا أعتقد بأني سأتوه عنه، إلى اللقاء إذاً"

ماذا سأفعل الآن، لن يسمح لي الحراس بالخروج ما لم يعطهم إيّان الإذن بذلك، وهو بدوره لا يجيب على اتصالاتي، لذا من الأفضل أن أتصل بطلال، وبعد عدة محاولات رد علي بنبرة حادة تنمّ عن عدم الرضا.

"ماذا تريدين؟"

نبرة صوته الجافة والباردة أزعجتني فأجبته غاضبة:

"أنا لا أتصل لأزعجك سيد طلال، ولكني أريد إعلامك بأني سأخرج للسهر مع أصدقائي، لذا من الأفضل إعلام الحراس عند البوابة للسماح لي بالخروج." أجبته بثقة وصوت آمر، فهو وإيّان لم يجيبا على اتصالاتي طوال النهار، وأنا مللت منهما.

رد طلال على سؤالي بالصمت.

"ألو طلال... طلال هل تسمعني؟"

"نعم نور... سأعاود الاتصال بك بعد قليل" ثم أغلق الخط. ولكن ما الذي حصل للتو، فهو لم يجبني. وبعد عدة دقائق عاود الاتصال بي، وفي اللحظة التي فتحت بها الخط قال:

"ألو نور ... اسمعيني، أنا قادم إلى المنزل، أحتاج إلى التحدث معك بأمر مهم، من الأفضل أن تتصلي بصديقتك وتؤجلي موعد خروجك معها."

ثمّ أغلق الخط من جديد دون أن يسمع ردي. ما الذي يحصل معه، لقد كان يصد اتصالاتي طوال النهار، والآن فجأة أصبح يريد أن يتحدث، بالتأكيد يريد تضييع وقتي كي لا أخرج مع رينا.

اتصلت برينا معتذرةً منها بالطبع لم يعجبها ذلك، إذ بدت متحمسة جداً عندما قبلت بالخروج معهم. ولكني وعدتها بأن أخرج معهم قريباً، وهذا ما سأسعى إلى حصوله.

نزلت إلى الحديقة وجلست تحت خيمة القرميد، بجانب حوض السباحة أنتظر قدوم طلال.

كانت الشمس تشارف على المغيب عندما رأيته قادماً من الحديقة الأمامية. التعب والإرهاق باديان على محياه، شعرت بالذنب لحالته تلك إذ بالتأكيد أنا السبب فيها .

"مرحباً" ألقى التحية وجلس قبالتي.

"أهلاً، تبدو مرهقاً، ألم تنم منذ البارحة؟"

"لا... لم أنم" أجابني ببرودة وجفاء، ولكني لم أدقق على الموضوع وسألته:"أين وجدت إيان؟ هل هو بخير؟"

"لا... ليس بخير، طالما أنت تتصرفين بتهوّر ورعونة وعدم اكتراث لن يكون بخير"

"ولكن ما الذي يحدث له؟؟ إذ كنت أنا لست غاضبة من قبلتنا لم هو يتصرف بهذه الطريقة"

"لأن ما حصل خطأ ، لقد وضعك والدك أمانة تحت عهدته ، كيف تريدينه أن يشعر وهو يستغل أمانة والدك بهذه الطريقة المشينة "

"هو ... هو لم يخطئ ، لقد كان خطأي طلال ، أنا من دفعه إلى ....تقبيلي" علّقت بصوت متردد خجل" ولكنّي لم أخطط لها، لقد ظننته نائماً عندما تسللت إلى غرفته و..."

قاطعني صارّاً على أسنانه بحنق شديد "يجب أن تتوقفي عن التسلل إلى غرفته، إنها عادة سيئة وغير لائقة " زفر بعجز متابعاً بصوت مخنوق "إنه يشعر بذنب كبير لأنه سمح لأمر رهيب كهذا أن يحصل بينكما. ما حصل يعذبه ويتركه عاجزاً عن التفكير بمنطق، ولا يعرف كيف يمكن للأمور أن تعود كسابق عهدها بينكما بعد الذي حصل"

"لا أريد للأمور أن تعود كما كانت، لقد إعترفت له بحبي ... أنا أحبه... وأريده أن يبادلني شعوري"

لكم طلال الطاولة بعصبية حادة أفزعتني "هذا أبداً لن يحصل، لقد حذرتك من هذا نور، إيان لن يحبك أبداً، فأنت مجرد طفلة بحاجة إلى رعايته لا أكثر ولا أقل، وإذا بقيت على عنادك هذا، سيضطر إلى تغيير طريقة تعامله معك كلياً"

صرخت به بعجز "لقد مللت من هذه الكلمة، أنا لست طفلة طلال، بعد غد سأكمل الثامنة عشرة ولن أعود تحت وصايته، سأصبح حرة نفسي. وإذا كان رحيلي عن هذا المنزل هو السبيل الوحيد لجعله يراني امرأة ناضجة وليست بحاجة إلى رعايته، فسأرحل من هنا، حالما أكمل الثامنة عشرة وأستلم أملاك والدي"

حدّق بي متفاجئاً وكأنه لم يتوقع سماع ما قلته ، هز رأسه بعصبية مشيراً نحوي بسبابته قائلاً بحنق :

"هذا لن يحصل، لن ترحلي من هذا المنزل إلا عندما يتأكد بنفسه أنك قادرة على الاهتمام بنفسك، لقد وعد والدك بذلك، وحتى اللحظة الأخيرة سيبقى وفياً لوعده. وبالنسبة إلى أن يحبك... هذا لن يحصل، إيان غير قادر على الحب، الحب ليس في

قاموس حياته، لقد جرّبَت قبلك كثيرات وفشلن، وأنت بالذات تجسدين ذكرياته الأليمة ومأساته التي حرمته طفولته وكسرت قلبه، أنت بالذات لن يسمح لنفسه بالتلاعب بك أو استغلالك أبداً."

عدنا إلى التحدّث بغموض ، ذلك الغموض الذي يثير جنوني ، وقفت عن الكرسي صارخة به ملئ حنجرتي ، علّه يستوعب غضبي وعجزي :

"لم... لم أنا بالذات؟؟ ماذا حصل في ماضيه ليجعل منه ما هو عليه الآن؟ ماذا أمثّل أنا في ماضيه؟ قل لي، ساعدني لأفهمه وأفهم سبب طلبك لي بالتخلي عنه.فأنت طالما تكلمني بهذا الغموض لن نصل أبداً لحل ، كن واضحاً معي وأخبرني، فأنا بحاجة إلى سبب واضح ومقنع"

"أظن بأني قلت ما يكفي لتفهمي أن إيان ليس لك، ولن يكون أبداً. إنه يهتم لأمرك كثيراً نور، ولكن ليس بهذه الطريقة. فهو يرى فيك نور الصباح الذي حرم منه

مراهقاً، لذا عليك أن تتقبلي فكرة ان ما حصل في غرفة نومه كان غلطة لن تتكرر ولا معنى لها أبداً بالنسبة إليه"

"أين هو؟... لمَ لم يأتِ بنفسه ويخبرني أن ما حصل كان غلطة وبأنه لا يحبّني ولن يحبني أبداً"

"لقد فعل ذلك مراراً وتكراراً، لكن عنادك أبى أن يسمعه"

"لقد قبّلني" قلتها بصوتٍ عالٍ وحاد وكأن قلبي يصرخ بها"لقد قبّلني بشغف وحبّ ورغبة. قُبلتَه أخبرتني أنه يريدني."

"هناك فرق كبير بالنسبة إليه بين الرغبة والحب، أتريدين الذهاب معه في ذلك الطريق نور؟... إنه طريق لن تخرجي منه سوى محطمة الروح والفؤاد"

كلماته قاسية وحادّة ومؤلمة، تطعن الصدر وتخرق القلب بسهولة.

ماذا يرى عندما ينظر إلي؟ بم أُذكره؟ وما هي هذه الذكرى الأليمة التي أجسّدها؟ وجدت أن طلال أعطاني المزيد من التساؤلات بدل الإجابات. ازداد إيّان غموضاً ورهبة عندي، أيعقل بأنه لن يحبني أبداً؟

عدت وجلست على الكرسي،حاضنةً رأسي بين كفي وسألته باستسلام:

"أين هو الآن؟"

لانَ صوت طلال وقال بهدوء محاولاً تهدئة الوضع بيننا:

"لا تقلقي عليه، فهو يعرف كيف يتدبر أموره ، إنّه بحاجة للإبتعاد لبعض الوقت"

اقترب مني أخذاً بكفّي المرتعش بين كفَّيه الدافئتين، رفع ذقني حتى التقت عينانا وتابع:

"إنه قلق عليك كثيراً، لا يريد التسبب لك بالأذى، إنه يهتم كثيراً لأمرك نور، وهمه الوحيد حمايتك وتأمين مستقبلك، وأنت تصعبين الأمر عليه.

أنت ما زلت صغيرة، وأمامك درب طويل، فكري الآن بجامعتك ودروسك ودعي الحب إلى حينه"

لم أجبه بل اكتفيت بالنظر إلى عينيه الصادقتين اللتين تحاولان جاهدةً إقناعي بما يقوله. اغرورقت عينايمنهمرةً بدموع سخية،ساخنة،تنهّد بعمق آخذاً إيّاي بين أحضانه يهدّئني :

"توقفي أرجوك... إنها ليست نهاية العالم، فأنت شابة جميلة ورقيقة، ويوماً ما ستجدين حبك الحقيقيي، عندها ستكتشفين ان حبك لإيان لم يكن إلا طيش شباب"

كلماته زادتني رغبة في البكاء فاحتضنته بقوّة أبكي بسخاء على كتفه.

هل سيكون سهلاً نسيانه؟ ولم أنساه؟ فأنا إذا سألت نفسي عن سبب حبه سأجد ملايين الأجوبة، ولكن إذا سألني قلبي، لم تريدين نسيانه؟ بم سأجيبه؟ كيف سأبرر له؟ فإن سهم الحب أصابني واخترق كياني وسكن روحي وأصبح جزءاً لا يتجزأ مني، نما

بذرة صغيرة في قلبي وامتدّ في كل أرجاء جسدي حتى أصبح كل جزء مني يصرخ بحاجته.

فكيف يعيش القلب بلا نبض، والروح بلا عبادة، والجسد بلا غذاء، والعقل بلا معرفة.

بدونه سأكون طيفاً يفتقر إلى كل هؤلاء.

****

لم يغادر طلال المنزل البارحة وإيان لم يعد، ويبدو أن غيابه سيطول إذ جهزَت له ليلى حقيبة صغيرة ببعض الثياب والأغراض المهمة وأرسلتها له، وعندما سألتها عن السبب، قالت بأن لديه عملاً طارئاً في دبي في شركة الهندسة والبناء التي يملكها هناك واضطر إلى السفر على عجلة. ولكني واثقة بأن سبب سفره ليس العمل الطارئ، بل بسبب ما حصل بيننا وحاجته إلى خلق مسافة، ولكن إلى متى؟

منذ الصباح وأنا أحاول عبثاً أن أنهي مشروعاً يجب أن أقدمه في بداية الأسبوع. عقلي لا يطاوعني على التركيز إذ إن إيان لا يبارح عقلي وتفكيري.

رن هاتفي مشيراً وصول رسالة نصية . إنه طلال.

طلال:

مرحباً نور، كيف حالك. أنا وسارة بانتظارك في الأسفل عند الحديقة الخلفية بجانب حوض السباحة.

ملاحظة: ارتدي شيئاً أنيقاً ولا تتأخري، فأنا أحضر مفاجأة لسارة.

لقد مرّ الوقت دون أن أشعر به، إنها الثامنة والنصف.

ختمت مشروعي وأرسلته عبر البريد الإلكتروني إلى الدكتور المسؤول عنه وارتديت فستاناً بنفسجياً داكن اللون وتركت شعري منسدلاً على طبيعته وانطلقت مسرعة نحو الأسفل.

لا يوجد أثر لأحد في المنزل، يبدو أن ليلى مدعوة أيضاً، أيعقل أن طلال سيطلب يد سارة اليوم... سيكون هذا حدثاً مميزاً.

الجو جميل في الخارج، القمر بدر، إذ ضوءه يغطي على الإضاءة المبعثرة في أرجاء الحديقة، وصلت إلى حوض السباحة، الأضواء مطفأة ولا أثر لأحد هنا، هذا غريب ، هل أخطأت فهم الرسالة .

ناديت بتردد "طلال... ليلى... أهناك أحد... أين الجميع؟"وإذ بالمكان يضاء دُفعةً واحدة وصوتاً صادحاً ضجَّ بالأرجاء "مفاجأة... كل عام وأنت بخير"

شهقت منتفضاً قلبي بين أضلاعي لأفاجأ بالجميع أمامي .

طلال، سارة، ليلى، رينا، تمارة، عمر وسليم. رؤيتهم تركتني عاجزة عن إبداء ردة فعل مناسبة، فوجدت نفسي متجمدّة من هول المفاجأة أناظرهم بدهشة والفرحة تغمرهم.

الطاولة مليئة بالأطعمة والحلويات والمشروبات، الزينة والبالونات تعم أرجاء المكان، يبدو أنهم كانوا يعملون منذ الصباح على هذه المفاجأة من وراء ظهري ، حتى أن ليلى أخذت لي الغذاء إلى غرفتي لتضمن عدم نزولي وكشف مفاجأتهم.

اقتربت رينا مني إحتضنتني تقول بفرحة عارمة:

"كل عام وأنت بخير...ما هو شعورك الآن وقد أكملت الثامنة عشرة"

تمتمت لها "شكراً لك، إنها حقاً مفاجأة جميلة لم أتوقع حصولها ، أنتم رائعين ."

وقف طلال على مسافة قريبة منتظراً رينا حتى تنهي كلامها ثم احتضنني هامساً بأذني وكأنه يشعر بألمي:

"أرجو أن تكون سنواتك القادمة مليئة بالفرحة والنّجاح"ثم طبع قبلة خفيفة على رأسي وانسحب عائداً إلى سارة.

"هاي فتاة عيد الميلاد... ما رأيك بهذه المفاجأة الجميلة"

علّق عمر ثم تبعه سليم:

"ما هذه المفاجأة؟ أيعقل أنك تعيشين في هذا القصر الرائع ولم تذكريه لنا قط، أصابتني الدهشة عندما وصلت إلى هنا. من أنت؟ ابنة وزير أو رجل مافيا؟ وما قصة كل هذه الكاميرات المزروعة في أرجاء المكان، البوابة الضخمة عند المدخل والحرس. ظننت نفسي وأنا أدخل بأني رجل مهم و..."

قاطعته رينا وهي ترمقه بنظرة عتاب:

"حسناً سليم كفى... دع الفتاة تأخذ نفساً" ثم أخذت بيدي وأبعدتني عنهم وهي تسألني بقلق:

"هل أنت بخير؟ تبدين مرهقة."

رفعت بصري اليها متفاجئة من سؤالها ، هل حزني واضح لهذه الدرجة ؟

أجبتها مدّعيّة أَنِّي بأفضل ما يرام "نعم... نعم أنا بخير وسعيدة جداً بوجودكم".

جلت بنظري أفتش بين الحاضرين عن ليلى، أظن بأني رأيتها عندما أضاءوا المكان ثم اختفت بعد ذلك.

سارة تجلس إلى طاولة محايدة وتبدو كأنها تعاني من مشكلة ما وطلال يجالسها بصمت. عمر وسليم وتمارة يستكشفان المكان وعلامات الدهشة والانبهار بادية على محياهم. ورينا بقربي تراقبهم وتضحك على تصرفاتهم الصبيانية.

تركتهم يستكشفون المكان على راحتهم وتوجهت نحو المنزل أفتش عن ليلى ، دخلت من الباب الخلفي الذي يقود مباشرة إلى المطبخ لأفاجأ بها جالسة إلى الطاولة وكأنها تبكي ، نقف قلبي ذعراً مقلّصاً معدتي لحالتها فأسرعت اليها أسألها "ليلى ما بك؟... لم تبكين؟ لقد أخفتني! أرجوك أخبريني ماذا هناك؟"

التفتت الي هي الاخرى مذعورة من تواجدي المفاجئ ورائها فوقفت عن الكرسي آخذةً إيّاي بين أحضانها مرددة بصوتها المرتعش الباكي :

"لن أحتمل بعدك عني،... لن ترحلي أليس كذلك، لن تتركي هذا المنزل وتتركيني"

"ولكن، لم تقولين هذا؟ بالطبع لن أرحل، ولمَ سأرحل؟ فأنتم عائلتي وكل ما أملك في هذه الدنيا. وأنا أحبكم جميعاً دون استثناء" حضنتها بقوة لأشعر بألمها وخوفها وطيبتها

”هيا، فالجميع في انتظارنا في الخارج، وأنا لن أحتفل بعيد ميلادي إلا إذا كنت أول الحاضرين هناك، وعلى فكرة" رفعت رأسها تناظرني بعينيها الحمراوتين الدامعتين بتساؤل "أشكرك جداً على كل ما فعلته لأجلي، وكل ما حضرته من مأكولات وحلويات، أنت رائعة جداً، وأنا أحبك كثيراً كثيراً، وحتى لو أتى يوم ورحلت عن هذا المنزل فلن أنقطع عن زيارتك والسؤال عنك أبداً"

ضحكت عيناها وسط الدموع وقالت "حسناً، اذهبي إلى أصدقائك، سأغسل وجهي وألحق بك"

****

يبدو أن الحفل بدأ بدوني، إذ الموسيقى تعلو في أرجاء المكان، والكل يستمتع بوقته، وطالما أن جميعهم بذلوا كل هذا المجهود لإسعادي، فالطريقة الوحيدة لرد الجميل هي أن أستمتع بوقتي معهم.

الجميع يرقص، ما عدا طلال وسارة، مازالا على حالهما كما تركتهما منذ قليل ، أمرهما غريب هذان الإثنان ، ذهبت إليهما .

"مرحبا سارة، كيف حالك"

التفتت نحوي تناظرني بغرابة ، لم أستطع إستيعاب مغزاها وإذ بطلال يقف من مكانه قائلاً

"هل لي برقصة مع صاحبة عيد الميلاد؟" رفعت حاجبي بتساؤل رامقةً سارة بطرف عيني وعندما وجدتها منشغلة بعدم مبالاة بهاتفها ومأت له منقادة ورائه إلى حلبة الرقص

إبتسمت يتأملني بتفحّص ليهمس "حتى بعينيك المرهقتين والحزينتين، تبدين رائعة الجمال والأناقة"

أخجلتني كلماته الرقيقة لأشعر بموجة حارّة تجتاح وجنتي،أشحت بنظري عنه قائلة:

"شكراً لك طلال، لكل ما فعلته من أجلي حتى الآن ولأنك دعوت أصدقائي وحضرت لهذه الحفلة، إنها حقاً مفاجأة جميلة جداً"

أجابني بتفاخر:"أقيمت هذه الحفلة لزرع الفرحة في قلبك الحزين، وما نفع الأصدقاء إذا لم يشاركوك فرحتك هذه، أليس كذلك؟"

"نعم، هذا صحيح"

إتحدّت نظراتي للحظة بنظرات سارّة التي كانت تراقبنا بنظرات ثاقبة وكأن هناك ناراً مشتعلة بداخلها مؤكدّة لي أن هناك خطبٌ ما ، فلم أستطع تمالك نفسي عن سؤال طلال :"أهناك خطب ما بينك وبين سارة؟"

رمق سارة بطرف عينه مجيباً "لا تشغلي بالك بنا، إنها مسألة بسيطة وسنتخطاها ان شاء الله"

"لا تبدو لي مسألة بسيطة، إذ يبدو أن سارة ستفقد أعصابها في أي لحظة من الآن،" قلت ممازحة

"أرجو أن لا تفعل" أجابني ضاحكاً معيداً إنتباهه إلى سارة وكأنّه يترقب ثورتها بأي لحظة .

"أهناك شيء ما يمكنني فعله لأجلكما؟... أرجوك لا تتردد في السؤال"

هزّ برأسه يناظرني بإمتنان "يمكنك أن تفكّي أسري وتعيديني إليها"

يبدو أن المشكلة بينهما كبيرة وجدّية، إذ نظرات سارة الحادة لم تتبدل وهي تراقبه يعود إليها، حتى أنها لم تبتسم له عندما اقترب مقبّلاً وجنتها جالساً بقربها يحتضنها برفق .

غيّر عمر الموسيقى الهادئة بموسيقى صاخبة ودعا الجميع إلى التصرف بجنون قائلاً:

"هيا يا شباب فنحن هنا لنمرح ونتصرف بجنون، فلنفقد أنفسنا قليلاً"
ويبدو أنه فقد نفسه كلياً إذ باشر بالقيام بحركات بهلوانية مضحكة ، أمسك بيد رينا وراح يراقصها على وقع الموسيقى الصاخبة، تركته وهي تنعته بالمجنون وسرعان ما انضم سليم وتمارة إليه، وقررت أن أنضم إليهم بدوري. أمسكت بيد رينا وقلت لها:

"هيا، لن يضرنا القليل من الجنون"

سحبتها معي إلى الحلقة ورحنا نرقص دون الاكتراث لمن يراقبنا أو يعلق على تصرفاتنا. لمحت ليلى تراقبنا وتتمايل دون وعي منها على وقع الأنغام والفرحة تعلو وجهها، فرحتها بعثت الفرحة في قلبي.

غادر طلال وسارة المكان ليعود طلال بعد فترة قصيرة وحيداً متجهم الوجه وكأن شيئاً ما حصل بينهما ولكنه رسم إبتسامةً على محياه محاولاً موارات مشاعره عنّي لحظة وجدني أراقبه بحزن وقلق ، وضعه يقلقني ، ماذا يحصل بينهما يا ترى .

توجه مباشرة إلى طاولة الطعام، ملأ طبقه منها وعاد إلى طاولته يأكل مدّعياً بأن كل شيئ على ما يرام معه.

عند الثانية عشرة تماماً، أتت ليلى بقالب الحلوى والشموع عليه مضاءة، وضعته في وسط الطاولة حيث تجمعنا حوله ليبدأ الجميع بالغناء.

جلت بنظري حول الطاولة،أفتش عن ضالّتي ، فالجميع هنا ما عدا إيان، وفي هذه اللحظة بالذات شعرت بالاشتياق الشديد لوجوده ، أفتقده كثيراً وافتقد وجوده معي وأمامي يغني متمنياً لي عيداً سعيداً. افتقدت والدي أيضاً الذي لم يفوت عيد ميلاد لي من قبل، فها هما أكثر شخصين عزيزين على قلبي قد فوتا عيد ميلادي الثامن عشر. رسمت إبتسامة زائفة وأطفأت الشموع حيث انطفأت معها فرحتي.

****

استيقظت متأخرة اليوم، ورحت أركض حول الغرفة أستعجل نفسي فطلال في الأسفل ينتظرني ليقلّني إلى الجامعة.

استقبلتني ليلى عند المدخل وهي تحمل فطيرة وكوب عصير.

"آليلى، أنا على عجلة من أمري، لقد تأخرت كثيراً."

"على الأقل خذي الفطيرة وكليها في السيارة، لن أدعك تذهبين دون فطور"

أخذت الكوب من يدها، شربت منه جرعة طويلة وأخذت الفطيرة من يدها وركضت مسرعة إلى السيارة.

"يبدو أنك تأخرت حتى نمت البارحة" استقبلني طلال بسؤال.

"صباح النور، وأنت يبدو أنك لم تنم منذ البارحة"

حدق بي يهزُّ برأسه ولكنّه لم يعلق على تعليقي تهرُّباً من الوقوع بفخّي وأنهال عليه بالأسئلة حول مشكلته مع سارة .

أدار محرّك السيّارة وانطلق بها مسرعاً، علّه يوصلني دون تأخير.

"لم رحلت سارة البارحة باكراً، ودون أن تودعني؟ ماذا حصل؟"

أجابني دون تردد وكأنه كان يتوقع سؤالي :

"أعتذر منك عن تصرف سارة، ولكنَّها تعاني من مشكلة شخصية أثّرت على مزاجها البارحة ؟"

" أرجوك أخبرني إذ كنت أستطيع مساعدتها في أي شيئ ، وأنت كذلك الامر ، إذ كنتما تعانيان من مشكلة ما لا تتردد في طلب مساعدتي ، فأنا بنت وأفهم مشاكل البنات أكثر منك "

أخذ نفساً عميقاً ممرراً أصابعه بين خصلات شعره قائلاً:

"لن تستطيعي فعل شيء، فأنا أعرف سبب الخلاف الذي هو انعدام الثقة بيننا،

وطالما هي تعاند على رأيها ولا تريد تصديق كلامي من دون تقديم البراهين فهذه مشكلتها وليست مشكلتي."

****

مضى باقي النهار بسرعة، وبعد انتهائي من الدوام ذهبت مباشرة إلى المقهى حيث نجتمع دائماً، يبدو أنني أول الواصلين، اخترت طاولة تتسع لنا جميعاً وجلست أنتظر حضورهم. بعد فترة بدأت الطاولات تمتلئ والضجة تعم المكان، ثم رأيت رينا تطل من الباب وهي تفتش عن أحد منا، أشرت لها بيدي كي ترى مكاني:

"مرحباً... آ، الحمد لله أنك هنا" قالت وهي تجلس "كنت خائفة من أن لا نجد طاولة شاغرة" نظرت حولها تتسائل "ولكن أين الجميع؟"

"لا أدري... لم أجد أحداً عندما أتيت"

"وأنت كيف حالك اليوم؟ لا يعجبني حالك إذ تبدين مرهقة وشاردة"

فاجأني سؤالها، أإلى هذه الدرجة معاناتي واضحة للعيان ولكنّي لست مستعدة بعد للتحدّث إليها عن إيان ومشاكلي معه فأجبتها بقليل من الحقيقة:

"أنا بخير، ولكن أفتقر إلى النوم، لقد كنت منشغلة بمشروع كان عليّ تقديمه اليوم"

بدت متوترة وتتصرف بغرابة تراقبني بطريقة غريبة وكأنها تريد قول شيء ما ولا تعرف كيف تبدأ لتقول بتردد:

"لاحظت أن والديك لم يكونان في المنزل البارحة، هل هما مسافران؟"

حدّقت بها متفاجئةً من سؤالها الغير متوقع ، نعم البارحة إفتقدت وجود أعز ثلاث أشخاص لي بحياتي أمي وأبي وإيّان ، غيابهما أنقص فرحتي وأحزنني كثيراً .

"أرجوك اعذريني على سؤالي، لست مضطرة للإجابة عنه، إنه سؤال سخيف وما كان يجب أن أطرحه عليك"قالت ممسكةً بكفّي تقول بصوت هادئ حنون يجوبه الندم ، وكأنها شعرت بأنّ سؤالها لي أحزنني كثيراً

ابتسمت لها مطمئنةً " لا تعتذري أرجوك، لم يزعجني سؤالك بل أعاد إلي ذكريات حزينة، نحن أصدقاء ويحق لك أن تسألي"

أخذت نفساً عميقاً مردفةً " توفيت أمي بعد ولادتي بفترة قصيرة، وتوفّي والدي منذ سنتين بسبب أزمة قلبية. ومنذ ذلك الحين وأنا أعيش حيث زُرتني البارحة، إنه ليس منزلي، بل منزل الرجل الذي تركني والدي في عهدته قبل وفاته"

بدت متفاجئة من كلامي متأثرةً بقصتي"أنا آسفة نور، لم أتوقع أبداً أن يكون هذا جوابك، ولكن ألا يوجد عندك أقارب؟"

"لا... أمي أسترالية الجنسية والهوية وعائلتها تعيش بين كندا وأستراليا ، لا أعرف عنهم شيئ، وعائلة والدي كلها في كندا ، وفِي الحقيقة لم يكونوا راضين عن زواج والدي من أجنبية فرفضوا إستقبالي بعد وفاة والدي "

"هذا صعب، أن تعيشي في بلد لا أقارب لديك فيه ولكن يبدو أن العائلة التي تعيشين عندها تحبك كثيراً وتهتم لأمرك. بدا ذلك واضحاً البارحة"

"نعم، إنهم رائعون، وأحبهم كثيراً"

أتت باقي الشلة دفعة واحدة يحملون القهوة و قطع الكيك لتعلو أصواتهم دُفعةً واحدة ، تركوني عاجزة عن التركيز مع أحد منهم فأخذت قهوتي أرتشفها وأنا أراقبهم والحماس يعلو وجوههم، وما جعلني أستمتع في جلستي معهم كثرة المواضيع التي طُرحت من اللحظة الأولى التي جلسوا فيها. المال، الجمال، العائلة، الحب، الفتيات والفتيان وكلٌ يعطي رأيه ويفتح موضوعاً آخر وهكذا.

"أنظري رينا، إنه آدم" صاحت تمارة مشيرةً إليه تدعوه للانضمام إلينا.

إقترب أدم يراقبني من بعيد ، نظراته ثاقبة واثقة وكأنه متجهٌ نحو هدفه ، جلس بيني وبين رينا يحيّ الجميع :

"كيف حالكم شباب، يبدو أنكم لا تضيعون وقتكم"

أجابه سليم "وأنت على غير عادتك، ألا يجب أن تكون في قاعة المحاضرات. ماذا تفعل هنا؟"

جال آدم بنظره حتى وقع عليّ قائلاً بمعنى مبطن " لست هنا من أجلكم"

أشعرتني نظراته بالقشعريرة ، وكأن موجة باردة اعترتني مجمِّدةً عروقي. ادّعيت بأني لم أفهم مقصده لامحةً رينا التي تراقبنا باستمتاع. ماذا تخطط هذه المجنونة، أيعقل أنها تحاول أن تجمع بيني وبين أخيها. إنها فكرة سيئة وفاشلة.

"عيد ميلاد سعيد. اليوم عيد ميلادك أليس كذلك؟"

قال آدم مقدماً لي قطعة حلوى.

حدّقت برينا وأنا لا أعرف ماذا أفعل أو أقول وكأن لساني عُقِد. أجبته بتوتر:

"نعم، شكراً لك"

أخذت هاتفي وأرسلت رسالة قصيرة إلى طلال أطلب منه فيها القدوم لأخذي من الجامعة ورحت أقلب بصفحاته علّي أشغل نفسي عنه ولكن يبدو أنه مصر على محادثتي:

"أكل شيء يسير على ما يرام في محاضراتك؟ أرجوك لا تترددي في سؤالي إن احتجت إلى أي مساعدة"

رفعت نظري عن الهاتف إليه مبتسمة وأجبت "شكراً على اهتمامك. فالأمور حتى الآن تسير بسلاسة، ولا أواجه صعوبة في أي مادة."

رفع حاجبه وأجابني بحماس "هذا جيد، يبدو أنك طالبة ذكية"

ضحكت على تعليقه وقلت "نعم ... يبدو كذلك"

يبدو أن إجابتي وتّرته قاطعةً عليه الطريق، إذ مرر يده على شعره الكثيف وضحك بخجل. ضحكته جذّابة برزت ملامحه بشكل ملفت وغامض، وجدتني أتأمله دون أن أشعر، لا يوجد عنده علامة فارقة تميّزه ولكنه بلا شك يتمتع بشخصية جذابة ككل.

أنقذني رنين هاتفي من إطالة النظر إليه، إنه طلال يخبرني بأنه في الخارج بانتظاري. جمعت أغراضي واستأذنتهم للرحيل.علّقت رينا على رحيلي متذمرة:

"ولكن لم العجلة، فنحن نستمتع بوقتنا، ابقي قليلاً بعد"

"لا أستطيع، طلال في الخارج بانتظاري، أراكم غداً إن شاء الله"

ثم تركتهم خارجة بخطى سريعة وإذ بآدم يستوقفني أمام المقهى قائلاً:

"المعذرة، لن أُأَخرك ، أردت فقط أن أستأذنك في أخذ رقم هاتفك من رينا كي أستطيع محادثتك في وقت لاحق"

أحرجني سؤاله وفاجأني ولكن نظراته الخجولة تركتني عاجزة عن رفض طلبه والتصرف بوقاحة، لمحت طلال يراقبنا عبر نافذة السيارة فأجبته دون مقدمات:

"حسناً، لا مانع عندي، أراك لاحقاً" وانصرفت هاربة من أمامه ومن نظرات طلال له المتفحصة .

الفصل السادس

"إلى أين؟" سأل طلال وهو يخرج من حرم الجامعة.

"ما رأيك في أن تتصل بسارة ونأكل سوياً في مكان ما"

"لا أظن بأنها فكرة جيدة"

"قلت بأنك ستكلّمها اليوم وتحل مشكلتك معها"

"لا تشغلي بالك بهذا الموضوع، سأحلّه عندما يحين موعده... من هذا الشاب الذي كنت تتحدثين معه؟"

أجبته بفتور "من... آ...إنه آدم، شقيق رينا"

"ماذا يريد منك؟" سأل بجفاء

هذا ما كان ينقصني، وكأن إيان لا يكفيني، آ، ربما أعطى مهمته لطلال في غيابه ، أغضبتني نبرة صوته المتسلطه فأجبته حانقة :

"إنه معجب بي، يريد رقم هاتفي، ويريد مساعدتي في دروسي، وقريباً سيطلب مني أن أكون حبيبته... أتكفيك هذه المعلومات للآن أم تريد المزيد..." أجبته ساخرة

سألني بنفس الوتيرة المزعجة التي تثير غضبي البرودة والجدية: "وأنت، ما رأيك به؟"

رمقته بسخرية لا أصدق سؤاله ، إنّه يعرف حقيقة مشاعري لإيّان ، وهل يظن بأنّي سأنساه هكذا بسهولة والجأ لآخر "حقاً.. أنت حقاً تسألني عن رأيي به؟ يبدو أن مشكلتك مع سارة أثّرت على رجاحة تفكيرك، لا أظن بأني قادرة على تحملك هكذا"

رغم كلّ ما قلته، بقي صامتاً شارداً بارداً ، غير عابئ لثورتي ، يبدو أن مشكلته مع سارة جدية أكثر مما توقعت.

"طلال" ناديته بصوت هادئ "لم تكابر على نفسك، وتحاول جاهداً إخفاء ألمك؟؟... أرجوك ثق بي ودعني أحاول مساعدتك فأنت وسارة معاً منذ سنوات وعلاقة دامت هذه الفترة يجب أن تنتهي بالزواج وليس الفراق"

نخر ساخراً "علاقتي بسارة انتهت نور، ولا أظن بأن هناك مجالاً لإصلاح الأمور."

صعقني إعترافه ، هل هو جاد؟؟!! هل سيستسلم هكذا وبكل سهولة ؟! شعرت بأنه يجب أن أفكر شيئاً ما لإنقاذ هذه العلاقة وبأي ثمن .

أطفأت هاتفي وسألته مدّعيةً الانزعاج "أي طلال، فرغت بطارية هاتفي وأحتاج إلى محادثة رينا بأمر ضروري، أتسمح لي بهاتفك؟"

أعطاني هاتفه بكل براءة غير دارٍ بما سأفعله، نقلت رقم سارة من هاتفه إلى هاتفي واتصلت بها، ردت من الرنة الثانية.

"ألو... مرحباً سارة"

تغيرت ملامح طلال في اللحظة التي ذكرت فيها اسم سارة فجأرني بحنق شديد، ولو بإمكانه أخذ الهاتف من يدي لفعل. ولكنه اكتفى برمقي بإستنكار شديد غير راضٍ عن فعلتي .

"أهلا" ردت سارة ببرود.

"آسفة إذا كنت أزعجتك، فأنا أتصل لأدعوك إلى العشاء، لقد انشغلت يوم عيد ميلادي بأصدقائي ولم أنتبه إليك تغادرين، أخبرني طلال بأنك واجهت أمراً طارئاً جعلك ترحلين على عجلة"

ساد الصمت على الجهة الثانية من الهاتف لفترة ثم قالت:

"أعتذر لرحيلي بهذه الطريقة، وأعتذر عن عدم مقدرتي لحضور العشاء"

"لا... لن أقبل اعتذارك، ألا يكفي أنّك فوّتّ الحفلة، أرجوك لا ترفضي طلبي، سأكون سعيدة بحضورك"

سكتت مجدداً وكأنها مترددة بإتخاذ قرارها لتجيب أخيراً "حسناً، ... سأحضر عند الثامنة. أيناسبك؟"

"رائع، إنه وقت تقديم العشاء، سأكون بانتظارك"

ارتفع صوت طلال في اللحظة التي أقفلت فيها الخط

"أيعقل هذا! لم فعلت ذلك؟ أنت تتصرفين كالأطفال"

أجبته بحدّة "وأنت تتصرف كرجل عجوزٍ كهل"

"مشكلتي مع سارة تخصّني أنا وهي، لا يحق لك التدخل بهذه الطريقة ودون رغبتي"

"لم؟... أستقول لي لأني صغيرة وغير ناضجة وغير قادرة على مساعدة صديق أحبه وأحترمه ولا استطيع رؤيته يتألم"

"لا... لن أقول هذا، بل سأقول إن هذا الصديق لا يريدك أن تدخلي في متاهات الغير وتتعرضي للإهانة أو الأذية بسبب مشاكل الآخرين"

"لا يعقل.. لا يعقل" إجابته جعلت الدم يفور في عروقي

"أنت وإيان، في بعض الأحيان أشعر بأنكما روح واحدة في جسدين منفصلين، ما سبب كل هذا الخوف عليّ؟ وكأني فراشة ستتكسر أجنحتها من نسمة هواء عليلة، لم كل هذه الحاجة إلى حمايتي؟ أنت وهو ما بكما؟ ما هي مشكلتكما؟"وجدتني أصرخ بالكلمات والحيرة تتآكلني.

أجابني محاكياً نبرة صوتي وعصبيتي:"ربما لأنها الطريقة الوحيدة التي نراها مناسبة للتعامل معك. ألا ترين نفسك وكأنك تمشين معصبة العينين نحو الهاوية دون تردد أو خوف"

"عن أية هاوية تتحدث؟ حبّي لإيان، أو مساعدتك في حل مشكلتك مع حبيبتك. وإذا كنت أجرّ نفسي إلى الهاوية فهذا لأنكما قد سبقتموني إليها" حدّقتُ إلى عينيه اللتين تستشيطان غضباً وقلت بسخرية "في الحقيقة أنا لا أقوى على فراقكما"

أوقف السيارة أمام القصر وهو يرمقني بنظرات غريبة لم أستطع تفسيرها، إذ شعرت بأنه يحاول جاهداً ضبط نفسه عن الضحك وقال: "هيا انزلي، علي العودة إلى المكتب"

****

قدمت ليلى العشاء في الحديقة الخلفية، الرائحة شهية والأجواء رومانسية والنسيم هادئ وعليل.

رغم كل هذه الأجواء إلا أنها لم تؤثر على مزاج طلال وسارة الذين يأكلان بصمت، حتى أنهما يتحاشيان النظر إلى بعضهما البعض منذ جلسنا إلى الطاولة.

قلت محاولة تلطيف الأجواء "للطعام لذة خاصة في هذه الأجواء الرومانسية والهادئة"

"الأجواء الرومانسية" ردت سارة بسخرية "لمن؟"

قاطعها طلال بنبرة حادة "كفى سارة، نحن هنا لمحاولة إصلاح الأمور وليس العكس"

"وبأي طريقة تريد إصلاح الأمور؟ هل أخبرت نور عن سبب مشكلتنا؟"

"أنا لا أعرف شيئاً" أجبتها ببراءة "طلال لم يخبرني بشيء ولكني شعرت بأن هناك خصامٌ بينكما. أرجوك سارة مهما كان السبب فهو لا يستحق منك العناد والفراق"

بدت سارة وكأنها تحاول جاهدة إبقاء نفسها هادئة، إذ تبدو كبُركان هائج سيثور في أي لحظة. ثم قالت بعصبية وهي تشير بإصبعها نحوي:

"يحق لها أن تعرف، طالما هي أساس المشكلة، أليس كذلك؟"

فاجأني كلام سارة مرسلاً موجة باردة حول المكان جمّدت الدماء بعروقي ، ماذا تقول؟ كيف أكون أنا سبب المشكلة التي بينهما؟ ماذا يحصل هنا؟

سكت طلال لبرهة وهو يحاول التحكم بغضبه الذي ظهر للعيان ثائراً هائجاً ليلكم الطاولة أمامه فاهتزّت لإثرها الأكواب والصحون قائلاً بصوت حانق "سارة... إن الطريق الذي اخترت سلوكه لن يعيدك أبداً إليّ... أبداً سارة"

"ماذا يحصل هنا؟" وجدتني أصرخ بهما لأثير انتباههما. فها هما يتشاجران على مسألة، يبدو أنها تخصني وأنا لا علم لي بها.

"ماذا يحصل؟ لم أنا سبب المشكلة التي بينكما؟ أجبني طلال؟"

جأر طلال سارة مطولاً وكأنّه يتوعد لها بصمت ،ليقول مفترساً إيّاها بنظراته الثاقبة المعاتبة، بدا غاضباً جداً، إنها المرة الأولى التي أراه فيها بهذه الحالة:

"لا شأن لك بالمشكلة نُور ، سارة تتوهّم بعض الأمور. أرجوك هلّا تركتنا وحدنا قليلاً" سألني دون أن يرفع نظره عنها.

لتجيب الاخيرة بعناد "لن ترحل قبل أن تخبرها... أم أخبرها أنا؟"

صرخ طلال بوجهها "سارة" محاولاً كتم صوتها، ولكنها رغم ذلك نطقتها دون تردد:

"إنه يحبك" ضحكت بسخرية وتابعت "وعندما أنكر ذلك، خيرته بيني وبين البقاء هنا في هذا القصر بقربك، فاختار البقاء"

نزلت كلمات سارة كالصاعقة عليّ وكأن موجة جليدية اجتاحت المكان فجمّدت الدماء في عروقي تركتني عاجزة عن فعل أي شيء. ماذا تقول؟ أجُنت هذه المرأة؟ أإلى هذه الدرجة أعمتها الغيرة. نظرت إلى طلال لأراه يحاول إلتقاط أنفاسه بصعوبة مشدداً على قبضته بعنف حاثثاً نفسه أن لا يقوم بعمل متهوّر لأسمعه يقول بهدوء وثقة تامّين يناظر سارة بتحدّي:

"نعم... أنا لا أنكر أني أحبها... أنا أحبها أكثر من أي شيء في هذا الوجود، أهتم لأمرها ومستعد لفعل أي شيء من أجلها... حبي لها لا تعرفينه سارة ولن تعرفيه أبداً. أتعرفين لماذا؟ لأنك لا تعرفيني" أخذ نفساً عميقاً وتابع "من المؤسف جداً أنك بعد كل هذه السنوات لم تعرفي هذا الرجل الذي أحبك وأحببته، لم تعرفي حدود مشاعره وعواطفه، ولم تعرفي أن هناك بعض الأشخاص في حياته لا يمكن استبدالهم أبداً، حتى بك. أنت سألتني مغادرة هذا المنزل، لم تسأليني مغادرة نور فقط، بل إيان كذلك الأمر وهذا شيء لن أفعله أبداً.

ونور... وجودها في حياتي عوضني حرماناً مزروعاً في قلبي منذ الصغر، حبي لها حب فطري، دائم ولا تتغير حالته مهما طالت بنا السنين، إنه حب أخ لأخت فقدها مراهقاً بسبب مرض فتاك قضى عليها سريعاً ورحلت تاركة فراغاً كبيراً وعميقاً في قلبي وحنيناً دائماً إليها.

وجود نور في حياتي ملأ هذا الفراغ وجعلني بحاجة إلى حمايتها ورعايتها وعدم خذلانها أبداً مهما كانت الأسباب." ثم ناداني "نور"

نظرت إليه والدموع تتلألأ في عيوني وقال:

"لقد سلبت مكان حنان منذ اللحظة الأولى عندما رأيتك وأنت بانتظاري ذلك اليوم حين رحت تحاولين عبثاً سحب حقائبك لوضعها في صندوق السيارة. رأيتها في عينيك الحزينتين الدامعتين لفراق والدك، ومنذ تلك اللحظة أسرتني وجعلتني أراها في كل مرة أراك فيها."

******

أنهيت فطوري وخرجت مسرعة، طلال بانتظاري في السيارة، ليلة البارحة كانت مشحونة بالعواطف والاعترافات، لا أعرف ماذا حصل بعد أن تركته مع سارة وحدهما بعد العشاء علّهما يتوصلان إلى حل لمشكلتهما. دخلت السيارة لأجد طلال متكئاً على مقود السيارة وكأنه يحاول أن يغفو قليلاً، رفع رأسه عندما أغلقت باب السيارة، التعب والإرهاق باديان على محياه، أدار محرك السيارة بتكاسل وانطلق.

سألته بقلق:

"كيف حالك اليوم؟ هل أنت بخير؟"

"أنا بخير، لا تقلقي"

"لا أرى أنك بخير، يبدو أنك لم تنم منذ البارحة، كان بإمكان رياض أن يقلّني، وأنت بقيت في المنزل لترتاح"

"لا أظن بأن إرسالك مع رياض فكرة سديدة"

أجبته مستهزئة من جوابه:"معك حق، ربما يخطفني، أو يرميني في الغابة، أو يأكلني"

"كفى استهزاءً، لست بمزاج لأستمع إليك"أجابني بنبرة مرهقة

"ماذا حصل مع سارة؟ ألم تتصالحا البارحة؟"

"أنا وسارة بحاجة إلى بعض الوقت لتقييم المشكلة ورؤية كيف يمكن أن يصطلح الوضع بيننا"

يبدو واضحاً أنه لا يريد التحدث عن سارة ، لا أعرف ماذا حصل بينهما البارحة، ولكن يبدو أنني لم أساعد كثيراً .

"أنت لم تتحدث أبداً عن أختك حنان. لم أكن أعرف بوجودها قبل البارحة"

أجابني وعيناه تراقبان الطريق أمامه:

"إنها ذكرى أليمة وعزيزة على قلبي، لا أحب مشاركتها مع أحد."

"أنا ممتنة لك كثيراً إذ تعتبرني بمثابة أختك التي تحبها وتخاف عليها"

ابتسم لأول مرة منذ ركبنا السيارة مجيباً بحب خالص "لست أنا من وضعك مكان حنان، بل أنت وضعت نفسك ودون رادع مكانها. لا تستخفي بقدراتك نور، فأنت تملكين سراً مجبولاً بشخصيتك يملكه قلّة من الناس، وهو إجبار كل من يراك ويعرفك على عدم القدرة لمقاومة جاذبيتك وشخصيتك وروحك. لذا، فأنت تُعدّين من أخطر المخلوقات على وجه الأرض"

كلامه أثّر بي كثيراً ، أنا كذلك الامر أحبه وأحترمه كثيراً وأعتبره الأخ الذي لم ولن أحصل عليه أبداً

علّقت على كلامه ضاحكةً " أخطر المخلوقات على وجه الأرض، إنه لشيء مخيف"

"أريد تعلم قيادة السيارة، عندها لن تكون مجبراً على مرافقتي أينما أذهب ويصبح بإمكاني أن آتي إلى الجامعة بنفسي"

"هذا أمر عليكِ مناقشته مع إيان وليس معي، ولكني أنبهك منذ الآن أن لا تتأملي كثيراً"

"ولم؟" أجبته بعصبية "أنا لم أعد تحت وصايته، وبإمكاني أن أتصرف وأشتري ما أريد، لا أحتاج إلى موافقة أحد منكما. غداً سأفتش عن وكالة لتعلم القيادة وسأشتري لنفسي سيارة"

رفع حاجبه وقال ساخراً:"ومن أين ستأتين بالمال؟"

أجبته بثقة وتعالٍ: " سأطلب من إيان تسليمي حصة والدي لأكون المسؤولة عن كل ممتلكاته. ربما عندها لن يراني هذه الفتاة الصغيرة والمسؤولة منه"

ضحك بسخرية أثارت حنقي " تريدين منه أن يراك فتاة ناضجة، إذاً تصرفي على هذا الأساس"

"وماذا تراني أفعل؟"

"أراك كالطفل الذي كان مريضاَ ومحروماً من أكل الحلوى، وعندما شُفي راح يتناول الحلوى دون وعي أو تخطيط"

ألقيت إليه نظرة استهزاء وقلت: "حقاً... هذا سخيف"

رن هاتفه في اللحظة التي أوقف فيها السيارة أمام الكلية، لم يُجب بل اكتفى بإلقاء نظرة إلى هوية المتصل منتظراً نزولي، إنه بالتأكيد إيان، سألته مرتبكة:

"إنه إيان أليس كذلك؟ متى سيعود؟ أرجوك قل له أن يعود، فأنا أبداً لن أكرر ما فعلته، ولن أدخل غرفته دون إذنه، ولكن اسأله أن يعود"

"لن يعود قبل نهاية الأسبوع" أجابني ببرودة "ولست أنت سبب سفره، بل العمل. هيا انزلي، وإلا تأخرت على محاضراتك"

****

العودة إلى المنزل هي اللحظة الأصعب في كل يوم، إذ المنزل يبدو فارغاً بغياب إيان ويذكرني بالفراغ الذي تركه في قلبي.

لم يتصل بي أبداً أو يسأل عني طوال فترة المنصرمة. وضعت رأسي على الوسادة أحاول عبثاً أن أنام منذ أكثر من ساعة مضت. غداً أول أيام نهاية الأسبوع، وعودته أصبحت قريبة، لمجرد فكرة عودته تقلصت معدتي وانقبض قلبي، كيف سأواجهه؟ وكيف سيتعامل معي بعد هذا الغياب؟ كلها أفكار وتساؤلات التفكير في إجاباتها يخيفني ويعيد كلام طلال إلى ذاكرتي عندما حذّرني من ردة فعل إيان حيال تصرفاتي.لا أريد أن أستسلم الآن. يجب أن أحارب بكل قوتي في سبيل كسب حبّه خاصة بعد أن أصبحت على يقين بأنه لن يكون لحياتي معنى من دونه أبدا. فغيابه يؤلمني ويضعفني ويجعل حياتي بلا أمل ولا هدف.

****

أطلت شمس الصباح ساطعة من الفتحات الضئيلة بين أطراف الستائر، إنها الحادية عشرة.

لا أريد قضاء نهاري في المنزل بل سأتدبر مشروعاً أقوم به خارج جدران هذا القصر. أريد تعلم قيادة السيارة، فأنا كنت جادة عندما قلت هذا لطلال.

بدلت ملابسي ونزلت قاصدة المطبخ لأُفاجأ بزائرة عندنا، هل يعقل ، هل لحق طلال وإستبدل سارة بهذه السرعة، وقفت عند الباب أراقبها

امرأة طويلة القامة، نحيفة وسمراء، شعرها بني طويل، أنيقة ترتدي تنورة قصيرة سوداء وقميصاً أسود، ووشاحاً ملوّناً حول عنقها، تبدو جذابة وأنيقة. لم أستطع تحديد عمرها إذ تبدو في أواخر العشرينات أو أوائل الثلاثينات. واقفة تنتظر بجانب آلة تحضير القهوة.

وإذ بها تستدير نحوي متفاجئة من وجودي ، حدّقت بي بتساؤل

"مرحبا، عفواً فأنا لم أتوقع وجود أنثى غيري في المنزل . بالطبع عدا ليلى. لم أرك هنا من قبل"

أجبتها ببرودة "عفواً، أنا أعيش هنا، ومن تكونين حضرتك؟"

تغيرت ملامح وجهها متفاجئة من إجابتي "تعيشين هنا! هذا غريب فإيان لم يخبرني عنك، هل أنت قريبته؟"

بدأ الدم يفور في عروقي عندما ذكرَت إيان، أمسكت بطرف الكرسي علّي أخبئ توتري ورغبتي في كسر شيء ما وسألتها بصوت مرتعش:

"عفواً، ولكن من تكونين؟ ومن أين تعرفين إيان؟"

"أنا صديقته، أعيش وأعمل في دبي، ودعاني لقضاء بعض الوقت هنا في بيروت. وصلنا البارحة في وقت متأخر من الليل"

نزلت كلماتها كالصاعقة عليّ مسببةً رعشة رهيبة بأوصالي ، أهكذا يريد إيان معاقبتي. أن يأتي بامرأة إلى المنزل. إنه لفعل دنيء منه ولن أسامحه أبداً عليه.

أصدرت آلة صنع القهوة رنيناً خفيفاً معلنة انتهاء التحضير. سكبَت القهوة بخفة في فنجانها. أخذَت رشفة منه وسألتني وهي تدرس تفاصيلي:

"هل تقربين لإيان؟"

"نعم،... أنا ابنته" لم أعِ إلا والكلمات تخرج من فمي دون تخطيط أو تفكير، ولكن ردة فعلها أشعرتني بالرضى حيال ما قلت إذ فتحت عيناها وفاها منبهرة وقالت بتعجب "ماذا! ابنته!"

ضحِكتُ ضحكة شيطانية وقلت بكل براءة "نعم ابنته، كنت أعيش في كندا، وأتيت مؤخراً إلى لبنان لأعيش معه"

حدّقت بي تراقبني بدهشة، وأنا رميت فتنتي وتوجهت نحو الثلاجة لأجد شيئاً آكله.

قفز قلبي من مكانه عندما سمعت صوت إيّان وطلال قادم من البهو، شهقت لحظة طلّ من الباب أركض إليه من غير وعيٍّ مني مرتميةً بأحضانه . آه لكم إشتقت اليه ، حدّ الموت ، أشعر بروحي تعود إلي دُفعةً واحدة ، شعور رائع لا يوصف ، ورائحته ، تلك الرائحة تقتلني ، تحوّلني إلى ثائرة عابثة من غير قيود

شعرت به متصلباً من مبادرتي ولكنه لم يصدني بل عانقني لبرهة ثم أبعدني عنه بروية يناظرني ببرودة وإبتسامة باهته، تقلَّصت معدتي من نظرته الباردة تلك جارحاً

مشاعري ، أهكذا يستقبلني بعد غيابه الطويل. تركني واقفة عند الباب وتوجه نحو المرأة السمراء، حيّاها وعانقها ثم جلسا معاً إلى الطاولة مع طلال متجاهلاً وجودي التام .

وقفت عند الباب أشعر برغبة شديدة للإختفاء ولا أراه بهذه الهيئة المؤلمة ، إنّه يؤلمني وبشدّة ، وجود هذه المرأة يشعل ناراً بقلبي لا أحتمل وجودها.

"حضرت القهوة. أأسكب لكما؟"

"نعم كاتي، لو سمحت" أجاب إيان، يراقب قفاها يبتعد عن الطاولة متحاشياً النظر نحوي تماماً

التفت طلال إليّ بترقب هامساً "اجلسي" مشيراً إلى الكرسي بقربه .

وقفت للحظات لا أعي ماذا أفعل ولكن جُلّ ما أشعر به هو النار المشتعلة التي تغلي بعروقي ، برغبة جامحة بالانقضاض على تلك المرأة وقتلها نهائياً ، وإيّان كذلك

الامر أشعر بالرغبة الجامحة بالصراخ في وجهه وضربه بعنف شديد ، إنه قاسٍ ليعاقبني بهذه الطريقة المهينة .

جلست وأنا أشعر بأن ناراً موقدة تحتي، بل أشعر بأني حيوان مفترس يتربص فريسته لينقضّ عليها. إنها لعبة دنيئة غير عادلة. أمسك طلال بيدي وكأنه شعُر بما يجول في بالي هامساً:

"اهدئي ولا تقومي بعمل طفولي"

قدمت كاتي فنجان قهوة لإيان وآخر لطلال ثم خاطبتني قائلة:

"لا أعتقد بأنك تشربين القهوة، فأنت ما زلت صغيرة على شربها"

جال إيان وطلال بنظرهما نحونا بتعجب وتساؤل وهي تابعت:

"إنه لشيء جميل أن يكون عندك ابنة عمرها قريب من عمرك. بهذه الطريقة لن تجد صعوبة في التعامل معها"

ازدادت نظرات إيان وطلال تعجباً وتساؤلاً ليسأل إيان:

"عن ماذا تتحدثين؟ أنا لا أفهمك"

"عن ابنتك. أليست ابنتك؟" قالت مشيرةً إلي ،"لقد أخبرتني بأنها ابنتك"

لم أستطع تمالك نفسي عن الضحك،ضحك مليئ بالقهر والظلم ، أبي ، إنّه يظن نفسه أبي وأنا أعشقه بكل ما أملك من جوارح .

غصّ طلال في كوب القهوة خاصّته يسعل بشدّة إذ راح يحاول عبثاً كتم نفسه عن الضحك.

إيان حدّق بي بتساؤل وإستفهام لتظهر إبتسامة شفافة على محياه مباشراً بالضحك كطلال وهي وقفت مصدومة تناظرنا باستفهام.

دخلت ليلى المطبخ لتسأل ضاحكة هي الاخرى وكأن ضحكنا أصابها بالعدوى:"ماذا هناك؟ ماذا يحصل؟"

أجابت كاتي متوترة "لا أدري، ...لا أدري ما الذي يضحككم فيما قلته. إنها ليست ابنتك أليس كذلك؟ في الحقيقة أنا لم أصدق ذلك نظراً لفارق العمر بينكما، يستحيل أن تكون ابنتك، ولكني تساءلت، لم تقول أمراً كهذا إن لم يكن صحيحاً؟ لم تكذب؟"

أجبتها بحدّة "ربما لأنه يظن نفسه كذلك، ويتصرف معي على هذا الأساس"التفتُّ إليه وسط الدموع وسألته " أليس كذلك؟ فأنت بنفسك ضحكت على فكرة أن تكون والدي. أنت لست كذلك، ولست مسؤولاً عني، ولن تكون بعد الآن،سأرحل ، سأترك لك هذا القصر وأرحل ، ولن ترى صورة وجهي أبداً ما حييت "

وقفت عن الكرسي هاربةً من أمامهما، أفتش عن شيء أصب جام غضبي فيه، خرجت إلى الحديقة الخلفية مهرولةً نحو المجهول. أنا بحاجة لأن أصفي ذهني وأهدّئ من روعي.

غاب أسبوعاً كاملاً ليعود برفقة امرأة. ماذا يحاول أن يخبرني؟ ماذا يريد مني أن أفعل؟ هل يريدني أن أستسلم، أفقد الأمل منه، أكرهه؟ لِم يفعل كل هذا؟ لقد مللت منه وما عدت قادرة على تحمل تصرفاته ورفضه لي.

إذا كان هذا ما يريده فليكن. سأجبر نفسي على إكمال حياتي دونه، لنرَ كيف سيتقبل فكرة وجودي مع سواه.

كلما ابتعدت عن القصر، اقترب صوت هدير المياه، إذ يبدو أنني أقترب من النهر المجاور للقصر.

القصر محاطٌ بأسوارٍ إسمنتية عريضة، مؤمنة بأسلاك كهربائية من جميع الجهات وكاميرات المراقبة مزروعة على طول السور.

لم كل هذه الاحتياطات؟ ما الذي يدفعه إليها؟ هل هناك خطر ما على حياته؟ لا بد أن هناك سبباً وجيهاً يجعله يلجأ الى كل هذه الاحتياطات.

هذا الرجل الذي أحب مليء بالأسرار والغموض والرهبة.

استلقيت تحت شجرة صفصاف كبيرة مغمضةً عيناي أحاول الاسترخاء، الهواء عليل يلاعب أغصانها بلطف فتصدر أوراقها حفيفاً يبعث الطمأنينة في النفس.

لو بإمكاني لبقيت هنا وعلى هذه الحال للأبد، بلا حراك ولا تفكير، فقط استمتع بسماع أصوات الطبيعة: من هدير المياه، حفيف الأشجار وزقزقة العصافير. من كثرة الهدوء تهيّأ لي بأني أسمع أصوات الغيوم وهي تسبح في الفضاء.

***

بدأت معدتي تصدر أصواتاً معلنةً الحرب، فأنا لم أفطر، ولا أدري كم من الوقت قد مضى على وجودي هنا.

تفقدت هاتفي بجعبتي لأكتشف بأني تركته بغرفتي، وقفت أتمدّد بجسدي متهيّأة للعودة إلى القصر ، ولكني لا أريد العودة لا أريد رؤية إيان وتلك الغبية كاتي، لن أحتمل رؤيتهما معاً.

***

لم ألبث أن وطأت قدمي حدود الحديقة لأرى طلال قادم نحوي بوجهٍ متجهم مخيف ،اقترب مني بخطى واسعة سريعة يقول بصوت حانق وغاضب:

"أيعقل هذا! أين كنت؟ إننا نفتش عنك منذ فترة ، لم لم تأخذي هاتفك معك؟ تريدنا أن نعاملك على أنك ناضجة وتتصرفين كالأطفال."

صدمتني ردّة فعله وكلامه ، ولكن لمَ يتحدث إلي بهذه الطريقة، أجبته حائرة:

"ماذا حصل؟"

"أتعرفين كم طال غيابك؟ إننا نفتش عنك منذ أكثر من ساعتين"

"كنت في غابة القصر، تحت شجرة الصفصاف القريبة من النهر، لم أشعر بمرور الوقت و..."

"هل وجدتها؟" أتى صوت إيان من خلفي،

التفتُّ إليه لأراه قادماً نحوي والغضب يتملّكه، وقف أمامي يهتزُّ غضباً وأنا في حياتي لم أرى إيّان غاضباً ، لطالما كان متملّكاً من أعصابه لا شيئ يقوده إلى فقدان رباط جأشه

رفع سبّابته في وجهي صارّاً على أسنانه بحنق:"إياك وتكرار هذا مجدداً...، اياك ...وإذا أردت الابتعاد مرة أخرى فأبقي هاتفك اللعين معك. أفهمت؟"

كلماته قاسية وحادة، أرسلت موجة حارة في جسدي تملّكني الغضب على إثرها فأجبته بعصبية:

"وأين يعقل أن أكون؟ فأنا هنا محبوسة في هذا القصر وكأني في سجن، لم أعد أحتمل هذا الوضع، أريد الرحيل، لا أريد البقاء هنا بعد الآن" ورحت أصرخ به "دعني أرحل.... لا أطيق رؤيتك... أكرهك"

صرخ بوجهي محاكياً نبرة وعلوّ صوتي:

"لن ترحلي إلى أي مكان، هذا منزلك وهنا ستبقين"

"إنه ليس منزلي، ولا أريد العيش هنا بعد الآن"

مرّر أصابعه بشعره آخذاً نفساً طويلاً ثمّ نظر إلى طلال بعجز وكأنه يطلب منه مساعدته عليّ وقال:

"لن أتناقش معك وأنت بهذه الحالة، سأفعل عندما تهدئين"

ثم تركني عائداً أدراجه إلى القصر.

لحقت به بنية إجباره على سماعي ومناقشتي لست مستعدّه لإنهاء النقاش بعد. أمسك طلال بذراعي جاذباً إيّاي نحوه مانعاً تقدمي وقال:

"اهدئي، لا تتصرفي بهذه الطريقة، فأنت لم تري حاله عندما فقدناك ورحنا نفتش عنك دون جدوى، لم أره في حياتي كلها بتلك الحالة، لقد أخفتنا جميعاً. "

أجبته وسط الدموع "إنها المرة الأولى التي يصرخ فيها بوجهي،... إنه لا يحبني، لا أريد البقاء هنا، أرجوك طلال ساعدني، أريد الرحيل من هنا"

"أعدك بأن أساعدك، ولكن فقط دعينا نتخطى هذه المسألة بهدوء، أرجوك نور، لمرة في حياتك، نفّذي ما أطلبه منك"

"أحتاج إلى الخروج من هنا، أشعر بأني أختنق، أخرجني من هنا أرجوك"

تلفّت طلال حوله حائراً، لا يعرف ماذا عليه أن يفعل أو كيف يتصرف ، أخذ هاتفه واتصل منه:

"نعم إيان، سأخرج معها قليلاً... لا أدري... لن نتأخر.. حسناً"

أغلق الهاتف وقال: "دعيني أخرجك من هنا هيا"

مسحتُ دموعي وأعطيته يدي.

***

"إلى أين ترغبين بالذهاب؟" سألني وهو يقف عند مفرق الطريق الفرعي للقصر.

"لا أدري، أينما تريد، أي مكان بعيد عن القصر"

توقف بالسيارة عند رصيف الطريق الساحلي ونزلنا أمام محل صغير يبيع المثلجات والعصائر.

سألني : "أتجلسين أم تريدين السير قليلاً؟"

"أفضّل السير"

إنه مكان جميل للسير. إذ الشاطئ قريب من الرصيف ويعجّ بالناس من كل الأعمار والأجناس. منهم من يمشي، ومنهم من يركض أو على الدراجات الهوائية والعائلات والأحباب. سرنا أنا وطلال جنباً لجنب بصمت وبعد فترة اتكأنا إلى حافة السّياج نواجه البحر، سألني "هل هدأت؟"

إلتفتُّ إليه أفكر بِرَدٍّ يصف حالتي فعجزت ، لم أهدأ، بل أشعر بأن الدماء تغلي في عروقي وأشعر بالتعب والإرهاق وبأن أعصابي تلِفَت وما عدت قادرة على تحمل المزيد من كل ما يحصل. أومأت له برأسي وعدت بنظري نحو الشاطئ...

سألته بحسرة تعتصر قلبي: "إنه يفعل كل هذا لأنه لا يريدني، أليس كذلك؟ أتى بها إلى المنزل ليريني كيف هي حياته، وبأنه لا مكان لي فيها"

"حاولت إخبارك مراراً وتكراراً بأنه ليس لكِ ولكنك لم تسمعي. فحبك له أعمى بصيرتك. لا تسيئي فهمه نور. فهو يهتم كثيراً لأمرك. ويفعل ما يفعله من أجل حمايتك وليس أذيتك"

"لا أتحمل رؤيته مع امرأة أخرى، الغيرة تتآكلني، أرجوك طلال أطلب منه أن يدعها ترحل، فليذهب معها، فليرحل، أو يدعني أرحل"

تنهدّ يحيطني بذراعه ، قربني إليه قائلاً:

"هذا لن يحصل، لن ترحلي إلى أي مكان، ودعي إيان لي، سأحاول حل هذه المسألة على طريقتي الخاصة... تعالي فلنذهب لأشتري لك شيئاً تأكلينه، فأنت لم تأكلي شيئاً منذ الصباح"

"لست جائعة، لا أريد الطعام"

"كوب عصير إذاً... هيا لا ترفضي طلبي أرجوك" قال يناظرني بإبتسامة تعلو وجهه منتظراً مني السير أمامه، فابتسمت له بدوري وقلت:

"لا أعرف ماذا كنت سأفعل من دونك طلال، أشكرك كثيراً لدعمك ووقوفك بجانبي في هذه الظروف"

"هذا من دواعي سروري، فأنت لا تعرفين قدر شأنك عندي نور. أنت عزيزة على قلبي، هيا" أحاطني بذراعه ومشى بي نحو محل العصير القريب من السيارة.

***

ذهبت مباشرة إلى غرفتي وأغلقت الباب ورائي، متحاشية رؤية إيان وكاتي. أفكر، كيف سأتخطى هذه المسألة بهدوء؟ كيف سأتصرف بحكمة؟ والغيرة تأكلني، والغضب يتملكني وشعوري بأني سجينة في هذا القصر يقتلني. أشعر بأني عديمة الحيلة وواقعة تحت رحمة إيان من جميع النواحي.

***

الثانية صباحاً وما زلت أتقلّب بالسرير عاجزة عن النوم ، أشعر بضيق نفس وكأن هناك يداً تضغط على عنقي وتمنعني عن التنفس. فتحت الباب وخرجت متوجهة نحو غرفة إيان، توقفت منتصف الطريق ... ماذا أفعل... أيعقل هذا؟ هل أريد أن أرى هذا الشيء؟... لا أعتقد ذلك... تخيفني فكرة رؤيتهما معاً، وانطباع هذه الصورة في ذاكرتي فتسبب لي جرحاً يستحيل علاجه.

غيرت اتجاهي نحو الأسفل. أشعر بحاجة إلى استنشاق الهواء الطلق، خرجت من الباب الأمامي ووجدتني أمشي نحو البوابة الأمامية للقصر، وفجأة اعترتني الرغبة بالخروج من هنا... الرحيل بعيداً... نعم هذا ما سأفعله... سأرحل بعيداً ولن أعود ولن أفكر بإيان وأنساه.

وصلت إلى البوابة لأجدها كالعادة مقفلة، جذبتها بمحاولة فاشلة لفتحها، عبثاً حاولت. ناديت الحراس، لم يجبني أحد، رفعت بصري أقيس إرتفاعها، إنها عالية جداً، ومع

كل هذا قررت أن أتسلقها وأخرج من الجهة الثانية،لن أبقى هنا لدقيقة واحدة إضافية .

وضعت قدميّ الحافيتين عند حافتها وبدأت بالتسلق وبينما أنا عند منتصف علوّها ناداني أحدهم من الأسفل:

"يا الله !! ماذا يحصل هنا؟ إنها الآنسة نور"

"آنسة نور... ماذا تفعلين عندك في الأعلى؟" سألني الحارس الثاني،

ناديتهما من الأعلى "أين كنتما، فأنا أناديكما منذ فترة، أحتاج إلى الخروج من هنا، افتحا لي البوابة"

"أرجوك انزلي، أعلى البوابة موصول بتيار كهربائي سيقتلك إذا لمسته"

أجبته بعناد " لا يهمني، أريد فقط الخروج من هنا، هل ستفتحان البوابة أم أتابع التسلق؟"

علت همهماتهما يتحاوران فيما بينهما ويبدو أنهما لم يتوصّلا إلى إتفاق إذ حمل أحدهما الهاتف واتصل منه والثاني خاطبني قائلاً:

"لا نستطيع فتح البوابة بدون أوامر السيد إيان أو طلال، لذا أرجوك انزلي لنتحدث معهما حول هذا الموضوع."

أجبته بعصبية "وهل أبدو لك كسجينة هنا، أنا هنا بإرادتي وسأخرج متى أشاء، لذا أريد الخروج الآن ولا أريد الانتظار"

هذا ما كان ينقصني، أوامر السجان لفتح هذه البوابة، حسناً منذ اليوم سأفعل ما يحلو لي ولن أرضخ لأوامر أحد منهما، إنها حياتي وأنا حرة فيها.

"ماذا يحصل هنا؟" دوى صوت طلال من الأسفل.

"تريد الخروج وترفض النزول وتهدد بالتسلق إلى الأعلى إن لم نفتح لها البوابة"

هذا جيد أتى السيد طلال، ناديته بمرح:

"هاي طلال... كيف حالك؟ ماذا تفعل هنا؟ هل أتيت لتفتح لي البوابة؟ أشعر بالبرد وما عدت أحتمل، هيا افتح البوابة"

"ما الذي تفعلينه نور؟ ماذا يحصل لك؟ عندما عدنا إلى المنزل كنت هادئة وظننت بأنك اقتنعت بما قلته لك وطلبته منك"

"أريد الرحيل طلال، لا أريد البقاء هنا... ... وإذا كنت سأبقى فتحت شروطي وليس شروطكم"

"حسناً، انزلي وأعدك بأن نتناقش بهذا الموضوع"أجابني وكأنه يخاطب طفلة صغيرة

أجبته بعناد "لقد مللت من وعودك، إذا كان هناك أحد سيعدني بشيء فليكن إيان بنفسه"

علّق أحد الحرس " ماذا يحصل معها؟ ألم تكن ضائعة عند الظهر؟ لم تتصرف بهذه الطريقة؟"

نبر به طلال بحنق"بدل تساؤلاتك السخيفة، فكر بما ستقوله للسيد إيان عندما يسألك عما كنتما تفعلانه بينما كانت حضرتها تتسلق البوابة، إنه إهمال واضح من قبلكما"

إنتابني التعب والارهاق والدم تجمد في عروق يديَّ من شدة الضغط بهما على قضبان البوابة، نظرت إلى الأسفل ووجدت نفسي على مسافة بعيدة نسبياً عن الأرض مما سبّب لي الذعر والفزع

يا الله !!بم كنت أفكر عندما تسلقت إلى هنا، فالنظر إلى الأسفل يسبب لي الدوار والغثيان. البرد قارس وقدماي حافيتان ولا أرتدي سوى بيجامتي الرقيقة، ولكن طالما أني بدأت بما أفعله فلأثبت على رأيي وأتحكم بهما وأجبرهما على القبول بشروطي.

أوقف إيان سيارته عند مدخل البوابة ونزل منها، يرتدي بيجامته، يبدو غاضباً، وقف عند أسفل البوابة وناداني بحزم :

"نور"

لا أعلم ما يسببه لي هذا الرجل، تأثيره علي قوي إذ أخسر إرادتي التامّة بوجوده. منذ لحظات كنت واثقة من صحّة ما أفعله أمّا الآن ، أظن بأني فقدت عقلي لتسلق هذه البوابة الحديدة العالية والمكهربة ،ولكنّي إدعيت القوّة والثقة أجيبه"أهلاً إيّان، فأنا أنتظرك منذ فترة، هيا قل لهم أن يفتحوا البوابة"

ولكنه لم يجبني، بل وجه كلامه إلى الحرس، صوته غاضب ومخيف

"أين كنتما عندما حصل كل هذا؟ هل كنتما نائمين أم تقومان بعمل غبي ألهاكما عن مراقبة الكاميرات؟"

تمتم أحد الحراس قائلاً:

"عذراً سيد إيان، لم نتوقع حصول أمر كهذا، وخاصة من الداخل... كنا نراقب الكاميرات المزروعة خارج البوابة وجدران السور"

هذه أول مرة أرى فيها إيان يتحدث إلى عماله بهذه الطريقة، إنهما خائفان منه، هذا واضح وكل هذا بسببي أنا سيئة.

"منذ متى وهي هكذا؟"

أجاب الحارسان معاً بنفس الوقت: "منذ حوالي ٢٠ دقيقة"

"لمَ لم تتصلوا بي باكراً؟ أتنتظرون حصول أمر مريع لها لإخباري؟"

قال طلال " لا نستطيع فعل شيء سوى إقناعها بالنزول، إذا قطعنا التيار الكهربائي عن أعلى البوابة سيعمل المحول الاحتياطي بعد لحظات من فصل الكهرباء الرئيسية، لذا لا حل لنا سوى اقناعها بالنزول"

"نور، ما الذي تحاولين فعله، لم تتصرفين كالأطفال، انزلي وإلا سأصعد إليك بنفسي لإنزالك" ها وأخيراً تنازل السيد إيان وخاطبني.

"لن أنزل إلاّ عندما تعدني بأنك لن تمنعني من الخروج متى وأينما أشاء، تعطيني الحرية في كل ما أريد فعله،ولا شأن لك بي بعد اليوم، وممنوعٌ عليك إستقبال النساء في المنزل ، أبداً"

"ما هذا، أتفرضين عليّ شروطك كي تنزلي عن البوابة؟" أجابني وكأنه لا يصدق ما يسمعه منّي.

أجبته بثقة "نعم، هذه شروطي لأنزل ولكي تثبت لي حسن نيتك عليك أن تعطي أوامرك الآن لحرّاسك المطيعين بأن يفتحوا لي البوابة عندما أطلب منهم وإلاَ سأرحل إيّان، سأرحل عن منزلك ولن تراني مجدّداً "

"أنا لم أمنعك يوماً عن الخروج، لطالما أعطيتك كامل حريتك وشرطي الوحيد كان بأن لا تخرجي دون مرافق، فقط لا غير"

"لا أريد الخروج مع حارس شخصي بعد الآن، فطلال لديه أعمال أهم من عمله كمرافق لي أينما أذهب"

أجابني طلال معاتباً "وهل اشتكيت لك نور، فأنا أحب مرافقتك ولا مانع عندي بذلك"

"أعرف طلال، ولكني ما عدت أرغب بمرافقتك فقط لأنك مجبر على ذلك"

" اسمعي نور، لقد سمعت شروطك، والآن اسمعي شروطي:

أوّلاً: لن ترحلي الى أي مكان، هذا منزلك ودائما سيكون.

ثانياً: أنا لا أدعك تخرجين وحدك ليس بقصد حبسك أو تقييد حريتك بل بدافع حمايتك وهذا أمر لن أتوقف عن فعله، لذا إذا كنت لا تريدين مرافقة طلال، يمكنني تعيين أحد غيره لتلك المهمّة.

ثالثاً: أعدك بأني لن أمنعك من الخروج أينما ومتى تشائين بشرط وجود المرافق معك وبالنسبة للنساء ، أنا لا أستقبل نساءً في القصر،وإذ كنت تلمّحين على كاثي فأنها مجرّد صديقة مقربة ، لا تربطني بها أيٌّ علاقة أخرى".

" لا أريد كاثي في القصر،لا هي ولا غيرها أبداً ،أبداً " قلت بصوت مخنوق أتذكر ما حصل صباحاً .....

"لك هذا ، إتفقنا ، هيا إنزلي "

وقف ينتظر نزولي وأنا وقفت بدوري أنتظر أحدهم ليطلب منيّ مجدّداً النزول، لا أريد أن أبدو وكأنّي استسلمت بسهولة،هلك التعب والإرهاق والبرد أوصالي وإذ بإيّان يسألني مجدّداً بغضب شديد: " هل ستنزلين أم ماذا؟ "

إنتفضت متمسكةً أكثر بقضبان الحديد مجيبةً بصوت ضعيف:" نعم سأنزل "

نظرت الى الأسفل لأرى لكل واحد منهم ظلالاً متعدّدة،أغمضت عيوني وفتحتهما مجدداً ليزيد الدوار ونظري يزوغ، فأنا لم آكل شيئاً منذ الصباح والأماكن العالية تخيفني. حاولت فكّ أصابعي عن القضبان فعجزت عن تحريكهم،أشعر بجسدي يهتز مرتعشاً من شدّة الخوف من الحراك فقد أقع، فناديت إيّان بصوت مرتعش وخجول:

"إيّان" رفع بصره الي يناظرني بحنق ، إنه غاضب جداً ، حسناً فهو أغضبني أولاً .

أجابني واضعاً يداه على قضبان البوّابة من الأسفل يناظرني بإستنكار:

"ماذا؟ هل غيرت رأيك؟ "

أجبته بخجل:"أنا خائفة، لا أستطيع النزول، سأقع"

هزّ برأسه مستنكراً فعلتي وتصرفاتي وأفعالي " هذا رائع، كيف أتتك الجرأة بالتّسلّق وأنت خائفة من النّزول؟ في المرّة القادمة عندما تتصرّفين برعونة وعدم اكتراث فكري بطريق الرجعة قبل أن تخطي خطوة إلى الأمام. ابقي مكانك، أنا آتِ إليك"

سأله طلال: "أأساعدك؟ "

أجابه وهو يتسلّق نحوي " في حياتي كلّها لم أرَ شخصاً مندفعاً مثلها، إنّها تخيفني".

تسلّق البوّابة بخفّة مطلقة ليصل الي بسرعة مطلقة "هل أنت جاهزة؟" سألني يحيط خصري بذراعه بتملك لأشعر على إثره بشدّة تمسكه بي " لا تخافي، عندما تصبحين جاهزة أتركي القضبان وتمسّكي بي جيّداً"

جسدي يرتجف وأصابعي متجمّدة والخوف يتملّكني. تركت القضبان راميةً بنفسي عليه ، احتضنته بشدّة دافنةً وجهي بصدره أتنشق رائحته الفاتنة أمسكَني بقوّة وقال:

"لا تنظري الى الأسفل، سننزل سوياً اتفقنا، مهما حصل لا تفلتيني وأنا لن أفعل، ثقي بي" ثمّ نزل بي بتأنٍ، حرارة جسده تبثُّ الدفئ بجسدي البارد ، لوهلةٍ نسيت خوفي مستلذّةً بقربه ورائحته التي إجتاحتني دُفعةً واحدة ، إنه فريد ، رائع وحنون ، مهما فعل ومهما حاول إبعادي أَجِد نفسي عاجزة عن كرهه .

بقيت متمسكة بكنزته بتملك مرهق حتّى بعد أن وصلنا الى الأسفل. قلبي يعصف داخل صدري وجسدي يرتعش لا أعرف أهو بسبب البرد أم التوتّر أم الخوف ولكن جُلّ ما أردته هو أن أبقى قريبة منه هكذا إلى الابد .

ضمّني إلى صدره هو الآخر عاجزاً عن تحريري ، أشعر بخوفه ، نعم لقد كان خائفاً عليّ ولكنّه حاول أن لا يخيفني ، لثم أعلى رأسي متسرّقاً ظاننناً بأني لم أشعر به وهمس بصوت متحشرج "أنت ترتجفين، دعيني آخذك الى المنزل"

سألني طلال يرمق قدمي الحافيتين :"أين حذاؤك"؟

تلفّتُ حولي أفتّش عنه متذكرةً بأني خرجت حافية القدمين فأجبته بخجل: "أتيت حافية القدمين"

رمقني بنظرة عتاب يهز برأسه مستنكراً فعلتي.

غضضت بصري عنه ألعب بأصابعي، أخجلتني نظراته وفعلتي. إنه محقّ، فأنا أتصرّف كالأطفال وهذا سيئ.

فتح إيّان باب السّيّارة وطلب منّي الدخول. ثمّ وجه كلامه الى طلال آمراً:

" اهتمّ بأمر هاذين، لا أريد رؤيتهما هنا غداً"

دخل السّيارة وانطلق بها الى القصر، السيارة دافئة جدّاً مقارنة بالجوّ خارجاً فغرقت في الكرسيّ مغمضةً عيوني أستلذ بالدفئ .

خاطبني برفق "لا تنامي، لحظات ونصل"

أخذت المسافة من البوابة الرئيسيّة الى القصر بالسيارة حوالي الثلاث دقائق. أطفأ محرّك السيارة ولكنه لم ينزل منها بل عدّل جلسته بطريقة تسمح له رؤيتي بوضوح وراح يراقبني لفترة بنظرات لم أستطع تفسيرها. أربكني، فوجدت نفسي أحاول أن أجد شيئاً ألهي به نفسي عنه وقبل أن أفعل قال:

"أشعر بأنّي عاجز عن السّيطرة عليك، ما عدّت أعرف كيف أتعامل معك...لمَ كل هذا التّمرّد؟ أرجوك ساعديني قليلاً،... ماذا تريدين منّي أن أفعل؟ كيف أتصرّف معك؟"

يبدو عليه اليأس. هو حقّاً متعب منّي ومن تصرّفاتي. ولكن، ماذا سأفعل؟ حدّقت بقدماي الحافيتين القذرتين ألعب بأصابعي علّي ادفع التّوتّر عن نفسي ثّم قلت بصوت ضعيف:

" أنت... لن تحبّني أليس كذلك؟ ...لن يأتي هذا اليوم الذي ستحبني فيه؟ "

اقترب منّي رافعاً ذقني حتّى التقت عينانا فغضضت بصري عنهما، لا أريد النّظر اليهما، فهما تشعراني بعظمة خسارتي وعمق حبّي له، زفر نفساً طويلاً قائلاً:

"لا تريدين حتّى النّظر إليّ" ترك وجهي قائلاً " أنا أحبّك يا نور. ولكن ليس بهذه الطريقة. أنت عزيزة على قلبي وأهتمّ لأمرك كثيراً، مستقبلك يعنيني، لذا أرجوك دعينا نتّفق من هذه الناحية على الأقلّ.

فأنت ما زلت صغيرة لتظني بأنّ هذه هي نهاية العالم. عندك جامعتك ومستقبلك والحياة طويلة أمامك ستكتشفين خلال رحلتك فيها أموراً جميلة ولن أكذب عليك ستتخلّلها بعض المصاعب ولكنّي متأكّد من أنّك قويّة وستصمدين أمامها وتتخطّين صعابها. والحبّ سيطرق بابك عندما يحين موعده. لا تفكّري به الآن وتشغلي بالك بأموره"

"ولكنّه طرق بابي وتربّع على عرش قلبي، ماذا سأفعل به؟ أنت تتحدّث عن الحبّ وكأنّه أمر يستطيع الإنسان التّحكم به. وماذا تعرف أنت عن الحب؟ فأنت لم تعشه من قبل ولا حتّى تؤمن به"

ضحك ضحكة ضعيفة وكأنه يسترجع ذكرياتاً بعيدة وأليمة وقال:

"أعرف عن الحبّ ما يكفي لأطلب منك ان لا تحبّي وتسلّمي قلبك لأحد، لأنّه ليس هناك من أحد في هذا العالم يستحقّ أن يستلم قلباً بريئاً مفعماً بالمشاعر والأحاسيس. دعيه لك بين يديك تتحكّمين به كي لا تسمحي لأحد بأذيتك عبره"

"وما نفع وجوده إذا لم اتشاركه مع أحد. دون شريك، سيبهت ويبرد ويفنى. لا حاجة لي به بهذه الحالة. أفضّل الموت على العيش بالظلمة والبرد والوحدة. وإذا كنت لا تريد مشاركتي قلبي فهذا شأنك. وأنا سأتدبر طريقتي الخاصّة لإنعاشه من دونك"

فتحت الباب وخرجت مسرعة، لا أريده أن يرى دموعي، لن يراها بعد الآن. وأنا اليوم حقاً فقدت الأمل منه كلّيّاً. لا حاجة لي بقلبٍ بارد وقاس ولا حياة فيه. صعدت

الى غرفتي أقفلت الباب ورائي ورميت نفسي على السّرير، احتضنت وسادتي أبكي عليها، علّي اتخلّص من حبّه عبر هذه الدموع الحارّة فتنزعه من قلبي وترميه بعيداً. شممت رائحته عبر كنزتي فخلعتها ورميتها بعيداً عنّي وعدت الى البكاء من جديد.

الفصل السابع

قررت اليوم بأنّي سأكون نور جديدة ، لا أحد يعرفها، لا تحبّ إيّان ولا تهتمّ لأمره. تعيش حياتها كما تريد دون قيود. علّه يكون الحل لتخطّي كلّ ما مررت به سابقاً.

نزلت الى الأسفل لأجد الجميع حول طاولة الطّعام، ألقيت التّحيّة عليهم وجلست متحاشية النّظر الى أحدِ منهم.

سألتني ليلى "البيض المقلي، أم الفطائر المحلاّت"

"الاثنين، أنا جائعة جدّاً"، أخذت كوب العصير وشربته منتظرة ليلى. نظر طلال إليّ مستغرباً، رمقته بطرف عيني ثمّ قررت مخاطبته فقلت له بجدّيّة تامّة:

"إذا كنت مضطرّة لمرافقة أحد، فلا أريد سواك. إذا مازلت موافقاً على هذه المهمّة؟"

ضحك بارتياح وقال:" بالطّبع أوافق وما كنت لأرضى بغيري مرافقاً لك"

"هذا جيّد"

وضعت ليلى الطبق أمامي لأباشر بأكله بشهيّة مفرطة ، فأنا جائعة جدّاً. لاحظت عيون إيّان تراقبني بتمعن ، نعم أنا أعرف بأنّه يحب مراقبتي وأنا آكل ، كان يراقبني محاولاً إخفاء نظراته الخاطفة عني، وكاتي تأكل كالصّوص، تنقب طعامها بالشّوكة والسّكين.

لن أدعهما يؤثّران على شهيّتي أو يعرقلان خطّتي الجديدة.

قالت كاتي بدلع: "علينا ان نخطط لفعل شيء ما الليلة. فالدراما التّي حصلت البارحة منعتنا من الخروج. لا أريد تمضية وقتي في المنزل اذ سأعود قريباً الى دبي"

عرفت أنّها تعنيني بكلامها ورغم ذلك لم أعرها انتباهي، بل أبقيته عند طبقي. لا أرغب في النّظر إليهما ولا حتّى معرفة ما يرتديان أو كيف يبدوان.

سألني طلال: "أتريدين القيام بأمر ما اليوم؟"

أومأت له برأسي وأنا أمضغ طعامي ثمّ أجبته: "لم أفكّر بعد. لكنّي متأكّدة من أنّي أريد تعلّم قيادة السّيّارة. إن كنت لا تمانع سيّد إيّان؟ " قلت موجهةً كلامي له الذي بدوره رمقني بنظرة غامضة لم أفهم مغزاها.

لا أدري ما الذي يمتّعه اليوم، اذ منذ اللحظة التي جلست فيها الى الطاولة وهو يراقبني باستمتاع وكأنّي أقوم بحركات بهلوانيّة لإمتاعه. ما خطبه؟ ربّما تعجبه نور الجديدة. هذا جيّد فاللعبة لا يلعبها إلا اثنان وها نحن أصبحنا اثنين. وإذ بكاتي تمسك بكفّه قائلة:

« لم تجبني، الى أين ستأخذني اليوم؟»

توقفت الملعقة في فمي وأنا أراقبها تضع يدها على عنقه مداعبةً شعره. ياللحقيرة، ألا يكفيها أنّها كانت في فراشه الليل بطوله؟ ألم تشبع من مغازلته؟لألاحظ إيّان غير مرتاح ليدها على شعره اذ حرّك رأسه بطريقة ليجبرها على نزعها وقال لها ببرودة وهو يقف من مكانه:

"ألا تظنّين بأنّ الوقت مازال مبكّراً للتّخطيط للمساء؟ أعدك بأنّنا سنجد أمراً ما نقوم به. أمّا الآن، فأنا مشغول لبعض الوقت. عليّ قراءة بعض الرّسائل والرّدّ عليها، بالإذن"خرج من المطبخ مسرعاً.

رمقتني كاتي بنظره اتهام وكأنّي السّبب بما حصل للتّوّ. ثمّ عادت تقلب طعامها الذي بالكاد لمسته محاولةً إخفاء خيبتها من ردّ إيّان. وطلال تبسّم بمكرٍ وهو يقضي على ما تبقّى في طبقه، ثمّ وقف هوالآخر وقال لي:

" سأكون جاهزاً لك بعد ساعة، أيناسبك ذلك؟"

"بالطّبع يناسبني، أين ستعلّمني القيادة؟ "

"سنبدأ داخل محيط القصر، إذا لا مانع لديك؟"

رمقته عاقدة حاجباي، ما به يتحدّث معي برسميّةْ!

فضحك قائلاً وهو يشير بإصبعه نحوي: " أنت تخيفينني أيتها الصّغيرة"

"هذه الصّغيرة لم تعد صغيرة بعد الآن، إنّها تكبر" أجبته بفخر تام

***

"ما رأيك بي؟ " سألت طلال وأنا أركن السيارة أمام مدخل القصر.

" يا ليتك هكذا مطيعة وتستوعبين بسرعة في كل الأمور الأخرى"

"أتسخر من طبعي أم من قيادتي سيد طلال؟"

" حاشاك آنسة نور، بالعكس كنت رائعة" أجابني يترجّل من السّيّارة، لحقت به وسألته:

"طلال... ستعلّمني القيادة كلّ يوم، أليس كذلك؟"

"سأفعل إن شاء الله" أجابني متّجهاً نحو الحديقة الخلفيّة

"ولكن الى أين أنت ذاهب؟" سألته وأنا أتبعه

"أفتّش عن هاتفي، آخر مرّة استعملته كنت قرب المسبح"

علا صوت كاتي لحظة اقتربنا من المسبح،لنجدها مستلقية على كرسيّ التّسمير بثوب سباحة من قطعتين ذهبيّ اللون تتحدّث عبر الهاتف. ليبدو الارتباك على طلال عندما رآها مستلقية أمامه بهذا المنظر إذ تراجع متفاجئاً من شكلها . تتحنح ليعلمها بوجوده، لترفع رأسها معلّقةً دون خجل:

" هذا أنت طلال، ظننتك إيّان، وعدني بالسّباحة معي منذ أكثر من ساعة مضت. يبدو أنّه لم ينهِ عمله بعد"

تركتهما متوجّهةً نحو المطبخ، لا مزاج لي لرؤيتها مستلقية وتعرض مفاتنها،يا لها من عديمة الحياء ، ولكن يبدو أنّ طلال أعجبه المنظر، حسنا معه حقّ، فليس كلّ يوم يذهب ليفتّش عن هاتفه فيجد امرأة جميلة وشبه عارية مكانه. وكأنّها ظهرت له من فانوس علي بابا.

مررت بالمكتب وأنا في طريقي إلى الأعلى، لألمح إيّان جالس وراء مكتبه واضعا رأسه بين كفيه، يبدو مهموماً وكأنّه يفكّر بأمر ما. ما به يا ترى؟ لم أستطع تمالك نفسي فطرقت الباب بخفّة ودخلت.

رفع رأسه ولاقاني بعينيه المرهقتين، ابتسم ببرودة وقال:

"أهلا نور، هل أنهيت درس القيادة؟"

"نعم أنهيته"

"وكيف كان؟ "

"جيّد" أجبته جالسةً قبالته وسألته "أتعاني من خطب ما؟ تبدو قلقاً ومرهقاً"

"بعض المشاكل في العمل، ليس بالأمر الخطير، لا تقلقي" أجابني يقلّب بملفات أمامه وكأنه يتحاشى النظر إليّ عبرهما.

" أنا ، أنا أسفة لما حصل البارحة،أعلم بأنك تحاول جاهداً التأقلم مع وضعي ولكّني أستمر بتصعيب الامور عليك "

رفع نظره الي محدّقاً بي للحظات ليعود من جديد إلى ملفاته معلّقاً " الخطأ ليس خطأك وحدك ، أنا ملام كذلك الامر ، ولكنّك حقاً تتعبينني نور، أنا لا أستطيع إرخاء الحبل لك لأنّك أمانة بعنقي ، لقد وعدّت المرحوم والدك أن أهتم بك وأحافظ عليك حتى من نفسي ، وهذا ما سأسعى لتحقيقه إلى النهاية "

"إيّان!!" ناديته أحتاج لأن ينظر نحوي ، يراني

رفع بصره مجدداً عن أوراقه يناظرني بغموض" أعدك بأنّ لا أقدم على إزعاجك بعد الآن ، لا مزيد من التسلل إلى غرفتك ولا مزيد من النوح على الاطلال من أجلك، أنا أستسلم "

وقف من مكانه واقفاً أمامي " نور، أنا من المستحيل أن أجلب إمرأة أقيم معها علاقة إلى القصر ، هذا القصر لم تدخله إمرأة من قبل ما عداك أنت وليلى ولن تفعل إمرأة

أخرى غيركما أبداً ، إنه قصرك، منزلك ، بيتك ، ونحن عائلتك إلى الابد ، كاثي مديرة أعمالي بشركة من الشركات وأتت معي من أجل إتمام عمل مطلوب منها ، إتفقنا؟"

ومأت له برأسي بأني فهمت ، نعم ، أنا صاحبة القصر ، ولكّني لا أريد القصر ، بل أريد قلب مالك القصر ، أريد حبّه وحنانه ومشاعره وإهتمامه ، لا أريد قصراً .

" عاد إلى حاسوبه أطفأه معلّقاً" سأصعد إلى غرفتي لأرتاح قليلاً ، هل تحتاجين لشيئ ما "

ومأت له برأسي بلا أراقبه يأخذ هاتفه عن الطاولة ويخرج من المكتب بخطوات واسعة واثقة شعرت على إثرها أنّه يكتم على أنفاسي بعنف مع كل خطوة يخطوها بعيداً عنّي.

تنهدّت بأسى وحزن شديد ، هذه هي النهاية ، لقد قالها بوضوح تام ، لن يحبّني أبداً كما أُحبّه، لن يفعلها أبداً لا الآن ولا أبدا.

دخلت غرفتي بشرود تام لأنتبه لهاتفي يومض بجانب سريري، فتحته فوجدت أربع رسائل قصيرة وثلاث اتصالات لم يردّ عليها. إنّها رينا، يبدو أنّها تحاول الاتصال بي منذ الصّباح الباكر.

فتحت الرّسالة الأولى:

"مرحبا نور، أحاول الاتصال بك منذ الصباح، سنخرج اليوم للسهر. هناك حفلة تقام في وسط المدينة، اتصلي بي عندما تتلقين رسالتي لأخبرك بالتّفاصيل"

الرسالة الثانية:

" هاي نور، ماذا يحصل معك؟ أين أنت؟ "

الرسالة الثالثة:

" بدأت أشعر بالضيق، أريد خنقك، أنت وعادتك، بالتأكيد أنت في مكان ما وهاتفك في غرفتك"

الرسالة الرابعة:

"طفح الكيل، ماذا سأفعل كي تصلك رسائلي أو تردّي على اتصالاتي"

هناك اتصال من آدم واثنين من رينا. لا بدّ أنّها غاضبة جدّاً. من الأفضل أن أكلّم طلال أوّلا ثمّ أردّ على اتصالاتها.

"ألو طلال ، مرحبا، أين وجدت هاتفك؟"

"عند المسبح، ماذا هناك؟"

"اتصلت رينا تدعوني الى حفلة وسط المدينة، أيمكنك اصطحابي عند المساء لألتقي بهم؟ "

أتريدين أن أصطحبك للسهر في ملهى ليلي" سألني بطريقة ساخرة وكأنّ الأمر لا يعجبه أبداً. فقاطعته قبل أن يكمل جملته:

"إنه مطعم طلال ... وليس ملهى ليلي"

"هل أنت متأكدة؟ "

"نعم"

سكت لبرهة وكأنّه يفكّر بالأمر، فقلت له قبل أن يطيل التّفكير بأمر لا أريده أن يعطي رأيه فيه:

"طلال أنا لا أسألك الإذن. إذا كنت لا تريد اصطحابي أو تفكر في أخذ موافقة إيّان أوّلا، فأنا أخبرك منذ الآن، سأذهب معك او بدونك وبرأيك أو بدونه ولا تدخّل إيّان بالموضوع"

"متى ستذهبين؟"

لا أريد إخباره بأنّي لم أكلّم رينا بعد لأسألها عن العنوان والوقت كي لا يظنّ بأنّي كنت أسعى للحصول على موافقته أوّلاً، فأجبته بثقة:

"سأرسل لك الوقت والعنوان برسالة نصّيّة لتتأكد من المكان بنفسك.

أقفلت الخطّ واتصلت مباشرة برينا.

"ألو نور، وأخيراً، أين كنت منذ الصباح؟ "

"كنت أتعلّم قيادة السيارة ونسيت هاتفي في غرفتي"

"هل ستأتين الى الحفلة؟"

" نعم، فأنا أتّصل لأخبرك بذلك وأحتاجك لأن ترسلي عنوان المطعم برسالة نصّيّة"

" هذا رائع، اذا سنلتقي عند المساء، هاي لا تتأخري، سنكون هناك عند الثامنة"

" حسنا، لن أتأخّر"

هذه الفتاة لا يشغل بالها سوى اللهو والسّهر، أرسلت العنوان الى طلال وتوجهت الى خزانتي لأنتقي ما سألبسه عند المساء.

يا الله!! قلبت خزانتي بأكملها ومازلت حائرة بما سأرتديه، رنّ هاتفي عند السابعة تماماً معلناً وصول رسالة قصيرة، إنّه طلال

" أنا جاهز في الأسفل، كلّ تأخير منذ اللحظة هو بسببك"

حسناً وأنا جاهزة كذلك الأمر. ألقيت نظرة أخيرة الى نفسي في المرآة لأشهق مذعورة. يا الله !! ماذا فعلت؟ إذا كنت أنا قد استغربت شكلي فكيف الآخرين؟"

... كيف أبدو؟ ممم... أبدو جذّابة، نعم هذا ما فعلته بنفسي، ارتديت تنورة سوداء قصيرة وكنزة سوداء بحمالات رفيعة وفوقها قميص أسود مفتوح بأزرار فضية وحذاء أحمر كعبه عالي. رفعت شعري الى أعلى رأسي ثمّ تركته يتدلّى من جديد كالشلال ليغطّي عنقي، سواده يحاكي سواد ثيابي. ووضعت كحلة سوداء وأحمر شفاه أحمر اللون. لون جريء أعرف ذلك وهذا ما أريد إظهاره اليوم بشخصيّتي.

فتح طلال فاه محدّقا بي وهو يراقبني قادمة نحوه الى السيارة، يبدو أنيقاً وجذّاباً ببنطاله الكحلي وقميصه الأبيض وشعره المصفّف، وقفت أمامه غير مبالية لردّة فعله منتظرة أن يبتعد عن طريقي لأدخل السيارة ولكنه لم يفعل بل بقي محدّقاً وعلامات الدّهشة على وجهه وكأنّه لا يصدّق ما يراه

" هاي طلال، ماذا حصل لك؟ " سألته بجرأة محاولة إخفاء خجلي وارتباكي من نظراته.

" ما هذا الذي ترتدينه نور؟ وما هذا الذي تضعينه على شفتيك وعينيك؟ " سألني واضعاً سبّابته على شفتيّ، فأجبته ببراءة تامّة وكأنّي لم أفهم قصده:

" ما ارتديه يسمّى ثياب، وما أضعه على وجهي يسمّى ماكياج"

كتّف ذراعيه عند صدره وقال ساخراً:

" حقّاً ! لم أكن أعرف ذلك، تعرفين ما أقصده بسؤالي نور"

طأطأت رأسي وتعدّيته، دخلت السيارة أنتظره، يبدو أنّه مصرّ على رأيه، إذ بقي واقفاً مكانه يراقبني بالدهشة ذاتها، حسناً على الأقل فليخبرني بأنّي أبدو جميلة، رائعة، جذّابة يصفني بكلمة ما بدل هذه الدهشة على وجهه وكأنّي مريعة.

جلست في السّيارة بعناد منتظرة منه الاستسلام، حتّى فعل، ركب السّيّارة وانطلق بها وهو يهزّ برأسه غير مسرور بي، بقي صامتاً لأكثر من ثلث ساعة حتّى قرّر أخيراً فتح فمه.

" لو أنّ إيّان رآك هكذا، لما تركك تخرجين من المنزل"

بدأت الدماء تفور في عروقي في اللحظة التي ذكر فيها إيّان فأجبته غاضبة:

وما شأن إيّان بما أرتديه؟ إنّه ليس أبي ولا أخي ولا علاقة له بي وبما أفعله، لذا لا تفسد عليّ سهرتي بذكره فأنا أرغب في نسيانه نهائيّاً"

" وما علاقة ثيابك بنسيانه نور؟ "

" ومن أخبرك أنَّ هناك علاقة؟ لقد ارتديت ما رأيته مناسباً لحفلة في خزانتي، هذا كلّ شيء. فأنا اليوم أشعر بمزاج ارتداء الأسود ففعلت. وكأنّك في حياتك لم تذهب الى حفل وترى الفتيات ما يرتدين فيها"

هزّ برأسه غير معلّق، هذا جيّد، لقد سئمت التحدّث بهذا الموضوع فسألته مغيّرةً الموضوع:

" وماذا حصل مع سارة، أما زلتما على خلاف؟ "

" لا مزاج لي بالتحدّث عن هذا الموضوع"

ألقيت اليه نظرة سخيفة وعدت أراقب الطّريق عبر النّافذة،لقد غضب مني ، حسناً فاليفعل،لا يهمّني .

***

دخلنا المطعم، الموسيقى صاخبة والمكان مزدحم والطاولات كلها شاغرة، سألني طلال وهو يتفقّد المكان حوله:

" هل ترين أحد من أصدقائك؟ أتأكدتِ أنّهم وصلوا؟ "

" نعم، إنهم هنا، أنظر ذاك سليم، سأذهب إليه"

" سأكون عند المشرب، أبقي هاتفك قريباً منك، وانتبهي الى نفسك"

" سأفعل" أجبته وشققت طريقي بين الطاولات نحو سليم الذي بدوره أشار لي عندما رآني وأتى نحوي.

قال وهو يراقبني ضاحكاً : " لقد غششتني من بعيد، تساءلت عن هذه الفتاة الجميلة القادمة نحوي بكل اهتمامها لأكتشف أنّها أنت، ما هذا الجمال كله؟ أين كنت تخبئينه؟ "

" كفى مزاحاً سليم، أين البقيّة فأنا لا أرى أحداً منهم "

أخذ بيدي وقادني بين الجموع الى الطاولة، يبدو أنّه لاحظ مثلي أنّ هناك عيونا كثيرة تراقبنا، فقرّبني منه أكثر وكأنّه يحاول أن يحميني من عيونهم وابتسم لي ابتسامة خجولة يطمئنني عبرها، فابتسمت له بالمقابل واستقبلت قربه منّي برحابة صدر.

الجميع حول الطاولة تمارة، عمر، رينا وحتى آدم الذي نظر إليّ باندهاش كما فعل طلال عندما رآني قبل ساعة، ضحكت على نكتتي الخاصّة بي وجلست بجانب رينا التي استقبلتني كعادتها بعتاب.

" ما الذي يحصل معك؟ لماذا تأخرت؟"

" لم أتأخر كنت أفتّش عنكم، فالمطعم يعجّ بالزبائن ولولا رؤيتي لسليم لكنت ما زلت أفتّش عنكم"

" ولمَ لم تتصلي بي؟"

ضحكت على نفسي وقلت: " فاتتني هذه " حقّاً لم يخطر ببالي أن أتصل بها لأسألها عن موقعها بالتحديد. فطلال وإيّان أخذا عقلي وأفقداني تركيزي.

انتقل آدم الى جانبي وهو يراقبني بإعجاب وسألني:

" كيف حالك اليوم؟"

"بخير وأنت؟"

" بخير، اتصلت بك اليوم ولكنك لم تردّي على اتصالي"

ذكرني باتصاله، كيف لم أنتبه بأن أردّ له اتصاله فقلت محاولة تبرير نفسي

" آسفة، فقد انتبهت لاتصالك قبل فترة قصيرة من قدومي ففكّرت بما أنّي سأراك هنا فلا داعي لأردّ لك الاتصال"

" تبدين فاتنة، الأسود يليق بك كثيراً ويجعلك مميزة، لا تشبهين نفسك أبداً في الأيام العاديّة "

رفعت له حاجبي وقلت مستنكرة كلامه " ماذا تقصد، ألست جميلة في الأيام العاديّة؟ "

فتح عينيه غير مصدّق كيف فهمت جملته ثم بدا عليه الارتباك وقال مبرّراً:

" يا الله!!! لا ، ليس كذلك، أنت جميلة كل يوم، لكنك اليوم " سكت لبرهة وهو يضحك ثم تابع

" لا أعتقد بأني سأتمكّن من شرح ما قصدته. أنت جميلة وفاتنة كل يوم، ولكنك اليوم تفوقين الوصف"

" شكراً لك على إطرائك آدم، لقد وصلتني الفكرة" أجبته مشيحةً بنظري عنه لا أريد إعطاءه فرصة لإطالة الحديث معي.

وقفت تمارة آخذةً بيدي تقول:

" تعالي معي، سنذهب لإحضار المشروب، وأنت عمر اذهب لاستعجالهم بالطعام"

وبينما نحن واقفتان ننتظر دورنا في طلب المشروب سألتني:

" طلال يجلس هناك وحده عند المشرب، أهو من أوصلك الى هنا؟ "

نظرت باتجاه المكان الذي أشارت اليه فرأيته يراقبنا من بعيد، يبدو أنه اختار مكاناً يمكّنه من رؤيتي أينما أكون في أرجاء المطعم

" نعم هو من أوصلني، يبدو أنه قرر البقاء والاستمتاع بالحفلة"

كذبت، وماذا سأقول غير ذلك؟ أأخبرها بأنه يلعب دور حارسي الشخصي وهو هناك يراقبني ويحرسني.

" لم لا تدعيه للجلوس معنا على الطاولة بدل البقاء لوحده، فنحن لا مانع لدينا بذلك"

" لا أظنه يقبل "

" بلى تعالي معي سنذهب لنسأله " قالت وهي تأخذ بيدي محاولة اصطحابي معها فاستوقفتها قائلة:

تمارة لن يقبل ، دعيه وشأنه، فهو لا يمانع في البقاء وحده."

نظرت اليّ راجيه ، ما بالها ؟ ولما كل هذا الاهتمام المفاجئ بطلال فسألتها وأنا لست واثقة من إجابتها:

" تمارة، أيعجبك طلال؟ "

هزت برأسها مقرّةً بإعجابها بخجل.

" منذ متى؟" سألتها مشفقة عليها،

" منذ عيد ميلادك، لم أستطع التوقف عن التفكير به"

" ولكن لمَ لم تخبريني من قبل؟ "

" لا أدري، ظننت بأنّي سأتخطى إعجابي به، ولكن اليوم عندما رأيته عند المشرب وحده، عادت كل مشاعري وأقوى من قبل، أحتاج الى التحدث معه، أرجوك ساعديني"

أتى دورنا في طلب المشروب، نظرت إلى الساعي حائرة، لقد نسيت ما طلبه منّي البقيّة فتركت مكاني وأعطيته للذي ورائي وأخذت تمارة بعيداً قليلاً عن ازدحام الناس وقلت لها:

" أتعرفين أنه مرتبط؟ تلك المرأة التي كانت في عيد ميلادي إنها حبيبته "

أجابتني بسرعة وكأنها فكرت ملياً من قبل بالإجابة عن هذا السؤال:

" لا تبدو لي علاقتهما جدّيّة، فها هو هنا من دونها، وحتى في الحفلة لاحظت أنّ الأمور باردة بينهما"

رحت أراقبها وهي تناظرني راجية واليأس يتملّكها، أشفقت على حالها، ولكن ماذا يمكنني أن أفعل لها؟ طلال يحب سارة، ولا أظنه مستعدّ للبدء بعلاقة جديدة. ولكن رؤية تمارة واقفة أمامي منتظرة ردّي بشغف يجعلني غير قادرة على رفض طلبها فقلت:

" لا أعدك بشيء منذ الآن، ولكني سأحاول مخاطبته بموضوعك. اطلبي المشروب وعودي الى الطاولة، وأنا سأذهب لأتحدّث معه"

صفّقت ترقص من الفرحة وكأنّ طلال قَبِل بها، حضنتني بقوّة ثمّ عادت تنتظر دورها من جديد لطلب المشروب. وأنا شققت طريقي بين الناس نحو طلال الجالس عند المشرب.

وقفت بجانبه ولكنه لم يعرني اهتمامه أو حتى يخاطبني، ما باله ؟

بالتأكيد يفكر بسارة ووضعه معها فقلت له:

" لا يبدو أنك تستمتع بوقتك هنا، أنظر الى حالك، لم لا تتصل بسارة وتدعوها الى ملاقاتك هنا؟"

لم يجبني، بل اكتفى بإعطائي نظرة لامبالاة، ثم عاد لارتشاف كأسه من جديد. أخذت الكأس من يده وقلت له:

" أعرف بأنه لا يحق لي التدخل بحياتك العاطفيّة، ولكني أرجو منك أن تعطيني فرصة لمساعدتك"

قال ببرودة دون أن ينظر اليّ " ألا يكفي ما فعلته حتى الآن. أنا أشكرك. ولكن لا ... لست بحاجة الى مساعدتك " ثم استعاد كأسه وأضاف " وأنت قلتها بنفسك، لا يحق لك التدخل بهذه الأمور. إنّها ليست لعبة مشاعر وأحاسيس نور. وأنت أدرى الناس بذلك"

أخذ رشفة أخرى من كأسه وقال متحاشياً النظر إليّ: "عودي الى أصدقائك. وانتبهي الى ما تشربينه، تأكّدي أوّلا أنه خالٍ من الكحول مئة بالمائة "

إنّه يتألّم، هذا واضح. أشعر بعذابه وألمه ولكنّه يكابر ولا يريد الاعتراف بما يختلج بداخله. شعرت برغبة في احتضانه ومواساته ولكني اكتفيت بالتربيت على كتفه وتركته لوحده عائدة الى طاولة أصدقائي حيث استقبلتني تمارة بنظراتها الفضوليّة

فأومأت لها برأسي بأنّ الموضوع لم يسر كما تبتغيه. كانت تهمّ بالوقوف لتأتي إليّ ثم عادت وجلست والخيبة على وجهها.

أشحت بنظري عنها. لا أريد أن أرى هذا المنظر على أي أحد بعد اليوم سئمت خيبة الرفض وألمه وعذابه.وإذ برينا تمسك بذراعي وتشدّني نحوها بحماس مفرط والفرحة عارمة على وجهها وكأنها قابلت للتّو فارس أحلامها وقالت:

" يا الله!! نور، لا أصدّق، لن تصدّقي من رأيت هنا، إنّه آخر شخص على وجه الأرض أتوقع رؤيته في هذا المكان "

حماسها وفرحتها أثارا فضولي فسألتها باهتمام،

" من رأيت؟ هيا أخبريني"

وقفت أمامي وهي تحاول ضبط نفسها وقالت: " هل أنت مستعدّة؟ "

" تكلّمي رينا، ماذا يحصل معك؟ "

" إيّان كرم " ضمت يديها إلى صدرها تتراقص فرحاً ثم تابعت " إنّه فارس أحلامي، كنت أحلم به، لم أتوقّع رؤيته حقيقة أبداً ، إنّه أكثر من رائع "

أجابتني وهي تحاول عبثاً إبقاء قدميها على الأرض. هذا غريب، وماذا يفعل إيّان هنا؟ ومن أين تعرفه رينا؟ سألتها وأنا أحاول إخفاء صدمتي من كلامها.

" ومن أين تعرفين إيّان كرم؟ "

" لا أعرفه شخصيّاً ولكنني أتابع كل أخباره وانجازاته إنه رجل أعمال مشهور وناجح جدّاً، وانتُخب منذ سنتين على أنّه أوسم وأصغر رجل أعمال في العالم العربي. كنت أتمنى يوماً ما أن ألتقي به شخصيّاً، وها هو اليوم حلمي أصبح حقيقة "

لا أعرف بماذا سأعلّق على كلامها أو ماذا سأخبرها. ولكن ما يشغل بالي الآن هو ما الذي يفعله هنا وبرفقة من أتى فسألتها: "هل هو وحده هنا، أم يرافقه أحد؟ "

" إنّه برفقة امرأة سمراء طويلة. ولكن لا يهمني، فكلّ ما أريده هو إيجاد طريقة للتعرف عليه " ثم راحت تتلمس ثيابها وشعرها وسألتني " كيف أبدو؟ أأبدو جميلة؟ أأعجبه هكذا؟ "

أي ربنا دعيني بهمي الآن، ذاك الحقير، هل أتى إلى هنا ليفسد عليّ فرحتي؟ ماذا سأفعل الآن؟ شعرت بالدماء تفور في عروقي والحرّ شديد والضجة عالية وكأنّي فجأة ما عدت قادرة على تحمّل شيئ حولي.

خلعت قميصي لألاحظ أكواب العصير كلّها مليئة على الطاولة فأخذت واحداً وشربته كلّه لم أنزله عن فمي إلا فارغاً، أشعر بالحرّ والعطش أخذت الكوب الثاني فأمسك آدم بيدي منبّهاً:

" إهدئي، رفقاً بنفسك، هذا ليس عصيراً "

ولكني لم أهتم بكلامه وشربته هو الآخر كلّه، حدّق بي يراقبني وأنا أضع يدي على معدتي التى امتلأت فجأة بالمشروب وسألني باهتمام:

" هل انت بخير؟ "

" نعم بخير،..." أجبته أجول بنظري علّه يقع على إيّان ، سأقتله ، أشعر بالرغبة الملحة للذهاب اليه وإفتعال فضيحة . عدّت بإنتباهي إلى آدم الجالس أمامي يراقبني بإهتمام ، فلم أعي على نفسي إلاّ وأنا أسأله بكل وقاحة : "أترقص؟ "

فتح عينيه غير مصدّق عرضي وقال واقفاً من مكانه " بكل تأكيد، هيا بنا"

فصرخت بنا رينا متذمّرة:

" هاي، الى أين؟ وأنا ماذا سأفعل مع إيّان؟ "

فقلت لها وأنا أتبع آدم: " خذيه كلّه، فأنا أقدمه لك على طبق من فضّة، هذا اذا توفرت لك الفرصة "

نظرت اليّ وكأنها تقول في نفسها: ما بالها، عمّ تتحدّث هذه المجنونة.

قادني آدم الى الحلقة، يبدو وسيماً اليوم، فلم أتمالك نفسي مقتربةً منه صارخةً بأذنه:

" تبدو جذّاباً اليوم "

وضع إصبعه في أذنه يحرّكها محاولاً فتحها اذ يبدو أني صرخت فيها عالياً وقال وهو يرمقني بتعجب وتساؤل:

" شكراً لك، أعتقد بأنّ المشروب بدأ يؤثر عليك "

" أي مشروب؟ فأنا لم أشرب سوى العصير "

ضحك معلّقاً " ما شربته، لم يكن عصيراً "

" أتقول بأنّي ثملة، لا أشعر بأنّي كذلك "

" لكنّك ثملة وبكلّ تأكيد "

اقتربت منه ،أحطت عنقه بذراعي أراقصه على أنغام " هيرو " بدا متوتّراً في البداية من مبادرتي ولكنه سرعان ما اقترب مني واحتضنني يراقصني.

تذكرت نفسي عندما كنت بين أحضان إيّان وهو يقبّلني بشغف وعادت اليّ كلّ تلك المشاعر والأحاسيس التي شعرت بها وأنا بين ذراعيه.

لا أشعر بشيء هنا بين ذراعيّ آدم، لا شيء البتّة، لا أحاسيس ولا عواطف ولا رغبة، لا شيء. أهكذا ستكون حياتي بين ذراعي رجل آخر باردة وخالية من المشاعر والأحاسيس.

نظرت الى عيني آدم لأراهما تلمعان رغبةً بي فلم أعِ إلاّ وأنا أسأله بكل جرأة ووقاحة ما إذ كان يريد تقبيلي .

حدّق بي غير مصدّق سؤالي، وقبل أن أعلّق على سؤالي أو أستوعب طلبي المخزي والمشين وأتراجع عنه ، أطبق فمه على فمي يقبلني بشغف، أحاطني بتملك يحتجزني بين ذراعيه.

فجأة شعرت بغثيان في معدتي ودوار شديد في رأسي وضيق في نفسي. ما الذي أفعله؟ ما الذي يحصل معي؟ دفعته عنّي علّه يتوقّف عن تقبيلي ولكنه استمرّ في

الضغط عليّ والتعمق في قبلته الى أن شعرت بأنّ هناك يداً تدفعه عنّي بقوّة وإذا بآدم مطروحاً أرضاً. تلفّتُّ حولي غير مستوعبةً ما يحصل فرأيت إيّان فوق آدم يلكمه بعنف على وجهه وينعته بالحقير وطلال أمسك بذراعي وهو يراقبني بقلق واستغراب.

يااللإحراج ، ماذا فعلت، أصبحت فجأة محطً أنظار الجميع.

سليم وعمر أمسكا بإيّان يحاولان إبعاده عن آدم المطروح أرضاً والدماء تسيل من فمه وأنفه. وإيّان كالبركان الهائج مستعدّ لإحراق كل شيء أمامه.

جثت رينا بجانب أخيها تحاول مساعدته على الوقوف وهي تراقب إيّان باستغراب وتساؤل، لا تفهم ما الذي دفعه لفعل ذلك، الذي بدوره كان يحاول عبثاً تهدئة نفسه ثمّ نظر إليّ صارخاً في وجهي:

" هل أنت ثملة؟ أهكذا تستغلين حريتك؟ بارتدائك كالساقطات والتصرف مثلهنّ "

أتمنّى لو أنّ الأرض تنشق وتبتلعني، الإحراج سيقتلني. كيف وصلت بي الأمور إلى هنا وخرجت عن سيطرتي تماماً. يا الله!! ماذا فعلت؟ أخذ طلال بيدي وقادني خارج المطعم بصمت ودون تعليق.

لم أستطع تمالك نفسي فإنهمرت دموعي سخّيةً حارّة تحرق عيوني ووجنتي. وصل بي الى السيارة توقف بجانبها يجيب على هاتفه:

" نعم، إنّها معي ... عند السيارة ... حسناً سأنتظرك "

أقفل الخطّ يراقبني أبكي دون توقف وقال:

" ما الذي تحاولين فعله نور؟ بكلّ ما فعلته منذ الصباح حتّى الآن، إلى أين تريدين الوصول بكل هذا؟ "

أجبته وأنا أحاول تماسك نفسي بصعوبة، قلبي يؤلمني وضميري يؤنبني ونفسي تعاتبني.

" أقسم لك طلال، لا أعرف كيف خرجت الأمور عن السيطرة. كل ما أردته هو إيجاد وسيلة لنسيان إيّان وتخطّي أمره ومتابعة حياتي من دونه "

" بهذه الطريقة ، بارتدائك هذه الملابس وارتمائك في أحضان شاب غريب لم تلتق به سوى مرّات معدودة "

سكتُ، أحاول استجماع أفكاري لأبرّر فعلتي، كيف سأفعل؟ وهل أملك غير بالحقيقة ، فقلت وأنا أمسح دموعي القديمة لتحلّ مكانها أخرى جديدة حارّة ومؤلمة.

" أردت أن أجرّب شعور أن أكون بين أحضان أحد غير إيّان وأن يقبّلني أحد غيره "

مرّر طلال يديه بشعره بعصبيّة تامّة ، يحاول عبثاً كبت غضبه عني، معه حقّ، فعذري أقبح من ذنبي وتابعت " لم أتحملها ، لم أتحمّل قبلة آدم طلال ، كانت باردة ومؤلمة. شعرت بأنّها تقتلني من الداخل. حبّ إيّان قتلني، قتلني طلال، فأنا اليوم تأكّدت بأن قلبي لن ينبض لسواه "

خبأت وجهي بكفّيّ مسترسلةً بالبكاء المرير بألم ويأس، أخذني بين ذراعيه واحتضنني برفق يحاول تهدئتي، احتضننته بدوري بتملك أبكي على كتفه دون توقف.

وإذا بصوت إيّان الغاضب يقول من خلفي بحنق شديد:

" ألم تكتفي بعد من الارتماء في أحضان كل من يصادف دربك؟ "

حاول طلال إبعادي عنه ولكني تمسكت به رافضة تركه لي وقلت:

" لا شأن لك بأحضان من أرتمي، دعني وشأني، ألا يكفيك ما فعلته في الداخل؟ "

أمسكني من ذراعي مبعداً إيّاي عن طلال بالقوّة وأمرني قائلاً:

" أدخلي الى السيارة هيّا "

مسحت دموعي متوقّفةً عن البكاء، فالغضب الذي أشعر به الآن أقوى من ألمي وقلت بعناد:

" لا أريد دخول السيارة، دعني وشأني "

قال صارّاً على أسنانه غضباً ، يحاول تمالك أعصابه هو الآخر" أدخلي الى السيارة اللعينة وإلاّ أقسم بالله لأدخلتك إليها عنوة"

نظرت إلى طلال متوسلة علّه يدعمني ولكنه نظر اليّ بعجز وكأنه يرجوني أن أفعل ما يأمرني به إيّان ففعلت.

تبادل إيّان وطلال مفاتيح السيارات ثم ركب إيّان السيارة معي وانطلق بها.

حاولت قدر استطاعتي أن أبقي نفسي هادئة ولا أبكي من جديد. حدّقت عبر النافذة نحو الخارج محاولةً قدر الإمكان تجاهل وجوده معي بالسيارة، وبعد صمتٍ دام لوقت طويل، سألني بهدوء تام دون الالتفات اليّ

" ما الذي يحصل معك نور؟ كيف وصلت بك الأمور الى هذه الحالة ؟ أنت لست هذه الفتاة التي حاولت إظهارها اليوم، لست كذلك نور "

" ما الذي يثبت لك أني لست كذلك؟ ربما أريد أن أكون هذه الفتاة التي أنا عليها اليوم، إنها تعجبني"

حدّق بي مستغرباً ردّي " تعجبك! أيعجبك حالك هذا؟ ثملة وترتدين هذه الثياب الفاضحة وتسمحين للغرباء بتقبيلك، ومن هو ذاك الحقير ليسمح لنفسه بلمسك؟ "

أجبته بحدّة " إنّه ليس بحقير، على الأقلّ هو يحبّني ويهتمّ لأمري، يكنّ لي مشاعراً وأحاسيساً أنت لا تعرفها ولن تعرفها، لأنه لا قلب لديك لتشعر بها"

رغم قساوة كلامي، إلاّ انّه أجابني بنفس الوتيرة ونبرة صوته الهادئة:

" يحبك ويهتمّ لأمرك، كيف هذه؟ لو كان يهتمّ لأمرك فعلاً، لما سمح لنفسه بأن يستغلّ ثمالتك وتقبيلك وفي مكان عام كهذا، إنّها إهانة لك، لقد أهانك وقلل من قيمتك نور "

نظرت اليه بتمرّد وقلت بكل جرأة أملكها " أنا طلبت منه أن يقبّلني "

عقد حاجبيه يناظرني بغضب مستعر ودهشة وكأنه لا يصدّق ما سمعه للتو منّي. بقي للحظات محدّقا بي. فقلت ببرودة:

" انتبه الى الطريق أمامك، لا أريد أن أموت اليوم "

أوقف السيارة بجانب الطّريق وعاد يحدّق بي . قال مشدداً على مخارج الحروف وكأنّه يحاول ضبط أعصابه دون جدوى:

" أنت سألته أن يقبلك؟ ما الذي دفعك الى فعل ذلك؟ "

" لا شأن لك بالسبب، ولا يحقّ لك سؤالي عنه. أسألتك يوماً عن سبب معاشرتك للنّساء وتقبيلك لكاتي وغيرها؟ وحتّى لو فعلت كنت ستجيبني بأنه لا شأن لي بذلك "

" لا شأن لي بالسبب إذاً "

" نعم ولا يحقّ لك أن تنعتني بالساقطة كذلك الأمر , أنا لست كذلك "

" لم انعتك بالساقطة نور "

" ولا يحق لك أن تفعل كل ما فعلته في الحفلة، لقد أهنتني وأحرجتني وأفسدت فرحتي وجعلتني أضحوكة كل من في المطعم وخاصة أمام أصدقائي "

لم استطع تمالك نفسي، يا لهذه الدموع السخيفة، لا أريد البكاء، خاصّة الآن، ولكنها أبت أن تطاوعني فانهمرت بغزارة حاجبة عنّي الرؤية بوضوح. نزلت من السيارة وأنا أشعر بضيق في نفسي وكأنّ هناك يد خفيّة تضغط على عنقي. تبعني إيّان واقفاً بجانبي يراقبني بصمت قلت له بصوت مخنوق وسط دموعي:

" دعني وشأني إيّان، عدّ الى السيارة أرجوك، أريد البقاء وحدي لا أريدك أن تراني هكذا، اذهب"

"لقد أخبرتك بأني لست على علاقة بكاثي ، ولم أكن على علاقة مع إمرأة منذ فترة طويلة نور، إذ كان تصرفك هذا كي تردّين لي الصاع صاعين فأنا أهنئك ، لقد نجحت وبجدارة ، ولكن رغم كل هذا أنا وأنت أبداً لن نكون لبعضنا أفهمت "

إستدرت إليه حانقة حدّ الجنون ، صارخةً به " أنا أكرهك إيّان ، أكرهك حدّ الموت ، وإذ كنت تظن بأني فعلت ما فعلته من أجلك فأنت مخطئ، إرحل ، إرحل من هنا ، لا أريد رؤيتك ، لا أطيق رؤيتك "

ولكنه بدل أن يذهب اقترب منّي أكثر جاذباً إيّاي بين أحضانه هادماً حصوني الواهنة، حضنته بدوري بقوّة شديدة مسترسلةً بالبكاء شاهقة .

لا أعرف كيف سأتحمّل العيش مع غيره، أو فكرة أنّ أحد غيره سيحضنني أو يقبّلني أو يكون قريباً مني هكذا كما هو الآن. لم لا يريدني؟ لم لا يحبني كما أحبه؟ لم، لم ، لم كلها أسئلة لا ألقى لها أجوبة، تؤلمني وتعذبني.

إبتعدت عنه برهقة لحظة شعرت بغثيان شديد في معدتي ودوار في رأسي وكأنّ الأرض تدور بي بسرعة شديدة. جثيت أرضاً أتقيّأ ، الرائحة كريهة والطعم مرّ،لأشعر فجأة وكأنّ حرارتي إرتفعت حدّ الغليان أو أنّ الجوّ أصبح فجأة أكثر حرّاً. جثى إيّان بقربي مبعداً شعري عن وجهي.

سألته أن يبتعد عنّي، لا أريده أن يراني هكذا، إنّه لأمر مقرف ومقزّز ولكنه أبى أن يفعل، بل بقي بقربي إلى أن انتهيت، ساعدني على الوقوف وفي اللحظة التي وقفت فيها فقدت توازني اذ شعرت بأنّ الأرض تدور بي.

حملني الى السيارة حيثُ يبدو أنّي غفوت فيها اذ لم أشعر بنفسي إلّا وأنا بين ذراعي إيّان يضعني في السّرير، الغرفة مظلمة، متوسدةً ذراعه ويده الثانية تداعب شعري، لا بدّ اني أحلم، ماذا سيفعل إيّان في سريري؟ ولكن كيف وصلت الى هنا؟ فآخر ما أذكره أنّي كنت في الحفلة ، وماذا حصل بعد ذلك؟ أفكاري مشوّشة بالتأكيد أنا أحلم أنّ إيّان مستلقياً بقربي ويداعب شعري وإذ بي أسمع صوته الدافئ والحنون وكأنه يروي لي قصّة ما قبل النوم، كلماته الحزينة تدوي في رأسي:

" أنت كتلك الزّهرة التي نبتت بين نبات الصّبّار في الصحراء. عندما يراك الهائم يظن أنك سراب يتراءى له، وهمٌ جميل يتمنّى حصوله، ولكن رائحتك، لونك وملمسك يؤكدان وجودك في ذلك المكان المكفهر الذي لا يحوي سوى الرمال والأشواك. تتمايلين على نغمات نسيم الصحراء، لا تنكسرين ولا تنحنين، تفوح منك رائحة تغريني للاقتراب منك، لمسك، ولكن أبداً ما كنت لأجرؤ على تدنيس براءتك وفرادتك بأنانيتي مهما زادت رغبتي بك.

حبّي لك يدمرني، يتآكلني من الداخل، يذكرني بنفسي المعذبة والمشوّشة والحائرة.

لا أريد أن أتحوّل الى ذلك الجلاّد نور. لا أريد أن أصنع منك إيّان آخر. أنت جميلة، رقيقة وبريئة، مفعمة بالأمل والحياة. لا أريد تدنيس معتقداتك، براءتك ترهقني وتمنعني عنك.

... أنا رجل بلا طفولة، برائتي اغتصبت، روحي سجنت وقلبي تجوبه الظلمات.

إنني رجل لم يبق منه إلا طيف، يسير بلا هدى ولا هدف "

ثم راح صوته يتلاشى تدريجياً في عقلي ... .

الفصل الثامن

لا أعرف ما الذي يحصل معي هذا الصباح أفكاري مشوّشة وكأنّي عشت البارحة كابوساً طويلاً. رأسي يؤلمني وأشعر بجوع وعطش شديد.

وضعت ليلى الفطور أمامي وعادت تعمل:

" أين الجميع، أما زالوا نياماً؟" سألت ليلى وأنا أقضم طعامي.

" أنت آخر المستيقظين، إيّان وطلال استيقظا باكراً، إنّهما في صالة الرّياضة "

" وكاتي، أين هي؟ "

" كاتي رحلت البارحة، أخذت حقيبتها ورحلت مع إيّان، ولكنها لم تعد معه، بل انت من عاد معه "

" أنا عدت معه !؟ " سألتها بتعجّب، لم لا أستطيع تذكر كل ما حصل البارحة؟ أذكر... نعم أذكر شجار آدم وإيّان والإحراج الذي سببته لنفسي، ولكن ما لا أذكره هو الذي حصل بعد ذلك. كيف انتهى بي المطاف مع إيّان؟ هذا يعني أن ما سمعته البارحة وأنا نائمة في سريري ليس حلماً، أيعقل هذا؟ لا، لا أظنّ ذلك.

" أين نام إيّان البارحة؟ ليلى "

رفعت حاجبها مستغربة سؤالي وقالت وهي تعيد بعض الأغراض الى الثلاجة:

" وأين سينام، في غرفته طبعاً "

" هل أنت متأكّدة ؟ "

" ولم تسألين؟ بالطبع انا متأكدة، لقد رتّبت سريره صباح اليوم "

كيف سأتأكّد أن ما حصل البارحة حلم أو حقيقة؟ عليّ أن أتأكّد من ذلك. تركت المطبخ متوّجّهةً نحو صالة الرياضة، إنّها في الطابق السفلي للقصر وتحتل مساحة واسعة من أرضيّة القصر وتضمّ مسبح شتوي داخلي وغرف حمّامات البخار.

سمعت صوت طلال لحظة أصبحت على مقربةٍ من الصالة وهو يقول بعصبيّة " لم كلّ هذا العناد؟ إنَّها زوجتك يا رجل،كمّ مرّة سأقولها لك؟ ما حصل بينك وبين نايا، لا يشبه أبداً ما يحصل الآن بينك وبين نور، اقتنع أرجوك. عنادك هذا سيضيع الفتاة من بين أيدينا على غفلة منّا "

ما الذي يحصل؟ ومن هي نايا؟ إنه يتحدّث عنّي. اختبأت وراء الباب علّي أسمع شيئاً ما يجعلني أفهم الذي يحصل.

ردّ إيّان بنفس عصبية طلال " لا أستطيع، لا أستطيع تصوّر نفسي معها، إنها طفلة ، طفلة لا تفهم شيئ من هذه الامور ، ستكرهني عندما تكبر وتعي ماذا فعلنا من وراء ظهرها ، إنّها تعذّبني ولا أعرف كيف أتخلّص من شعوري إتجاهها، لو كنت استطيع أن أعيش من دون هذا القلب لنزعته ورميته علّي أتخلص من حبّي لها وأرتاح من عذاب الضمير "

أنا الآن ضعت، عن من يتحدّث؟ عنّي أو عن نايا؟ من هي التي ترهقه وتعذبه؟ يا الله !! تحدّث بوضوح علّي أفهم ما تقوله.

ردّ طلال عليه لكن هذه المرّة بهدوء " لن أتخلّى عنها إيّان. نور بحاجة إليّ وإذا اضطررت للاختيار فسأختار مساعدتها عليك أتفهمني، وعندها ستخسر فرصتك الوحيدة للعيش حياة طبيعيّة كسائر البشر. سآخذها بعيداً عنك. لذا عليك الاختيار وسريعاً. ما عدت أتحمّل لعب دور المتفرّج وأنا أراها تتعذّب وتؤذي نفسها من أجلك ... أتعرف ما الذي دفعها لتقبيل آدم؟ لترى نفسها ما إن كانت قادرة على منح قلبها وحبها وجسدها لرجل آخر غيرك ولكنها عجزت عن ذلك إيّان، عجزت "

" أوتظن نفسك قادراً على حمايتها؟ أين كنت البارحة وهي ترمي بنفسها بين أحضان رجل غريب؟ وكيف سمحت لها أساساً بالخروج من المنزل بما ترتديه؟ هيا أجبني "

" هل سمعت ما قلته لك إيّان؟ هل سمعت ما قلته عن سبب تقبيلها لآدم؟ أم أنّك ستتغاضى عن هذه المصيبة أيضاً؟ "

إنتفضت فزعةً شاهقةً ،على صدى صوتاً قويّاً وكأنّ أحدهم لكم طاولة أو شيئاً خشبيّاً بقوّة.

يا الله!!! لا أريدهما أن يتشاجرا بسببي. إنّها المرّة الأولى التي أسمعهما يتجادلان فيها بهذه الطريقة.

لأسمع إيّان يصرخ بأعلى صوته:

" وماذا تريدني أن أفعل؟ أخبرني؟ أعطني حلاًّ؟ "

" أنت تعرف الحلّ إيّان إنّه بيدك "

" لا أستطيع، حاولت وعجزت، إنّها طفلة يا رجل، لا تفقه شيئاً من هذه الحياة سوى محيطها. والذي حصل البارحة أكبر دليل على ذلك "

" إنّها ليست بطفلة ،وتفقه أكثر منك، على الأقلّ هي تحارب من أجل ما تريده. إلى متى سيبقى شبح نايا يلاحقك؟ "

" لا أريد التحدث بهذا الموضوع بعد الآن، ارحل طلال، ارحل من هنا لا أريد رؤيتك "

" سأرحل إيّان، ولن أعود، لنرى ماذا ستفعل وحدك. وكيف ستتدبّر أمورك معها أثناء غيابي؟ "

تلفتُّ حولي برهقة لحظة سمعت صوت خطى قادمة نحوي، تفقّدت المكان حولي، أين سأختبئ؟ لكن قبل أن أقرّر وجدت طلال أمامي، تفاجأ عندما رآني ولكنه لم يعلّق على فعلتي، بل تخطّاني وظلّ صاعداً إلى الأعلى.

لحقت به أناديه: " طلال، طلال أرجوك لا ترحل، لا تتركني هنا وحدي "

أجابني متابعاً سيره " إنّه للأفضل نور، سأرحل لفترة وأرى كيف سيتعامل معك إيّان "

سألته راجية " أرجوك، لا أريدك أن تتشاجر معه بسببي. أنتما أصدقاء طفولة ويجمعكما تاريخ بأكمله، لا أريد أن أكون سبباً في افتراقكما "

وقف مستديراً نحوي، عاد إليّ بخطى واسعة ، ملامح وجهه حنونة ومطمئنة ثم قال:
" لا تخافي، أنا وإيّان لن يفرّقنا شيء في هذا العالم. أنا فقط أحاول مساعدتكما ولكنّي ما عدت أعرف كيف، نفذت منّي كل الوسائل. سأعود عندما يهدأ الوضع قليلاً،لا تخافي فأنت هنا بأمان وإيّان ... ..."

سكت ... نظر إليّ بأسف وكأنه يريد قول شيئاً ما وتراجع عنه :

" لن أغيب طويلاً، اتفقنا، انتبهي الى نفسك والى ذلك العنيد؟ عناده يزحزح الجبال. على الأقلّ هذه نقطة تشابه بينك وبينه، يجمعكما عناد رهيب يرهقني ويتركني عاجز عن التعامل معكما. "

رميت نفسي بين أحضانه وقلت له وأنا أحاول كبت دموعي: " أنت صديق وأخ رائع طلال، أحبّك كثيراً كثيراً "

أحاطني بذراعيه بتردّد ، ضغط على جسدي بخفّة مطلقاً تنهيدة طويلة ، ابعدني عنه ، درس ملامحي لفترة وقال "أنتما أهم شخصين في حياتي نور، ومستعد لفعل أي شيء لأجلكما " ابتسم ابتسامة باردة ثم حررني وقال" دعيني أرحل الآن " لحقت به وأنا أقول " ومن سيقلّني الى الجامعة غداً؟ "

ضحك قائلاً وهو يشق طريقه الى جناحه "سنتدبّر أمر هذه المسألة غداً لا تقلقي "

عدت أدراجي إلى صالة الرياضة مصرّة على مناقشة بعض الأمور مع إيّان، لقد سئمت السكوت وأحتاج إلى بعض التفسيرات والأجوبة. دخلت إليه لأجده مرتدياً ثياب الرياضة وقفّازا الملاكمة في يديه يلكم عامود الملاكمة بقوّة شديدة.

وقفت قبالته شابكةً ذراعيّ حول صدري منتظرة إيّاه أن يتوقف عن لكم العامود ويعطيني انتباهه، لكنه إستمر بتجاهلي رمقني بنظرة عابرة باردة وعاد يركز فيما يفعله.

بعد مرور عدّة دقائق نفذ صبري منه فصرخت به:

" هلا توقفت، أحتاج إلى التحدث اليك "

أجابني يلهث أنفسه بعمق" ماذا تريدين؟ ألا ترين أني مشغول؟ "

وضعت يدي على خصري وأجبته بعناد " أريد التحدث معك الآن "

لم يتوقف عن لكم العامود وكأنه يصب جمام غضبه عليه وقال:

" اذهبي نور "

لن أستسلم، لن أتركه قبل أن أتحدّث معه، تفقدت المكان حولي علّي أجد شيئاً أجذب به انتباهه إليّ ،فوجدت قفازين آخرين معلقين على الحائط بجانب معدّات الملاكمة، لبستهما وعدّت اليه أشعر وكأنّي أحمل كتلتين ضخمتين.

" أما زلت هنا؟ " سألني عندما رآني أقف أمامه من جديد، ثم انتبه الى ما ألبسه في يدي، فرفع حاجبه وقال متعجباً " ماذا تفعلين؟ "

لكمت يداي ببعضهما البعض وقلت بمرح " أريد ملاكمتك "

توقف عن لكم العامود يراقبني بطريقة غريبة لم أستطع تفسيرها، لألاحظ إبتسامة خجولة على شفتيه وكأنه يحاول جاهداً إخفائها عنّي بقي لفترة يراقبني إلى أن هدأت وتيرة أنفاسه فابتعد عن العامود واقفاً أمامي واضعاً يديه في وضعيّة الدفاع أمام وجهه وقال:

" حسنا أرِنِي ما لديك "

أجبته بحماس: " حقاً ! أين؟ فأنا لا أريد أذيتك "

ضحك مسترسلاً: " لا تخافي، لن تؤذيني لكمتك ... أينما تريدين، هيا "

ضحكته هذه سلبت أنفاسي فأنا نادراً ما أراه يضحك إنّه شعور رائع أن أعرف بأنني قادرة على إضحاكه، وضعت كل قوتي بذراعي اليمنى ولكمت باتجاه كتفه الأيمن، لم يتحرّك لأثرها. شعره رطب والعرق يتصبب من جبهته وعيناه تشعان بريقاً آخاذاً جعلا قلبي يقفز من مكانه.

" أهذا كل ما لديك؟ هيا اضربي بكل قوتك؟ "

أعدت الكَرّة مرّة، مرتان وعشر، انقطعت على إثرها أنفاسي وتجمدت الدماء في يدي وهو ما يزال صامداً أمامي والبسمة تعلو وجهه مستمتعاً بما يحصل.

" حسنا هذا يكفي " قال ينزع قفازيه،

فك وثاق قفّازي. وبحركة مفاجئة ثبّت ذراعي خلف ظهري ملصقاً جسدي بصدره، همس قرب أذني ضاغطاً على معدتي بقوّة ، شهقت متفاجئة من حركته تلك مستكينة بين ذراعيه مغمضةً عيناي أستمع إلى همسه الذي قلّص معدتي وقبض على قلبي بطريقة شهية مؤلمة.

"عضلاتك ضعيفة جدّاً، لذا إذا اضطررت يوماً ما لاستعمال العنف، عليك التصرّف بحنكة للتغلب على خصمك، وليس قوّة عضلاتك. هذه المنطقة " بسط كفّه ضاغطاً على معدتي مسبباً عجزي عن أخذ أنفاسي المتسارعة مسببةً تزايداً ملحوظاً بدقات قلبي " إنها حساسة جدّاً، وإذا سددت ضربتك بمرفقك، إنه أقوى من قبضتك ستوقعينه أرضاً من شدّة الألم "

أدارني نحوه، لأقابله ،جسدي ملتصق بجسده الرطب، رائحته مزيج من عطر صابون الاستحمام ورائحة عرقه. رفعت بصري إليه لتَتّحِدُ نظراتنا الغائمة ، أمسك بيدي واضعاً إيّاها على معدته وجعلني أتلمس حدودها وقال " هنا بالذات "

وجودي قربه هكذا أصابني بدوار شديد، وكأنّ كل أعضاء جسدي بدأت تعمل على هواها دون رقيب أو حسيب لترتفع حرارة الغرفة مسببةً تعرّقي الشديد.

سنتيمترات هي المسافة التي تفصل بين وجهينا، والسؤال الوحيد الذي خرج من فمي في هذا الموقف هو:

" لمَ أنت خائف منّي؟ "

عقد حاجبيه بتساؤل " ماذا تعنين؟ ولم أخاف منك؟" حرّرني من قبضته مبتعداً عني بضع خطوات.

" أرجوك، لا تجب على سؤالي بسؤال آخر، لقد سمعتك تتحدّث الى طلال، أنت خائف من أن أكون مثل نايا. من هي نايا؟ هل هي المرأة التي جرحتك وآذتك وجعلتك لا تؤمن بالحب؟ أنا لست مثلها إيّان، ما كنت لأجرؤ أبداً على أذيتك "

استدار مبتعداً عني أكثر موارياً ملامحه عنّي، أخذ المنشفة يجفف فيها عرقه ثم ألقاها على كتفه وسألني بتوتر واضح في صوته:

" أين كنت؟ وماذا سمعت؟ "

" أنا آسفة، لم أتقصد، كنت قادمة للتحدث إليك فسمعتك تتحدّث إلى طلال، لم أخطط للأمر. سمعتك تتحدّث عن نايا وعن خوفك من أن أكون مثلها. أنا أحبك إيّان ولن أؤذيك أبداً مهما كان السبب أرجوك صدّقني"

" لقد أسأت فهم الموضوع نور، أنا لست خائفاً منك، وأنت أبداً لا تشبهين نايا، حاشاك أن تكوني مثلها "

"إذاً، لماذا تتهرب منّي ؟ أنا لا أفهم شيئاً، ساعدني أرجوك ودعني أفهم ما الذي يحصل. إذا كنت لا أذكرك بنايا، لماذا ترفضني بسببها؟ "

" كفى نور، لست مضطراً لتبرير نفسي أمامك، لقد سئمت من التحدث حول هذا الموضوع مراراً وتكراراً . وانسي ما سمعته لأنه ليس كما فهمته أبداً "

" وأنا سئمت منك ومن مكابرتك ونكرانك، لقد أتعبتني. هل تذكر ما قلته لي البارحة في غرفتي وعلى سريري؟ "

تفاجأ من كلامي وكأنه لم يكن يتوقع منّي تذكر ما حصل البارحة عندما وضعني في سريري واستلقى بجانبي الى أن غفوت.

"وماذا حصل البارحة؟ لقد كنت ثملة ولا أعتقد بأنك كنت قادرة على تمييز الحقيقة من الخيال"

سكتّ لبرهة محاولة استجماع أفكاري، أنا لا أذكر كل شيء بالتفصيل ولكني متأكدة مما سمعته، قلت وأنا أحاول أن أثبّت صوتي كي لا يشعر بعدم ثقتي مما أقوله:

" لقد قلت أموراً كثيرة لم أفهم معناها أو قصدك منها، ولكن ما فهمته من فحوى كلامك، أنك خائف منّي، وحبك لي يعذبك ويرهقك. لم ؟ أجبني؟ " اقتربت منه أكثر محتضنةً وجنتيه بين كفي " أنا لست سيئة إيّان، صدقني أرجوك، وكل ما فعلته سابقاً هو بسبب يأسي، وحبي لك. لم أتقصد تقبيل آدم أو شرب الكحول أو أي من الأمور السيئة التي قمت بها "

مرّر يده بشعره بعصبيّة وقال:

" أرجوك افهميني، أنا لست خائفاً منك، أنا خائف من نفسي عليك. لا أريد أذيتك. لن أتحمل نفسي ان تسببت لك بالأذى نور "

فاجأني جوابه، لم أتوقعه، سألته مستغربة:

" لم أنت خائف من نفسك عليّ؟ أنا لا أفهمك "

"هناك أسباب عديدة نور. أولا: أنت مازلت صغيرة وبلا تجارب لتميّزي حقيقة مشاعرك. وثانياً، أنا لا أستطيع استغلال جهلك لهذه الأمور لصالحي. أنا لست كذلك "

أخذت بكفّه وقربتها من صدري بقصد جعله يشعر بنبضات قلبي التي تتخبط في صدري.

" أنا واثقة من مشاعري إيّان، لقد أحببتك منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها ومشاعري تجاهك لا تشبه أية مشاعر عشتها أو جربتها في حياتي ... و ...."

قاطعني قائلاً: " هذا لأنه لا خبرة لك في هذا المجال. ما تشعرين به الآن يمكن أن تكتشفي لاحقاً أنه ليس حبّاً، بل حاجة الى الاهتمام. خاصة بعد أن عانيت من فقدان والدك وخسارة عطفه وحنانه "

يا الله!!! عنده جواب لكل حجة أقولها, ضغطت على يده بخفة على صدري وقلت:

" أرجوك إيّان، لا تأخذ هذا المنعطف. لم تستخف بنفسك ولا تثق من أنك تستحق بأن تحب وتُحَب؟؟ "

جذب كفّه من قبضتي ، مررّها بين خصلات شعره بعصبيّة، أخذ نفساً عميقاً وقال:

" آه يا نور، لا أعرف ماذا سأفعل بك، عنادك يرهقني "

" إذاً توقف عن مقاومة حبك لي، أرجوك اقبل بالأمر الواقع ترح نفسك وتريحني "

هز برأسه يتحاشى مواجهتي .

" يا ليت المسألة بهذه السهولة، لكنها ليست كذلك. أنت عزيزة الى قلبي كثيراً، لا أريد أذيتك نور. أنا لا أضمن لك الحالة التي سأكون عليها غداً إذ لا أنكر أنك تجذبينني إليك كثيراً وأكنّ لك مشاعراً ورغبة تخيفني. أخاف من أن تتلاشى هذه المشاعر بعد فترة من علاقتي بك فأخسر نفسي وأخسرك

وبعد كل هذا سأكون قد آذيتك ودمرت أحلامك ومستقبلك بسبب رغبة اعترتني تجاهك. "

أخذ بيدي وقرّبها الى قلبه وقال: " أتشعرين به؟ أتشعرين بهذا القلب السقيم؟ إنّه غير قادر على الحبّ، غير قادر نور. أنا لا أستطيع إسعادك أو أن أكون حبيباً وزوجاً وأباً. لا أريد أذيتك، لا أريد إشباع رغباتي منك ورميك لاحقاً. أنت تستحقين أفضل مني، رجلاً نقيّاً، صالحاً ويستحقك. وأنا لست أي من هؤلاء نور. لذا أرجوك، دعك مني "

أبقيت يدي على قلبه حيثما وضعها، أشعر بنبضاته تتخبط في صدره. إنّه مجروح ومعذب ولكنه أبداً ليس كما وصف نفسه. إنّه نقي وصالح وبكل تأكيد يستحقني.
ضحكت ولا أعرف لماذا،قلبي ضحك وروحي ضحكت وعيوني ضحكت وهو يراقبني بعينيه الزرقاوتين الفاتنتين الكاسرتين وقلت:

" أنا الآن تأكدت من أنّك تحبني، تحبني أكثر من نفسك، لدرجة أنك مستعد لتضحي بسعادتك ورغبتك تجاهي خوفاً من نفسك عليّ. إيّان كرم، مهما فعلت ومهما قلت،

ومهما كان السبب، ورغماً عنك، أنت تحبني وأنا أحبك ولا شيء تفعله يستطيع إقناعي بعكس ذلك "

هزّ برأسه يحاول إنكار كلامي " نور، رغم كل هذا ، أنا لست لك ، وأنت أبداً لن تكونين لي "

أغمضت عيوني عاجزة عن تحمّل رفضه لي، إنّها النهاية، نعم، لقد تعبت وما عدت قادرة على محاربة رفضه وجعله يستسلم. حتّى أنّي ما عدّت أريد المحاربة بعد الآن. أستسلم. وهو بدوره جلس على حافّة آلة رفع الأثقال حاجباً وجهه بكفيه محاولاً احتواء ما يختلج بداخله.

هناك حلّ وحيد لهذه المشكلة وهو رحيلي عن هذا المنزل، محاولة نسيانه والبدء حياة جديدة بعيداً عنه وعن كل ما يذكرني به. عندما تأكدت بأني قادرة على الكلام سألته وأنا أحاول تثبيت صوتي ليبدو واثقاً:

" أريدك أن تسلّمني حصّة والدي وأمواله بأسرع وقت ممكن "

رفع بصره الي ، متفاجئاً من طلبي:

" لم؟ أتحتاجين الى المال؟ فأنا أحول لك مبلغاً شهرياً وأراقب مصاريفك، مازال هناك مبلغاً وفيراً في حسابك"

" أريدك أن تعطيني حصّة والدي وأمواله، لأني أريد الرحيل من هنا. أحتاج الى الرحيل إيّان. لن نستطيع الاستمرار هكذا، فوجودنا في نفس المكان ورؤيتنا لبعض كل يوم لن يسهل علينا تخطي مشاعرنا. وأنا أحتاج الى البدء من جديد، بعيداً عنك وعن كل ما يذكرني بك "

وقف من مكانه يتلفت حوله حائراً بما يجيب :

" إذاً أنا سأرحل. ابقي أنت هنا وأنا سأجد مكانا أبقى فيه بعيداً عن هنا وعنك "

فاجأني حلّه، يريد ترك منزله بأكمله لي، كي لا أرحل. ما قصته هذا الرجل؟ أولا طلال ترك المنزل وتركني والآن هو مستعدّ لترك هذا القصر بأكمله لي أنا وحدي ولكنه ليس الحلّ المناسب، فأنا مازلت محاطة بكلّ ما يذكرني به وبحبّي له.

رمقته بإستغراب وتساؤل لأجده يراقبني بفضول منتظراً ردّي على اقتراحه :

" هذا الحلّ لا يناسبني إيّان. أريد الرحيل بعيداً عنك وعن كل ما يربطني ويذكرني بك. هذا منزلك ويحمل كل ذكرياتك، لن أقبل أن أبعدك عنه. أرجوك، جهز الأوراق اللازمة لاستلام حصّة والدي بينما أنا أرتب أموري للرحيل من هنا. "

بدت علامات العجز على وجهه، نفس الملامح التي رأيتها عندما قبّلني في غرفته، الألم والعجز والندم نفسه وكأنه لا يعرف ماذا يفعل أو كيف يتصرّف ولكنه بكلّ تأكيد لا يريدني أن أرحل. أمسك بذراعي وقال بصوت عاجز:

" أرجوك نور، أعرف بأنّي لا أستطيع إجبارك على البقاء هنا ولكنّي أرجوك أن تبقي، سأفعل أي شيء من أجلك ولكن لا ترحلي لا تتركي المنزل وترحلي "

ما الذي يحصل معه، أنا لا أفهم ما يدور في باله

" ما قصّتك إيّان؟ لم لا تريدني أن أرحل؟ بالعكس، رحيلي سيخدمنا نحن الاثنين معاً. طالما أنك لا تريدني، لم أنت مصرّ على بقائي هنا؟ أنا لا أفهمك "

مرّر يده على ذقنه بعصبية يتلفّت حوله بحيرة وكأنه يحاول عبثاً تذكر شيء ما أو إيجاد الكلمات المناسبة لقولها ثم عاد بنظره اليّ وقال بصوت رزين وبجدّية تامّة:

" لن ترحلي إلى أي مكان نور، أنت لست جاهزة بعد للعيش وحدك وتحمل مسؤولية نفسك وإدارة أعمال والدك، أنا المسؤول عنك وأنا أقرر متى تصبحين جاهزة لذالك "

أهذا ما توصل إليه بعد كل هذا، أن يمنعني عن الرحيل. شعرت بالدماء تفور في عروقي وبغضب شديد من كلامه فأجبته حانقة:

" سأرحل إيّان، لا تستطيع إجباري على البقاء. أنا الآن فوق السن القانونية وأنت مجبر على إعطائي ما لي عندك وتركي أرحل.

أوتعرف أمراً، سأترك المنزل اليوم، لن أبقى هنا ولا حتى لدقيقة إضافيّة. تحدّث الى محاميك، أريد استلام أموالي بأسرع وقت.أنت لست مسؤولا عني ولا شأن لك بي ولا بما أفعله "

" أنت مخطئة جداً ، أموالك تلك أنا المسؤول عنها ومن دونها لن تستطيعين الرحيل إلى أي مكان "

صدمني كلامه ، هل هو جاد ، اسيسرق ورثتي من والدي ويمنعني عنها ، أيعقل أن يفعل ذلك ، أيعقل أن يوقعني والدي بهكذا مأزق .

" أنت لست جادّاً اليس كذلك،أنت قلت لي بأنك ستسلّمني ورثتي حالما أكمل الثامنة عشرة"

كتّف ذراعيه عند صدره يجيب ببرودة تامّة مستلماً زمام الامور من جديد "لقد غيّرت رأي ، لن أعطيك شيئ "

وقفت أمامه عاجزة ، صامته ، أحدّق به ببلاهة تامّة ، لأشعر بضغط شديد برأسي ، إقتربت منه بخطى سريعة واقفةً بوجهه مرددةً " مع كل هذا سأرحل، حتى لو تحتم علي أن أجوع وأتشرد ولا أَجِد مكان أنام فيه سأرحل ،ولن أعود إلى هذا المنزل أبداً ،ولا أريد لأي شيئ أن يربطني بك"

أنهيت جملتي وإستدرت موليةً إيّاه ظهري متوجهةً نحو الخارج بخطى بطيئة مترددة، فقدماي ترتعشان من شدّة التوتر والغضب والألم، إنها النهاية ، وأنا لن أسامحه أبداً على فعلته تلك ، لن أسامحه ، شهقت شهقةً مكتومة ، لا أريده أن يراني أبكي ،لا أريده أن يرى الالم بعيني، وما لبثت أن وطأت قدمي عتبة المدخل حتى شعرت بذراعه تجذبني نحوه بإندفاع .

شهقت مصدومة مصطدمةً بصدره الصلب رفعت بصري اليه بنيّة تأنيبه لألاحظ نظراته الثائرة وأنفاسه الغير متناسقة وقبل أن أفتح فمي لأعترض على فعلته وجدتني بين ذراعيه تحتضناني بقوه، وفمه يجتاح فمي بشراهة.

أغمضت عيوني مستلذّةً من قربه وملاماساته ليحررني بعد لحظات قليلة مطلقةً تنهيدةً طويلة مردداً بألم واضح بنبرة صوته لاثماً أعلى رأسي:

"أنا أسف ، أسف ، أعتذر لك عن كل ما مضى وأنت إيّاك وتكرار فكرة الرحيل من هنا فهمت ، هذا منزلك ، وأنا وأموالي كلنا تحت أمرك ،ومن المستحيل أن أمنعها عنك ، أبداً"

احتضنته بشدّة ، لا أصدق ما يقوله ، هل أنا أحلم أم إيّان أخيراً إستسلم لمشاعري نحوه وقبلها " أبداً لن أتركك، طالما أنت تريدني بقربك لن أتركك إيّان ،أحبك كثيراً ولا أقوى على فراقك".

***

تركني إيّان وذهب الى غرفته ليستحمّ وأنا دخلت غرفتي لأراجع بعض المحاضرات ليوم الغدّ... أشعر بالسخافة، إذ عيناي تحدّقان بشاشة الحاسوب وعقلي يفكّر به . لا أستطيع التركيز على الدرس، أشعر بالسعادة العارمة والراحة. وأخيراً قبل بي واستسلم لمشاعره نحوي، أعرف بأنّه أمامنا طريق طويل ولكن على الاقل تخطينا المرحلة الاولى بسلام ، تنهدّت براحة وفرحة راميّةً بنفسي على السرير، احتضنت

الوسادة مغمضةً عيناي مسترجعةً اللحظات الجميلة ليلوح ببالي طلال ... طلال ... لقد نسيت طلال ... يبدو أن خطة طلال نجحت في النهاية. عليّ أن أتصل به وأخبره بما حصل، سيفرح كثيراً. اتصلت به عدّة مرّات وفي كلّ مرّة يجيب المجيب الآلي.

هذا غريب، أين هو يا ترى؟ عليّ أن أطلب من إيّان أن يتصل به ليطلب منه العودة الى المنزل.

***

دخلت غرفة المكتب لأجده جالساً وراء مكتبه، يعمل على حاسوبه.

رفع بصره الي عندما شعر بي أدخل الغرفة ابتسم لي إبتسامةً دافئة ثم عاد الى حاسوبه ينقرعلى مفاتيحه بسرعة وخفّة متناهية.

جلست أنتظر انتهاءه. شعره مبعثر ورائحته منعشة من صابون الاستحمام. يرتدي قميصاً أسود بثلاث أزرار مفتوحة عند الصدر. يبدو جذاباً وأنيقاً كالعادة

أنهى ما في يده ثم أغلق الحاسوب يناظرني بعينيه الزرقاوتين الساحرتين منتظراً ما سأقوله. أربكتني مبادرته وتركتني عاجزة عن إيجاد الكلمات المناسبة لأبدأ بها حديثي. فوجدتني من شدّة توتّري العب بأصابعي ، فسألني بصوت هادئ:

" ماذا هناك نور؟ لم انت متوتّرة هكذا؟ "

رفعت بصري إليه لأجده يناظرني بعينيه الواسعتين بحنان وكأنه يطمئنني لقول ما أريده فسألته متمتمةً:

"هل تحدّثت الى طلال؟"

"نعم تحدّثت اليه ، لم تسألين؟ اتحتاجينه في شيء ما، بإمكانك سؤالي، فأنا مستعد لتلبية حاجتك"

" لا ... لا أحتاج الى شيء ... ولكنه ترك المنزل غاضباً مقرراً عدم العودة، ولا يجيب على اتصالاتي. أنا قلقة عليه "

عقد حاجبيه وقال بنبرةِ لم أستطع تحديدها، أهي غاضبة أم فضوليّة:

" ما هذا الاهتمام الغريب والقوي الّذي يجمعكما؟ "

وجدتني أقضم أظافري توتراً وخجلاً. ما الذي يقصده بكلامه؟ رمقته بطرف عيني فرأيته ما يزال يراقبني عاقداً حاجبيه وقال:

" هلاّ توقفت عن قضم أضافرك ونظرتِ إلي "

فعلت متمتمةً" لا أريدكما أن تتشاجرا بسببي، لقد سمعتكما تتشاجران، وأنت طلبت منه أن يرحل. أنا خائفة عليه. فكلّ همّه كان إيجاد طريقة لمساعدتنا في ان نكون معاً. وها نحن معاً الآن، أرجوك اتصل به واطلب منه العودة الى المنزل "

" ومن أخبرك انه رحل؟ والى أين سيرحل؟ فهذا منزله كما هو منزلنا أنا وأنت ونحن وعائلته، لن يرحل إلى أي مكان "

" ولكن "

وقف من وراء مكتبه وجلس قبالتي مسنداً ذراعه إلى الطاولة.

" لا تقلقي، إنه بخير، لقد أرسلته لتفقد شحنات قادمة من ألمانيا سيعود الى المنزل فور انتهاءه "

لم أستطع إخفاء فرحتي مما قاله فأجبته بحماس:

" حقاً، هذا يعني أنه ليس غاضباً منك وسيعود الى المنزل؟ "

ضحك لضحكتي وقال: " لا ... ليس غاضباً مني، وسيعود للمنزل، هل أنت راضية الآن؟ "

وقف من مكانه واضعاً يده في جيب بنطاله وأنا وقفت أتراقص فرحاً: "نعم وسعيدة، سعيدة لأنك وطلال لستما غاضبين من بعضكما البعض "

لتختفي ضحكته فجأة عن وجهه ويشرد بعيناه بعيداً وكأنه يفكر بشيء ما، لمست وجنته بلطف:

" ماذا هناك؟ لا أراك سعيداً إيّان، أرجوك أخبرني بما يشغل بالك؟ "

ضمني إلى صدره برفق " لا تقلقي، أنا بخير، طالما أنت سعيدة وبخير،أنا بخير .لا تعرفين مدى أهميتك عندي، أنت روحي نور، روحي التي كانت ضائعة مني منذ زمن بعيد مضى، وعندما وجدتها، خفت عليها حتّى من نفسي فوجدتني أرفضها رغماً عني "

" أرجوك إيّان، لا أريدك أن تقلق طالما أنا بقربك، أحبك كثيراً ولن أجرؤ على أذيتك يوماً، أبدا ما حييت "

قبّل جبهتي مردداً: " يا ملاكي الصغير، أرجوك ، انزعي هذه الأفكار من رأسك، أنا لست قلقاً من ناحيتك، ورفضي لك يعود لأسباب خاصة بي أنا ولا دخل لك فيها من أي ناحية من النواحي. أنت رائعة وكاملة، رقيقة وجميلة ، فاتنة وطيبة وكل رجل على وجه هذه الأرض يتمناك لأنك تملكين كل الصفات الجميلة التي يتمناها كل رجل بامرأة حياته "

لا أدري ما الذي يحصل هنا بيننا. من المفروض أن تشعرني كلماته بالسعادة ولكن نبرة صوته الحزينة تقلقني وتخيفني، ما الذي يشغل باله، وكأنه يصارع نفسه. يا الله !!أرجوك ساعدني لأفهم هذا الرجل وأجد السعادة معه وأقدر على أن أغير حياته وأجعله يرى نفسه على حقيقتها، طيبة ورائعة وتستحق السعادة والأهم من كل هذا تستحقني.

أبعدني عنه بروّية قائلاً برفق " أرجوك نور، لا أريدك أن تعطي المسألة أكثر من قدرها، وأعدك مع الوقت ستتحسن الأمور وتصبح أكثر وضوحاً. هيا دعيني الآن لأكمل عملي، فطلال ينتظر مني إرسال بعض الأوراق المهمة لإنهاء عمله، وأنت حاولي أن تشغلي نفسك بشيء، هيا".

***

سمعت صوت هاتفي يرن من البهو فأسرعت الى غرفتي علّي ألحق به، لا بدّ أنه طلال، توقف عن الرنين قبل أن اصل اليه،.. إنه آدم ، كيف نسيت آدم وريتا، لا بدّ

أن ما حصل البارحة يثير تساؤلاتهما، كان يجب أن أتصل بهما منذ الصباح الباكر على الأقل لأطمئنّ على آدم بعدما أشبعه إيّان ضرباً بسببي.

أعدت الاتصال لآدم الذي ردّ من الرنة الثانية:

" ألو نور ، كيف حالك؟ "

" بخير، آدم أنا آسفة جدّاً، كان يجب أن أتصل بك لأطمئن عليك بعد الذي حصل البارحة ارجوك اعذرني "

" لا داعي للاعتذار نور، أنا بخير، وأنا كذلك الأمر كنت متردّداً بالاتصال بك، فأنا خجل جدّاً من نفسي، ما كان يجب أن أقبّلك أمام الجميع خاصة أني كنت أعرف بأنك ثملة. لا تظني بأني سيئ واستغليت وضعك ذاك. أنا أهتم كثيراً لأمرك ولا أدري كيف تطورت الأمور لتصل الى ذاك الحدّ."

سكتّ، لا أعرف كيف أجيبه ، فكل ما حصل، حصل بسببي، أنا التي استغليته وسألته ما إذ كان يرغب بتقبيلي. يالي من غبيّة ولا افكر بعواقب تصرفاتي.

" نور ... نور أرجوك قولي لي بأنك لست غاضبة مني. لم لا تتكلمين؟ "

" أنا آسفة آدم، لست غاضبة منك، ولكني لا أريدك أن تسيء فهم ما حدث البارحة، فأنا اعتبرك صديق وشقيق صديقتي العزيزة ليس أكثر من ذلك . وما حصل بيننا البارحة كان فعل طيش فتاة ثملة غير واعية لما تفعله".

" ولكني أريدك أكثر من صديقة،... فالبارحة أيقنت بأن ما يجمعنا أكثر من صداقة وتأكدت من أنك مهمّة كثيراً بالنسبة لي ...أنا مستعدّ لفعل أي شيء من أجلك "

يا الله ،يا الله، لا أريد الذهاب معه بهذه الطريق. كيف سأتخلص من هذه المشكلة دون خسارة صداقتي لرينا، بالتأكيد لن تتقبل فكرة ما فعلته بأخيها وما سببته له.

" نور ... لم لا تتكلمين؟ أهناك شيء ما يخيفك؟ أهذا الرجل إيّان كرم يهددك أو يضغط عليك؟ فأنا لم أفهم ما الذي دفعه لفعل ما فعله البارحة؟ ما شأنه بك؟ وكيف يسمح لنفسه بالتحدث اليك بتلك الطريقة؟ أنا مستعد لمساعدتك بأي شيء تحتاجينه. فقط ثقي بي "

" آدم أرجوك، لا اعتقد بأن موضوع كهذا يحل عبر الهاتف، ما رأيك أن أراك غداً بعد الدوام لنتحدّث ونحلّ سوء التفاهم الذي حصل بيننا "

" نعم،... نعم إنها فكرة جيدة، أراك غداً إذاً عند الثانية في المقهى، أيناسبك ذلك؟ "

" نعم، أراك غداً "

رأسي يؤلمني من كل هذه الضغوطات. ألا يكفيني إيّان ومشاكله ، وحتى طلال ومشاكله والآن آدم وما سيتبعه من مشاكل.

عليّ أن أُبقي إيّان خارج إطار الصورة ولا أُشعره بما يحصل وإلا، لا أعرف ما هو بقادر على فعله من أجلي هذا الرجل. فالبارحة لولا تدخل عمر وسليم وانتشاله عن آدم لكان قتله.

****

نمت البارحة قبل قدوم طلال، فلم أره عندما عاد، جهزت نفسي للجامعة ونزلت مسرعة لأفاجأ بإيّان بانتظاري في السيارة بدل طلال.

دخلت السيارة مذهولة من رؤيته، هذه أوّل مرّة أرى فيها إيّان صباح يوم العمل. فهو دائماً ما يستيقظ باكراً، إماً يكون في صالة الرياضة مع مدربه قبل أن يذهب الى الشركة، أو يكون عنده اجتماعات باكرة فيرحل قبل أن أستيقظ.

فرحت لوجوده كثيراً ولكن وجوده بدل طلال أقلقني. أيعقل أنه مازال غاضباً ولم يعد الى المنزل البارحة.

استقبلني إيّان بابتسامة رائعة، ناولني كوب القهوة وقال:

" صباح الخير، يبدو أنك تأخرت في الاستيقاظ، سنشرب قهوتنا في طريقنا الى الجامعة "

أخذت الكوب من يده أتساءل:

" ولم انت تقلني الى الجامعة؟ أين طلال؟ "

تغيرت ملامح وجهه عاقداً حاجبيه مجيباً " ألا أقوم أنا بالواجب، آنسة نور "

توردت وجنتاي خجلاً من ردّه ، يبدو أن سؤالي أثار غضبه " كيف هذا؟ بالطبع تفعل، ولكن غياب طلال يثير تساؤلاتي، إنها المرة الأولى التي يتغيب فيها عن إيصالي الى الجامعة "

"هذا لأني طلبت منه ذلك، أرسلته الى الشركة بدلاً مني لأفاجئك بي، ولكن يبدو أنها ليست بمفاجأة سارّة كما كنت أتوقعها "

إجابته أشعرتني بالضيق من فعلتي، ما الذي أفعله الآن؟ إنه محق فبدل أن أفرح لوجوده ورغبته بإيصالي بنفسه الى الجامعة أنهال عليه بالأسئلة عن طلال، هذا سيئ.

حدّقت به أتأمّله وهو منشغل بقيادة السيارة محاولةً درس ملامحه ولكني عجزت عن تحديد ما إذ كان متضايق مما حصل للتو أم لا، فناديته بتردد:

" إيّان "

نظر إليّ بابتسامة شفافة ورقيقة ثم عاد يركز بقيادته

" لا بدّ أنك تتساءل عن سبب اهتمامي الزائد بطلال وسؤالي المتكرر عنه" سكتّ لبرهة منتظرة ردة فعله فأعاد اهتمامه لي رافعاً حاجبه منتظراً ما سأقوله فتابعت " إنّه الآن يمرّ بحالة نفسيّة صعبة خاصة بعد افتراقه عن سارة، وأنا أشعر بأنّي مدينة له بالكثير، فهو ساعدني كثيراً على تخطّي مشاكلي معك وكان دائماً بقربي كلّما احتجته، وأشعر الآن بأنه يجب عليّ ان أردّ له الجميل وأحاول مساعدته على تخطّي مشكلة فراقه عن سارة. فأنا مدينة له بذلك "

بدت الحيرة على ملامحه وكأنه لم يفهم ما قلته

" أتقولين إنه انفصل عن سارة؟ متى حصل هذا؟ فهو لم يخبرني بأي شيء"

يا الله!!! يبدو أني أدخلت نفسي في متاهة سأعجز عن إخراج نفسي منها. يبدو أن طلال لم يخبره عن مشكلته مع سارة. إمّا لأنه لا يريده أن يعرف، وإمّا لم يتسنّ له الوقت بعد لإخباره. ماذا سأفعل الآن؟ نظرت اليه لأراه مايزال يرمقني بنظرة استفهام منتظراً منّي الإجابة:

تمتمت بتردد" لا بدّ أنه نسي إخبارك بالأمر بسبب كل الأحداث التي حصلت منذ وصولك الى المنزل فلم يرد إزعاجك بمشاكله هو الآخر. أرجوك لا تشعره بأنّك تعرف بالأمر، لا أريده أن يظنّ بأنّي أتحدث إليك عن حياته الخاصّة "

" ولم يخبرك أنت عن انفصاله عن سارة؟ "

ماذا سأفعل الآن، كيف سأبرّر معرفتي للأمر دون إدخال نفسي بالمشكلة؟ أيتها الغبية، ما الذي تفعلينه؟ أتفتّشين عن كذبة تلقينها في وجه الرجل الذي كنت تحاربين وستقتلين نفسك من أجله؟

شعرت بخجل وتوتر شديدين. عجزت عن النظر الى عينيه، قلت وأنا ألعب بكوب القهوة في يدي:

" كنت موجودة أثناء الشجار، حصل ذلك يوم عيد ميلادي في القصر، وأنت تعرفني فضولية وعنيدة، فبقيت وراء طلال حتى أخبرني بما حصل. ويبدو أنّ المشكلة كبيرة لأنّي دائماً أسأله عنها فيجيبني بأن الأمور مازالت على حالها بينهما "

" أهذا كلّ شيء؟ " سألني باهتمام وكأنه يتوقع المزيد

" نعم ... هذا كل شيء...ليس سهلاً عليه أن ينفصل عنها بعد كلّ هذه السنوات "

" لا تشغلي بالك بهما. طلال شاب قوي ولن تكسره مشكلة كهذه. هكذا هي العلاقات، تتضمن الكثير من المطبّات وعلى الإنسان أن يكون قويّاً وحاضراً لأي شيء في العلاقات العاطفيّة "

" لمَ أشعر أنّك تعطيني محاضرة ؟"

ضحك آخذاً بكفي، لثمه بلطف وقال " ربّما لأنّي أفعل "

أشعر بأنّ يدي تحترق في يده، وبأنّي خائنة ولا أستحقّ ضحكته ولا قبلته ولا حتّى إمساك يده الدافئة. أنا كاذبة، ولكن لم كذبت؟ لمَ شعرت بأنه عليّ إخفاء سبب المشكلة عنه؟

يا الله !! ما الذي يحصل معي؟

أوقف السيارة أمام حرم الجامعة ولكني لم أترجّل منها. أشعر بأني مكبّلة وعاجزة وصغيرة وكاذبة أمسك خصلة من شعري يداعبها وسألني بقلق:

" ما الذي يشغل بالك؟ "

ابتسمت له ببرودة محاولة قدر الإمكان إخفاء توتّري وما يجول في بالي وقلت:

" لا شيء مهمّ، ولكنّي متوتّرة بعض الشّيء من مواجهة أصدقائي بعد الذي حصل البارحة "

ولكي أزيد الأمور سوءً ، أشعرته بالسوء إذ ترك خصلة شعري آخذاً نفساً عميقاً وقال " أعتذر عن كل الإحراج الذي سببته لك . أنا آسف نور، ولكنّي لا أعرف ما الذي حصل لي عندما رأيت ذلك الحـ.... الشاب يقبلك، أفقدني صوابي "

اذا بقيت دقيقة إضافيّة داخل هذه السيارة سأفقد أعصابي مجهشةً بالبكاء كالأطفال ، ففتحت الباب وقلت : " حسناً، دعني أنزل لأواجه هذا الأمر، وأجد طريقة لشرح ما حصل دون التسبب بأضرار أكثر من التي حصلت."

نزلت من السيارة مسرعةً الى الداخل. لم أجرؤ على النّظر ورائي وإلقاء تحيّة الوداع إليه. اغرورقت عينايّ بالدموع وشعرت بضيق في صدري. ركضت مسرعة الى الحمّامات، دخلت واحداً منها ، أغلقت الباب ورائي ورحت أبكي وأبكي دون توقّف.

اتصلت بطلال الذي ردّ عليّ من الرّنة الأولى يسألني بقلق لحظة سمع صوتي الباكي على الهاتف:

" نور، ما بك ؟ ما الذي يحصل معك؟ لم تبكين؟ هل حصل شيء معك أو مع إيّان ؟ "

أجبته بصوت مخنوق وسط الدموع:

" طلال، لقد كذبت عليه،... نظرت مباشرة إلى عينيه وكذبت عليه ...أشعر بأنّي سأموت، كيف فعلت ذلك؟"

" أنا لا افهمك، على من كذبت؟ ولم؟ "

"أخبرته عن طريق الخطأ أنّك تشاجرت مع سارة. وعندما سألني عن السّبب، كذبت عليه...لم طلال؟ لم كذبت عليه؟ لمَ لم تخبره انت عمّا حصل؟ أخبرني أرجوك؟ لن احتمل مواجهته قبل أن أخبره بالحقيقة، ولكنّي لم أجرؤ على إخباره، أنا ضائعة وضميري يؤنبني، لقد وعدته بأني لن أؤذيه أبداً ولن أخذله أو أتخلّى عنه ، ومن ثمّ كذبت عليه عند أوّل فرصة سنحت لي، كيف هذا؟ لقد خنت ثقته بي طلال. فأنا الآن أكره نفسي كثيراً ولن أجرؤ على النّظر الى عينيه مجدّداً ...."

" لقد أخفتني نور، توقفي عن البكاء أرجوك كفّي عن البكاء وكفّي عن الكلام.
سنخبره معاً بكلّ شيء. لا تقلقي، فإيّان لن يأخذ المسألة كما تظنين ، سيتفهم سبب إخفاءك عنه الحقيقة، هيّا اهدئي واذهبي الى محاضراتك "

توقفت عن البكاء ، مسحت دموعي وسألته:

" أوتظن ذلك؟ لن احتمل خسارته، ستكون كارثة بالنسبة لي "

" لن يحصل ذلك، أعدك نور، هيا دعيني أذهب، سيصل إيّان قريباً وأنت تأخرت على محاضراتك، أراك لاحقاً؟ "

الفصل التاسع

لم أستطع التركيز في أي من محاضراتي . ماذا لو أساء إيّان الظّنّ بنا، خاصة الآن، بعد أن كذبت عليه وأخفيت عنه الحقيقة. لا اريده أن يظنّ بأنّ طلال يحبّني، إنّه صديقه الوحيد ولا أريده أن يخسره بسببي، لا أريد ذلك.

انتهت محاضراتي كالعادة عند الثانية، والآن عليّ مواجهة مشاكلي الأخرى مع رينا وآدم. رينا لم تخاطبني منذ البارحة، معها حقّ فأنا أخفيت عنها أكثر من حقيقة، خاصّة عندما أتتني فرِحةً لرؤيتها إيّان، لم أخبرها بأنّي أعرفه وأعطيتها فرصة للتعرّف إليه. يا الله !! إنّها معجبة به حدّ الجنون. فالمشكلة الآن لن تتوقف عند إخفائي الحقائق بل ستتعدّى ذلك بكثير. ما الذي يحصل معي وكأنّ مشاكل الدنيا تجمعت فجأة فوق رأسي.

دخلت القهوة ووجدتهم جميعاً عند الطاولة في الزاوية الشمالية تقدّمت نحوهم بخطى ثقيلة وخجولة. لا أعرف كيف سأواجههم جميعاً بعد الذي شهدوه مني بالحفلة .
رمقتني رينا بطرف عينها ثمّ عادت تتحدّث الى تمارة متجاهلةً وجودي. أسرع آدم إليّ فرحاً لرؤيتي، سليم وعمر أرسلا لي ابتسامة عريضة وأومآ برأسيهما يحيّياني. ألقيت إليهما ابتسامة خجولة وشغلت نفسي بتمارة ورينا، يبدو أنّ رينا لا تريد مخاطبتي ولكني سأجبرها على ذلك.

سألني آدم: " أنجلس الى طاولة لوحدنا، لنتحدّث على راحتنا "

منظره جعل قلبي يعتصّر عليه اذ شفّته السفليّة متورّمة وجبينه مقطّب وكل هذا بسببي، أجبته وأنا أحاول كبت صوتي المرتعش

" أعطني القليل من الوقت سأتحدّث الى رينا ثمّ آتي إليك "

أخذت كرسي وجلست بين رينا وتمارة اللتان تتحدثان متجاهلتين وجودي"يبدو أنّكما لا تريدان التّحدّث معي "

أجابت تمارة بسرعة: " ولم لا نريد التّحدث اليك، ولكن رينا لم تتوقف عن الكلام لتسمح لي بتحيتك، كيف حالك "

" بخير " أجبتها والتفتتّ الى رينا التي بدورها أخذت هاتفها وشغلت نفسها به لتعلمني أنّها لا تريد مخاطبتي

" رينا أرجوك، دعينا نتحدّث قليلاً، أنا أعرف بأني أخطأت معك ولكن لي أسبابي، اسمحي لي بتبرير نفسي وبعدها لك حريّة التصرف والاختيار، ولكن لا تأخذي هذا القرار قبل سماعي "

وضعت الهاتف على الطاولة وقالت زافرةً بحنق " كيف تريدين تبرير نفسك نور، أنا قضيت ليلة البارحة بأكملها أحاول إيجاد تبريراً لما فعلته ولكني لم أجد، أهكذا تردّين الصداقة بالكذب والخيانة "

" أنا لم أخنك رينا ولم أكذب عليك، فقط خبّأت عنك بعض الحقائق ليس أكثر "

ضحكت ضحكة ساخرة وقالت بعصبيّة وهي تحاول ترك وتيرة صوتها منخفضة: " هذا رائع، أصبح هناك فرق بين الكذب وإخفاء بعض الحقائق إذاً "

"رينا يبدو أنك حكمت عليّ قبل أن تسمعيني، لذا قولي لي أنّك ما عدت تريدين صداقتي مهما كان سبب ما حصل البارحة "

بدت حائرة وكأنّها تفكر بما تريده، أتريد صداقتي أم الغيرة أعمت بصيرتها وتركتها عاجزة عن تحملي بقربها، ثم قالت: " سأسمعك هاتي ما عندك "

تنهّدت بإرتياح لقبولها سماعي ، فأنا حقّاً أهتمّ لصداقتها ولست مستعدّة للتّخلّي عنها. قلت بتردّد وأنا غير واثقة من ردّة فعلها على ما سأقوله:

" إيّان كرم، هو الرجل الذي تركني والدي تحت عهدته قبل وفاته "

حدّقت بي مندهشة من كلامي " إذا هذا يفسّر بعض الأمور، ولمَ لم تخبريني بذلك عندما أتيتك كالمجنونة فرحة برؤيته وأخبرتك بأني معجبة به "

سكتّ لبرهة حائرة كيف أخبرها بحقيقة مشاعري له ثم تابعت:

" أنا مغرمة به رينا، أحبّه بكلّ جوارحي ولكنه كان يرفض حبي لأنّه يعتبر نفسه الوصي عليّ فرفض الفكرة كلياً وهذا الامر أفقدني صوابي وتلك الليلة شربت عن طريق الخطأ شراباً يتضمّن الكحول وثملت وتسبّبت بكل ما حصل عن غير قصد صدّقيني "

"لو كنت صادقة باعتباري صديقتك الوحيدة لما كنت خبأت عنّي كل هذه الأمور. أتعرفين بأنّي كنت أحاول ان أجمع بينك وبين أخي نور؟ وأخي ماذا سيحصل له بعدما تخبريه بأنّك مغرمة بغيره؟"

" رينا، أنا لم أخطئ بحقّ آدم، لم أعطه الفرصة ليظن بأنّي معجبة به وأنت أدرى بذلك "

أخذت هاتفها من جديد وقالت وهي تقلب صفحاته معلنةً إنتهاء الحديث:

" أظنّ بأني سمعت منك ما يكفيني. اذهبي الى أخي وحاولي أن تشرحي له سبب ما حصل له البارحة. فهو الى الآن يظن بأنّه هو من أخطأ بحقّك لأنّه قبّلك وأنت ثملة.

وأنا اعتقد بأنّك استغلّيت أخي لإثارة غيرة الرجل الذي تحبّينه وهو لا يريدك. وأعتقد بأنّك نجحت بفعلتك هذه. فما حصل البارحة أصبح واضحاً جدّاً بالنسبة لي الآن. ولا اظنني مستعدة لتخطي هذا الأمر، لذا اعتقد بأنّ صداقتنا انتهت نور"

إنّها تظلمني، أنا لم أخطّط للأمور كما هي تظن بها. أيعقل أنّها تظنّني سيئة الى هذه الدّرجة؟ أنا لست كذلك، لست سيئة ولكن ما حصل تلك الليلة جعلني ابدو كذلك.

حسناً ، على الاقل حاولت معها ، ولا أستطيع إجبارها على أن تكون صديقتي ، وأنا متأكدة بأني خسرت صداقة بقية الشلّة لأنهم أبداً لن يختاروني عليها ....جلت بنظري حول الطاولة أراقبهم جميعاً ، سأفتقدهم كثيراً ولكن ما باليد حيلة خسرت وخسرت .

اعتذرت من تمارة الجالسة عند الناحية الثانية من الطاولة تتحدّث الى سليم وعمر اللذان بدورهما ودّعاني وعادا الى حديثهما سويّاً.

ذهبت الى آدم الذي كان ينتظرني بعيداً عن الطاولة ، قادني خارج القهوة قائلاً: " دعينا نخرج من هنا ونجد مكاناً هادئاً نتحدّث فيه "

" حسناً فلنفعل " تبعته بين الجموع والطاولات.

طنّ هاتفي معلناً وصول رسالة نصية، إنه طلال يسألني عن موعد إنتهائي

أرسلت له رسالة سريعة أطلب منه فيها بأن يأتي لإصطحابي هكذا لا أطيل الحديث مع آدم.

" أنا جاهزة وبانتظارك عند المقعد الإسمنتي تحت الشجرة قبالة مبنى الفندقيّة " ثمّ قلت لآدم:

" دعنا نجلس عند ذلك المقعد، فالمكان هادئ ويبدو مناسباً لنا "

" ولم لا، هيّا بنا "

جلسنا بصمت نراقب بعضنا البعض بتوتّر، ننتظر أحدنا ليبادر بالحديث أوّلاً، فبادر وقال:

" يبدو أنّك على معرفة وثيقة بإيّان كرم "

" نعم، انتقلت للعيش عنده بعد وفاة والدي مباشرة، كنت تحت وصايته الى أن أكملت الثامنة عشر"

سألني بفضول: " والآن بعد أن أكملت الثامنة عشر، ماذا ستفعلين؟ هل ستبقين عنده؟ "

حيرني سؤاله، بم سأجيبه؟ لست مضطرّة لأن أدخل معه في تفاصيل حياتي وخاصّة فيما يخصّ وضعي مع إيّان، فاكتفيت بالصمت علّه يتخطّى هذا السؤال وينتقل الى الأهمّ ويبدو أنّي نجحت بذلك إذ تابع يقول:

" أنت لست مضطرّة الى تحمّله بعد الآن، يبدو أنّه متسلّط ويتحكّم بك. تحدّثت البارحة الى والدي وسألته عن إيّان وعندما ذكرت اسمك كاملاً امامه فاجأني أنه كان

يعرف والدك جيّداً وأنّه أقام عدّة صفقات معه.أخبرني أنّ خبر إفلاسه الذي أُعلن قبل وفاته بقليل كان مفاجأة للجميع في عالم إدارة الأعمال ولم يكن متوقع أبداً. "

التفتُّ اليه محدّقة به بتساؤل ، هل أحسنت سمع ما يقول ؟ أبي مات مفلساً ؟

كلامه صفعني بقوّة حادّة رامياً دلواً من الجليد فوق رأسي ، من شدّة البرد أعجز عن أخذ أنفاسي ، هذا رهيب ، هذا ، هذا ، حتى أني عاجزة عن وصف حالتي الآن .

مستحيل أنّ هذا الكلام صحيح...، لتبدأ الصورة الشاملة تتوضح تدريجياً رويداً رويدا ،موضِّحةً سبب اهتمام إيّان وطلال الزائد بي، أيعقل هذا؟

نزلت كلماته كالصاعقة عليّ، جمدت الدماء في عروقي وتركتني عاجزة عن النطق وكأنّ هناك يدٌ تضغط على عنقي وتتركني عاجزة عن التنفس.

صَمتَ قليلاً ثم تابع دون أن يلاحظ ما يحصل معي:

" أريدك أن تعرفي بأنّي مستعدّ لمساعدتك في أي شيء تحتاجينه، وأتمنى منك أن تعتبريني شخصا عزيزاً عليك تلجئين إليه في أي وقت، وأعدك بأن أكون حاضراً

متى احتجتني... لستِ مضطرة لتحمّل تسلط إيّان فقط لأنه يؤويك في منزله ويصرف عليك من أمواله، أنا هنا مستعد لكل ما تحتاجينه................"

هذا ما كان ينقصني ، أن أتحوّل إلى جمعية خيرية يريد الجميع مدّ يد العون لها ، مشردة يريدون إيوائها ، أنا ، أنا التي عِزَّة نفسها فوق كل شيئ ، لست سوى يتيمة فقيرة لا أملك شيئ .

ضربني طنين رنّان إجتاح سمعي لأشعر بنظري يتراقص حاجباً عني الرؤية بوضوح ، وعقلي اصبح عاجزاً عن التفكير. لم أعِ إلاّ وطلال يصرخ باسمي وهو يهزني بقوّة ثم صرخ بآدم:

" ماذا فعلت لها؟ ماذا قلت لها؟ تكلّم ؟ ... ... "

ثمّ عاد ووجّه كلامه إلي وهو يهزّني من جديد بعنف:

" نور أجيبيني، ما بك؟ ... ..."

حاولت الوقوف فخذلتني قدماي، إذ أشعر بهما ترتجفان عاجزتان عن حملي وزني . أمسكني طلال قبل أن أطأ الأرض وحملني الى السيارة.

أكلّ ما أعيشه كذبة؟ أهكذا اكتشف وبكلّ قسوة، حقيقة مرّة بأنّ حياتي كانت وهماً أعيشه بين جدران قصر آل كرم. وبأنّي يتيمة وعاجزة ولا مأوى عندي.

إن الحقيقة لقاسية، لا تعرف الرحمة، تسحق كل من يقف في طريقها غير مكترثة لهويّة أحدٍ منّا. وكأنها يدٌ جبّارة تسحقني وتدفعني نحو غيابات الأرض، تخنقني وتتركني عاجزة.

أشعر بحاجة لأن أصرخ ... أبكي وأنوح ... أدمّر كإعصار يثور ويسحق كل ما حوله. ولكني عاجزة، وكأنّ هناك يداً خفية تضغط على عنقي،حاجبةً نظري، وطنيناً قويّاً يصرخ في أذني، يتركني منفصلة عن عالم الواقع وعاجزة عن إدراك ما يحصل حولي.

شهقت بألم مقيت يجتاح أوصالي فاتحةً عيني عائداً لي بصري أسمع همهمةً ،عيناي تفتشان عن مصدر الصوت ولا تراه. ايبدأ الصوت يتّضح تدريجيّاً لأفهم فحوى كلامه، إنّه إيّان:

" أرجوك ... إبكي، أصرخي، ثوري ... لا تكبتي مشاعرك ،ستدمرك، لن أحتمل خسارتك... لا أستطيع خسارتك، أرجوك، أنا بحاجة إليك ... عودي إليّ، اسمعيني. "

بدأ إحساسي بالمحيط يعود رويداً رويداً كسمعي، إذ شعرت بأن أحدهم يحتضنني من الخلف، يحيطني بذراعين قويتين ونبضات قلب يتخبط على ظهري وأنفاس حارّة تنفث على عنقي، وجدت نفسي أتأرجح ومن يحتضنني يحاول مساعدتي على تهدئة نفسي. بدأ بصري يعود تدريجيّاً، فميزت مكان وجودي.

إنّني في غرفتي، على سريري وإيّان هو من يحتضنني ونبضات قلبه هي التي تتخبط على ظهري وذراعيه تحيطني برفق.

اغرورقت عيناي بالدموع وانهالت بغزارة، اليد الخفيّة التي كانت تضغط على عنقي وتمنعني عن التنفّس والبكاء بدأت تضعف تدريجيّاً. رحت أبكي وأبكي وأبكي، وكلّما بكيت كلّما ازدادت راحتي وازداد إدراكي لمحيطي.

استدار إيّان لمواجهتي، ضمّني الى صدره وهو يقول:

" أحسنتي، إبكي حبيبتي، إبكي ولاتتركي شيئاً داخلك، إبكي آلامك، أحزانك وخيباتك"

أمسكت قميصه بقبضتي وطمرت وجهي في صدره مسترسلةً بالبكاء أبكي وأتنهّد بشدّة حتّى شعرت بقميصه يرتوي بدموعي.

***

فتحت عيناي المتثاقلتين بالدموع الجافّة أتململ محاولةً التحرر من قيد ثقيل يكبح حركتي ، رائحة عطر إيّان الذكورية تجتاح حواسي بلطف ، رفعت رأسى لأكتشف بأنّي متوسدةً صدره الصلب وذراعيه تحيطانني بتملك مرهق ، العرق يتصبب من

جبهتي والحر الشديد يخنقني ، إيّان ما يزال في ثياب العمل قميص أبيض وبنطال رمادي داكن ، تململ هو الآخر يحاول جذبي إلى صدره ثانيةً ، عدّت مستلقيةً لأسمع ضربات قلبه التي تقرع كالطبول وأنفاسه المنتظمة ،تنهدّت بأسى مسترجعة فاجعة النهار، لأشعر بإختناق حاد يطبق على حنجرتي بعنف ، شهقت شهقةً مكتومة متململةً أحاول تحرير نفسي من قبضته ، حررت نفسي ببطئ وهدوء من قبضته وأسرعت نحو الشرفة المتصلة بغرفتي .

جلست على الأرض متكئةً الى الحائط لعلّ برودة الجو تساعدني على الاسترخاء.

أشعر بالغربة والغرابة... مع أنّي مازلت تلك الفتاة التي كنت عليها البارحة إلا اني اكتشفت اليوم حقيقة اليتم والوحدة والغربة. توفي والدي وهو لا يثق بقدرتي على تحمّل حقيقة إفلاسه وحمل هذا الهمّ الكبير وحده على ظهره. تركني أعيش في الظلمات حاملاً مأساته لوحده. قلبي يندبه ويبكيه من جديد وكأنّي اكتشفت وفاته البارحة. خاصّة بعد أن عرفت السبب الحقيقي وراء مرضه ووفاته وكأنّي كنت

في ظلال الماضي

أعيش في عالم منفصل عن عالمه حيث حرمني مشاركته مأساته وآلامه وأحزانه وتركني لأوهامي وأحزاني.

لا أعرف ما إذ يجب أن أغضب منه أم أحزن عليه، فأفكاري ومشاعري مشوّشة. وما يزيد من حزني وغضبي إيّان الذي لم يثق بي لإخباري بالحقيقة وحاول إخفاءها بكذبة أكبر. وتصرّفاتي المتهوّرة والمتطلّبة حيث كنت كلّما أردت التمرّد عليه سألته تسليمي حصّة والدي الغير موجودة أصلاً ،وهو أبداً لم يُشعرني بما يدور من حولي. أإلى هذه الدرجة أنا في نظرهم ضعيفة وعاجزة وغير صالحة للثقة. أهكذا وبلمح البصر أجد أنّ الأسس التي بنيت عليها مستقبلي وهميّة ولا وجود لها. ولم؟ لم كلّ هذا؟ لم كل هذا الكذب؟ لأكتشف فجأة أنّ حياتي كذبة ككرةٍ ثلجيّة كلّما تدحرجت كبرت حتّى خرجت عن السيطرة محطمةً جدران الثقة والصراحة بيننا. وأنا التي كنت أعيش في هذا القصر متفاخرة بنفسي وكأني مالكته بما فيه ،لأكتشف بأنّي لست سوى متشردة يأوونها في منزلهم.

أمل القادري

أطلّ إيّان من باب الشرفة يتفقدني مذعوراً ليتنفس الصعداء لحظة لمحني جالسة على الارض ، لا بدّ أنّ الخوف تملكه عندما استيقظ ولم يجدني في الغرفة. جلس بقربي بصمت متّكئاً الى الحائط.

كيف أثق به بعد الآن؟ وهو هذا الرجل المليء بالأسرار والخبايا، كيف أثق بحقيقة مشاعره تجاهي بعد كل ما حصل؟

سألته بصوت مهزوز " ما الذي حصل مع والدي، كيف وصلت به الأمور الى ما وصلت اليه؟ أريد الحقيقة إيّان، لا أريدك أن تراعي مشاعري وتعاملني على أنّي ضعيفة وغير قادرة على تحمّلها بكلّ مأساتها ومساوئها. أنا لم أعد طفلة إيّان ، وقادرة على تقبّل مصيري كما هو "

" لا شك عندي أنك قويّة وتستحقين الحقيقة كما هي " سكت لبرهة ثم تابع " أخفى والدك عنك الحقيقة لشعوره بالذنب حيال مستقبلك الغامض الذي رماك اليه بنفسه.

يقينه بأنه ليس لك سواه في هذه الدنيا حطم فؤاده وزاد من حدّة مرضه وعندما أدرك بأنّ أيّامه أصبحت معدودة لجأ إليّ طالباً مني إيواءك عندي وحمايتك "

" ألم تكن شريكه؟ كيف سمحت لهذا أن يحصل معه؟ لِمَ لم تنقذ الشركة من الإفلاس؟ "

" لم أكن شريكه ... كذبنا عليك بهذا الخصوص كي لا تحسّي بغرابة الموقف ونثير شكوكك.

لقد تعرّفت على والدك عندما اتيت الى لبنان، استعنت به ليساعدني على فهم السوق وحاجته وكيفية إدارة ممتلكاتي واستثمارها هنا. ثم توقفت اتصالاتنا بعد ذلك وانحصرت على لقاءات الصدفة.

تفاجأت عندما إستدعاني الى المستشفى ليطلب مني إيواءك ومساعدتك. كان اليأس يتملكه ولا يعرف كيف ينقذك من مصيرك الذي رماك إليه بنفسه.

كنت أنت السبب الوحيد لتمسكه بالحياة نور، كان يصارع الموت فقط لأنه كان خائفاً من تركك في ذلك الوضع... وحيدة وبلا مأوى"

سكنت صورة والدي مخيلتي في الفترة التي كان فيها بالمستشفى والبسمة لا تفارق شفتيه كي لا يُشعرني بقلقه وحزنه ومأساته بل تركها لنفسه تغوص به في المرض. لم فعلت ذلك بي يا أبي؟

انهمرت دموعي صامته ساخنة تحرق عيوني ووجنتيّ والألم يعتصر قلبي. ماذا كان سيحصل لي لو أنّ إيّان لم يأويني في منزله. سألته بصوت مخنوق وسط الدموع:

" لِمَ قبلت مساعدته؟ لِمَ قبلت استضافتي في منزلك وأنت لا تعرفنا ولست مديناً لنا بشيء؟ "

سكت لبرهة زافراً نفساً طويلاً وكأنه يتذكر أحداثاً بعيدة، أخذ نفساً عميقاً ملقياً برأسه الى الحائط مجيباً بصوت حزين عصر قلبي:

" إذ لم أكن مديناً لك ولوالدك بشيء، فأنا مدين للظروف والوضع الذي كنت فيه بكل ما أملك. عندما كنت بجانب والدك وهو يحتضر ويرجوني أن أهتمّ بك وأرعاك وأساعدك، تخيلت والدي مكانه، يمرّ بنفس الوضع،عندما كان يحتضر وشغله الشاغل ابنه الوحيد الذي سيتركه لهذه الدنيا وخباياها " أخذ نفساً عميقاً ثم أكمل وهو يحاول أن يضبط صوته على نفس الوتيرة الهادئة : " تركني وحيداً للقَدَرْ والحياة....لقد عشت ظروفاً لا أستطيع شرحها بالكلام نور، قاستني الحياة وآلمتني، ظلمتني وأذلتني وقضت على كل ما هو جميل فيّ ... لا أحد في هذه الدنيا يستحقّ أن يمرّ بما مررت به بسبب اليتم والوحدة. خسارة الأهل تكسر عنفوان الأطفال وتشعرهم بالذل والهوان، الظلم والأسى، تترك في قلوبنا وحياتنا فراغاً عميقاً ومظلماً لا يعوضه شيء " نظر إلي والألم يملأ عينيه وتابع "أبداً ... أبداً ما كنت لأسمح بحصول هذا معك .... أخفيت عنك الحقيقة لاني لم ارد أن أكسر قلبك وعنفوانك في آن واحد. كان يكفيك خسارة والدك. ظننت بأني احميك بهذه الطريقة "

" وكيف كنت ستسلمني حصة والدي بالشركة وهو خسر كل ما يملك؟ "

" بعد وفاة والدك مباشرة بيعت كل ممتلكاته بالمزاد العلني. اشتريتها وسجلتها مباشرة باسمك لكونك كنت قاصراً سجلت نفسي المسؤول عنها حتى تبلغين سنّ الرشد وتستلميها . إنها لك نور ... تعب والدك وحقك "

أيعقل هذا؟ فعل كل هذا من أجلي، حتّى قبل أن يعرفني. إستقبلني في منزله معيداً شراء كل أملاك والدي التي خسرها ، قبل أن يتعرّف عليّ. أنا لا أفهم. لم يفعل ذلك؟ ما الذي يدفعه للقيام بكل هذه الأمور من أجل شخص لا يخصه ولا يعنيه بشيء. أجبته بغصّة تخنقني " لا أريدها ... لا اريد منها شيئاً ... يكفي أنّي عشت في هذا المنزل ظنّاً منّي اني أصرف من مالي الخاص لأكتشف بعد ذلك أنه صدقة منك ولا حق لي فيه "

زحفت كفّه ناشدة الامساك بكفي المستلقية على الارض فجذبتها قبل أن تطأ يده متابعةً بغصّة مرهقة اشعر بها كأنّها سكيناً يغرس بقلبي بعنف:

" ما الذي يؤكد لي أن مشاعرك نحوي ليست نتاج شفقة؟ أنا لا أحتاج شفقتك ولا مالك. سأعيد لك كل ما صرفته علي. أنا ناضجة وقادرة على الاهتمام بنفسي. لا أحتاجك ... ولا أريدك "

وقبل أن أنهي جملتي، كان واقفاً أمامي، وبحركة خاطفة منه، جذبني من ذراعي موقفاً إيّاي أمامه. رغم الظلمة المحيطة بالمكان تنبهت لعينيه تستشيطان غضباً ليقول بصوت حادّ صارّاً على اسنانه:

" لن ألومك على ما قلتيه للتو، لأني واثق بأن غضبك هو الذي يتحدّث وليس عقلك وقلبك. ولكني أريد توضيح هذا اللّغط الذي تتحدثين عنه. لست أنا من يلعب بمشاعر فتاة بريئة بحاجة إلى حمايتي. لست بحاجة للتلاعب بمشاعرك لأحصل على غايتي وأنت أدرى الناس بذلك . لا أشفق عليك نور، بل أحسدك على قوتك وعزتك ... أنت لست ضعيفة.

لقد أحببت فيك إصرارك ومرحك، طيبتك وبراءة قلبك وصراحتك المفرطة ولكن أبداً لم أجد فيك صفة تدفعني إلى الشفقة عليك " لانت نظراته قليلاً وتابع بشغف: " أنت تحملين كل صفات المحارب الشجاع الذي يبقى صامداً في أرض المعركة حتّى النهاية ويعود منتصراً ومنتصباً ... نحن هنا جميعنا نحبّك ولا نشفق عليك، بل نشفق على انفسنا عندما نراك. "

كلماته صارمة وصادقة، عيناه غاضبة وحزينة. أردت أن أرمي بنفسي بين أحضانه ليواسيني ويخفف عني ولكني لم أقوَ على ذلك، غضضت نظري عنه عاجزة عن حبس دموعي السخية.

زفر نفساً حارّاً شعرت به يلفح وجهي ، حرّر ذراعي وهو يراقبني أبكي بصمت ليبتعد بعد لحظات متكئاً الى حافة الشرفة مولياً إيّاي ظهره.

بقيت لفترة حيث تركني، عاجزة عن الحراك أو التفكير، ثم جمعت قوّتي ودخلت غرفتي تاركة إيّاه في الخارج. استلقيت على السرير دافنةً وجهي بالوسادة أحاول التخفيف من الم رأسي الحاد الذي إجتاحني فجأة وبقوّة.

إنّها المرّة الأولى التي يتحدّث فيها عن ماضيه ووالديه. يبدو أنه عاش طفولة صعبة ومأساويّة، أثّرت على حياته وشخصيّته.

ماذا حصل له يا ترى ؟؟ لا شك أنّ تلك المأساة التي عاشها جعلت منه إنساناً أفضل يشعر بآلآم ومأساة الآخرين زارعةً فيه الإنسانيّة والطيبة ومراعاة المشاعر. إنه كالماس الذي لا يُصقل إلا عبر الضغط الساحق والعظيم.

شعرت بشيء يهتزّ بجانبي، إنتفضت فزعة للحظات قبل أن أستوعب أنّه هاتف،جلت بكفّي بين ثنايا الشراشف أفتش عن المصدر وإذ به هاتف إيّان.

إنه لشيء غريب، من يتصل بهاتفه في هذا الوقت الباكر، إنها الخامسة صباحا. أسرعت به إليه... لا بدّ أنه أمر ضروري ليتصلوا به في هذا الوقت. توقف الهاتف

للحظات ثم عاد يهتزّ من جديد. أخذ إيّان الهاتف من يدي مجيباً دون تفقد هوية المتّصل.

" نعم ... ماذا يحصل؟ ... منذ متى؟ ... هل تأكدتم من هويته؟

نعم، ليست المرّة الأولى ... لا بدّ أنّه نفس الشخص ... نعم، إنه يعرف كيف يبقي وجهه بعيداً عن كاميرات المراقبة، لا بدّ أنه يعرف بوجودها ... أنا آتٍ، لا تتحرّكوا من أماكنكم "

وضع الهاتف في جيبه وتوجه مسرعاً الى الداخل، لحقت به وأنا أسأله عمّا يحصل.

وقف عند مدخل غرفتي قائلاً بإرهاق بادٍ على محياه " لا تقلقي ... لا أظنّ بأنه شيء خطير ... يبدو أنّ هناك من يحاول التّسلل عبر السور "

"ومن يعقل ان يكون؟" سألته بقلق

" لا ندري بعد، عليّ أن أذهب لأتفقّد ذلك "

أسرعت اليه محاطة بهالة من الفزع والقلق " لا تخرج أرجوك ربما مازال هناك ويضمر لك السوء. دع الحرس يتدبّرون أمره "

لمس وجنتي برفق يناظرني بحنان " لا تخافي ، لقد رحل، واطمئنّي، لن أخرج خارج السور. ولكن عليّ الذهاب لمراجعة تسجيل الكاميرات علّنا نستطيع تحديد هويته. نحن هنا بأمان. " ضمني إلى صدره بتملك مرهق "حاولي ان تنامي قليلاً، شارفت شمس الصباح على الشروق سآتي إليك حالما أعود "

" لن انام ... سأنتظرك، لا تتأخر أرجوك " أجبته بإصرار واحتضنته بقوّة محتجزةً إيّاه ، لا أريده أن يرحل ويتركني.

أبقاني في حضنه لفترة ثم أبعدني بلطف قائلاً:

" لن أتأخر حبيبتي، أنت مرهقة وبحاجة للنوم، نامي قليلاً وأعدك عندما تستيقظين ستجديني هنا بقربك"

***

مضت أكثر من ثلاث ساعات وإيّان مايزال في غرفة المراقبة مع الحرس، لا بدّ أنّ الأمر خطير وغير مطمئن. من يعقل أن يكون؟ وما هو هدفه مما يفعله؟ ماذا لو كان يضمر السوء لإيّان؟ يا الله!!

لقد نفذ صبري في تمام الساعة الثامنة وما عدّت قادرة على الانتظار أكثر. أخذت حمّاماً ساخناً علّه يخفف من حدّة توتّري ويساعدني على الاسترخاء. بدلت ملابسي ونزلت الى الأسفل علّي اسمع خبراً ما يطمئنني. وجدت ليلى في البهو جالسة على الأريكة تحتسي قهوتها.

أتت إليّ حالما رأتني أسفل السلالم تسألني باهتمام شديد : "يا حبيبتي، كيف حالك اليوم؟ لقد أقلقتنا كثيراً عليك البارحة. أرجوك لا تحزني فنحن هنا كلّنا نحبك ونهتم لأمرك ونعتبرك فرداً من العائلة، بل جوهرها وروحها. فأنت لا تعرفين كيف كانت الحياة في هذا المنزل قبل مجيئك، كان فارغاً ومظلماً وبارداً ولا حياة فيه. لقد غيّرت

حياتنا وجلبت معك النور والدفء والفرحة. لا تحزني وافرحي ... لأنك أنت الفرحة بذاتها "

كلماتها أثّرت بي بعمق، حاولت كبت دموعي التي أصرّت على محاربة إرادتي، لقد شبعت بكاءً ولا أريد المزيد منه ولكن كلماتها وصوتها أضعفا إرادتي, احتضنتها مجهشةً بالبكاء المرير إلى أن سمعت صوت إيّان يهمس لي متلمساً كتفي برفق :

" ألا ترين أنك بكيت مونة السنة بأكملها، يكفي بكاءً، هيا امسحي دموعك ودعيني أرى ابتسامتك "

تركت كتف ليلى أناظره بعيناي الدامعتين محاولة أن أرسم إبتسامةً على شفتي.
جالت نظراته المتفقدة على ملامحي لتسري إرتعاشة طفيفة بجسدي لحظة مدّ يده يمسح دموعي بأطراف أنامله الغليظة برفق محددةً أطراف شفتيّ وقال مبتسماً وهو يراقبني بعينيه الزرقاوتين الواسعتين المرهقتين وبالهاتين العينين اللتين بنظرة واحدة منهما تنسياني هموم الدنيا وما فيها.

" أريدك هكذا دائماً، مبتسمة وتقهرين هذه الدموع بها، لأنك تملكين أروع ابتسامة رأيتها في حياتي"

إبتسمت بخجل جلي بدا على ملامحي وحمرة وجنتي ، فككت أسر نظراته لأفاجأ به يرمقني بمكر واضعاً طرف إصبعه على شفتيه وكأنه يتذوق طعم دموعي، حدّقت بفمه بعينين واسعتين أحاول إستيعاب حركته تلك .

وإذ بليلى تنقذ الوضع ممازحة " حسناً كفى تغزلاً بها وهيا الى المطبخ، لا بدّ أنكما جائعان جدّاً فأنتما لم تأكلا شيئاً منذ البارحة."

أخذني إيّان تحت ذراعه وقادني الى المطبخ :

" نعم أنا جائع جداً، هيا لنأكل "

" هل ستذهب الى المكتب اليوم؟ " سألته أمسح أنفي من أثر الدموع

" لا ... لن أذهب، سأبقى هنا بقربك. وأنت لن تتركيني وتذهبي الى الجامعة اليس كذلك؟ " سألني رافعاً حاجبه يناظرني برجاء بعينيه الزرقاوتين وكأنه يعرف باني أعشقهما وأشعر بالضعف أمامهما

شغلت نفسي باللعب بأصابعي كي أخفي توتّري وأجبته غير قادرة على كبت ضحكتي:

" لا ... لن أذهب "

وضعت ليلى الفطور أمامنا وانصرفت دون تعليق، محاولةً إعطاءنا بعض الخصوصيّة.

سألته: " هل تمكنتم من معرفة هوية الدخيل؟ "

وضع قطعة من رقائق الدجاج في فمه وقال: " لسوء الحظ لم نفعل، يبدو أنه لديه خبرة في كيفية إخفاء هويته عن كاميرات المراقبة، ولكن ما يشغل بالي هو ما هدفه مما يفعله؟ "

أخافني كلامه ، من يمكن أن يكون ؟!

يبدو أنه شعر بخوفي وقلقي فعلّق بمرح:

" لا تخافي، ربما يكون متطفل فضولي لا أكثر ولا أقل. لقد زدت الحراسة وإن شاء الله سنقبض عليه في المرّة القادمة. "

حدّقت بطبيقي أقلب الطعام فيه بشرود، لا أشعر بالجوع وقلبي مقبوضٌ يعتصر نفسه، يبعث فيّ شعوراً غريباً لا أستطيع تفسيره.

قرّب إيّان كرسيّه مني ،أمسك بيدي وقال بحنان وعيناه تراقبانني بقلق:

" أرجوك، لا تعطي المسألة أكثر من حقها، أعرف بأني أخطأت ولكني فعلت ذلك بقصد حمايتك لا أكثر ولا أقل "

رمقته بنظرة خاطفة ثم عدت الى صحني وقلت بخنقة:

" أنت لا تثق بي، وتعاملني كطفلة. ألم يكفي أنّ والدي مات بحسرته وأنا جاهلة بما يدور حولي، ثم أتيت أنت وأكملت خطته دون تردد. "

" والدك لم يطلب مني إخفاء حقيقة إفلاسه عنك نور ... كانت هذه مشيئتي ورغبتي بقصد حمايتك فقط لا غير "

رفعت بصري إليه حانقة وقلت بعصبيّة " ما هي مشكلتك أنت والحماية، منذ وصولي الى هذا المنزل وأنا أسمع هذه العبارة مراراً وتكراراً ، منك ومن طلال. أنت تريد حمايتي وهو يريد حمايتي، لقد سئمت منكما "

أخذ نفساً عميقاً ممرراً أصابعه بين خصلات شعره بعصبية وقال: " أنت لا تدركين حساسية وضعك نور. فأنت يتيمة الأم والأب، لا أقارب لديك تلجئين إليهم، لا تعرفين أحدا هنا، لا تملكين المال ومازلت قاصرة، نعم، أنت بحاجة الى الحماية والرعاية ،ونعم نحن هنا جميعاً مستعدين لتقديمها لك متى احتجتها"

أجبته بصوت مخنوق، ضعيف ومتردد: " ما الذي يؤكد لي أنك قبلت بي لأنك تحبني وليس لأني أصرّيت وضغطت عليك لتقبل بي، أو أنك تفعل هذا بداعي حمايتي "

لم أستطع كبت دموعي فانهمرت دون رادع. قلبي يؤلمني من فكرة أن حبّه لي مجرد استسلام وخوف عليّ. لا اريده أن يحبّني لأنه وجده الحل الوحيد للسيطرة على تمرّدي، نعم، لقد تمرّدت عليه وكثيراً حتّى أجبرته على القبول بحبي له.

أمسك بيدي من جديد، قرّبها الى صدره ، موضع قلبه ورفع بالثانية ذقني لإجباري الى النظر اليه وقال:

" أنكرت حبّي لك بقصد حمايتك، وليس العكس نور. فأنا بقبولي حبك ومشاركتك مشاعرك أتخطّى حدود حمايتك واخترق كل الخطوط الحمراء، لذا أرجوك انزعي هذه الأفكار من رأسك. توقفي عن البكاء وحاولي أن تأكلي قليلاً، فأنت لم تأكلي شيئاً منذ البارحة "

" لست جائعة "

" حاولي، ولو قليلاً، من أجلي، أرجوك "

رحت اقضم طعامي البارد ببطء محاولةً قدر الإمكان، ناولني كوب العصير يناظرني برجاء، شربته وأنا أراقبه يكمل طعامه بنهم. أنا حقاً أعشق هذا الرجل، وكثيراً ، أكثر مما كنت أتصوّر، أو حتى هو يتصوّر. فمن مجرد نظرة منه الي، أنسى هموم الدنيا وما فيها.

أنا الآن لست فقط أحبّه، بل مدينة له بحياتي ومستقبلي. فلولا وجوده في حياتي كان مصيري سيكون مجهولاً ورهيباً.

أنهى فطوره قبلي، وقف عن كرسيه على عجل وقال:

" سأذهب لاستحم وأبدّل ملابسي، لن اغيب عنك طويلاً "

وضعت الكوب من يدي وقلت مسرعةً: " لقد أنهيت فطوري، أريد القدوم معك انتظرني "

خرجت الكلمات من فمي دون رادع، وهو وقف عند الباب يتأملني والدهشة تتملكه،لأتنبّه لزلّتي، ما الذي دهاني؟ ولمَ سألته الذهاب معه؟ فهو ذاهب ليستحمّ.

رفعت بصري اليه أناظره بخجل لألاحظ ابتسامةً فاهية على شفتيه وكأنه يحاول ضبطها لمنعها من الظهور، وبخطى كبيرة واسعة ، عاد الي ، يناظرني بمكر وغموض، انحنى بقربي واضعاً يداً خلفي على حافّة الكرسي والأخرى أمامي على حافة الطاولة ، لأشعر به يحتويني بجسده ، لتفوح رائحته الممزوجة برائحة جسده الفريدة ، مسببةً لي دواراً طفيفاً ، لذيذاً .لأسمع صوته الواثق والهادئ والرهيب وكأنّه بدغدغ أعماقي :

" أتعرفين نور، ...لقد اكتشفت مؤخراً قدرةً في نفسي لم أكن أعرف بوجودها قبل تعرّفي عليك. فأنا لم أُجبر في حياتي كلها على محاربة رغبة اعترتني من قبل، أمّا معك، أجدني دائماً احارب رغباتي تجاهك، وأشعر أحياناً بأنك تستمتعين بتعذيبي

وإرهاقي ... فلولا تأكدي التام من براءة هذا العقل والقلب " أشار بإصبعه الى قلبي " لظننتك عكس ما أنت عليه تماماً."

كلماته ونظراته جعلتا قلبي يرتعش وجسدي يتوسل للمسة منه، ولكن الخجل سيطر علي وجعلني عاجزة عن الحراك، حولت نظري الى طبقي محاولة إلهاء نفسي عنه، لوهلة ظننت بأنه سيقبلني ولكنه لم يفعل، بل أنهى محاضرته وتوجه مسرعاً الى الخارج.

تأمّلت قفاه يبتعد مشدوهة الفاه ، لا أستوعب ما حصل للتو ، ما خطبه ؟؟يتصرف أحيانا بغرابة تُعجزُني عن فهم ما يقوله أو يفعله. هذا الرجل بالتأكيد سيسبب لي الجنون في نهاية المطاف.

****

أخذت الأطباق أنظفها من بقايا الطعام، ووضعتها في غسّالة الصحون، جلت بنظري في أرجاء المطبخ لأرى ما يمكنني فعله غير ذلك، وإذ بهاتفي يرن في جيبي،... إنها

رينا، هذا غريب، فالبارحة كانت ترفض مخاطبتي وأنهت صداقتها معي دون تردد، ما الذي يدفعها الى مهاتفتي، فتحت الخط وأجبتها:

" ألو نور، حمداً لله، هل أنت بخير؟ " أجابتني بقلق.

" نعم أنا بخير، ولما لا أكون بخير، ماذا هناك؟ "

" أقلقني آدم كثيرا عليك، قال بأنك إنهرت البارحة عندما أخبرك عن والدك، يا الله ، نور، لا تعرفين كم هو آسف على ما قاله لك، لم يكن يعرف بأنك تجهلين حقيقة إفلاس والدك كان قصده من كل ذلك تقديم الدعم لك لتشعري باهتمامه بك ليس أكثر "

"لا تقلقي رينا، أنا لا ألوم آدم على ما حصل، فهو لا ذنب له بكل ذاك . "

سكتت لبرهة ثم قالت: " اسمعي نور، لا أعرف كيف سأبدأ، أرجوك لا تسيئي فهم ما سأقوله "

" ماذا هناك رينا، تكلمي، لقد أقلقتني "

" البارحة عندما أخذك طلال ورحل، قلق آدم عليك كثيراً، خاصة عندما رآك مصدومة مما قاله وعرف بأنك لم تكوني على علم بتلك الحقيقة لذا ، حاول الاتصال بك مراراً وتكراراً الى أن أجابه إيّان، كان غاضباً جدّاً وهدّده بأنه إذا حاول التحدث اليك او الاقتراب منك سيلقى ما لا يعجبه منه"

" هل انت متأكدة رينا، لا اعتقد بأنّ إيّان قصد ما قاله حرفيّاً، ربما هدده لأنه كان قلقاً علي وغاضباً "

" لا أعتقد ذلك نور، لأنّ أبي طلب من آدم تنفيذ ما طلبه إيّان حرفياً لأنه قادر على إيذاءنا بكل سهولة اذا أراد.

ولكن آدم أخي وأنا أعرفه، إنه مصر عليك ومستعد لفعل أي شيء من أجلك، أرجوك نور، إنه أخي الوحيد ولا أريد أن يصيبه مكروه بسبب حبه لك. "

" وماذا تريدين مني أن أفعل رينا؟ "

" إذا خاطبك أقنعيه بانك تحبين إيّان، ولست مستعدّة للتخلي عنه واسأليه أن ينساك ولا يفكر بك من جديد . ولا تفتحي له المجال ليظن بأنك بحاجة الى مساعدته ، أرجوك نور. "

نبرة صوت رينا المليئة بالخوف على أخيها أخافتني وكأنّ إيّان رجل عصابات عمله إيذاء وترهيب الناس، إنه ليس كذلك ولكن لم يفعل إيّان هذا؟ أيعقل أن تصل به الأمور الى تهديد الناس في سبيل حمايتي؟ هذا ليس مقبولاً أبداً. أجبت رينا وأنا أحاول أن أتماسك نفسي لتهدئتها، لا اريدها أن تشعر بخوفي مما يحصل:

" سأفعل كل ما بوسعي رينا، أعدك بان أحاول حلّ هذه المسألة بأسرع وقت ممكن، ولا تخافي، مهما حصل أنا متأكدة بأن ما قالَه ايّان سببه القلق على صحتي ووضعي وليس لأنه يضمر السوء لأخيك، إنّه رجل طيب رينا ولا يقوى على فعل الشّرّ "

" أرجو ذلك "

ما الذي يحصل من حولي؟ أيعقل هذا؟ أشعر وكأنّي أصبحت فجأة نقطة مركزية تدور حولها كلّ أحداث اليوم والشهر والسّنة.

يا الله !هذا كثير، أكثر ممّا يمكنني تحمله. والآن تهديد إيّان لآدم. كيف يفعل هذا؟ هذا الرجل في بعض الأحيان يخيفني . هو وكلّ ما يخفيه من أسرار وخبايا.

***

ألقيت تحية صامتة إلى ليلى المنشغلة بمسح الغبار في الصالة وتابعت طريقي الى المكتب، جلست على الأريكة عند الزاوية بجانب النافذة الزجاجيّة العريضة المطلّة الى الحديقة ... بإمكاني أن أجلس هنا لساعات دون ملل. لا عجب أنّ إيّان يقضي معظم وقته عندما يكون في المنزل في هذه الغرفة بالذات اذ تضم كل أغراضه وأشياءه الشخصيّة والخاصّة.

دخل إيّان المكتب يتحدّث عبر الهاتف. لا بدّ أنّه طلال اذ يلقنه بما عليه فعله في اجتماع اليوم. لابدّ أنّ العمل يتراكم على رأسه، فالبارحة ترك المكتب باكراً من أجلي واليوم لم يذهب كلّيّاً.

سبقته رائحته المنعشة قبل وصوله الى جانبي، جلس على الأريكة المواجهة للنافذة، ابتسم لي ثم عاد إلى هاتفه: "حسنا طلال، أرنا قدراتك اليوم، كل ما عليك فعله هو التكلم بموضوعيّة والتمتع بكاريزما الإقناع على أن شركتنا هي الأفضل لتسويق منتوجهم....عليك ألاّ تترك لهم الخيار إلاّ بالقبول قبل ان يتركوا طاولة النّقاش...... لن آتي ......لا يهمّني .... نعم "

رمقني بنظرة جانبيّة وكأنّ طلال سأله عنّي ثمّ أجاب " حتّى لو اضطررت لخسارة هذه الصّفقة ...... نعم إنها بين يديك الآن ....لا تزعجني ولا تتصل بي إلاّ عندما تنتهي ...... أتعرف أمراً، حتّى أنّي لا أريد أن أعرف النتيجة، أيعجبك هذا. "

أغلق الهاتف وأعاده الى جيبه ثم أشار لي بأن انتقل الى قربه. لبّيت طلبه بفرحة عارمة، ذراعه ممتدّة على طول الأريكة فوق رأسي. وبخفّة تامّة أمسك عقدة شعري وفكّها عنه فارداً خصلاته يحاول تصفيفه بأصابعه لإعادته الى وضعيّة الاسترخاء على كتفي وظهري، رمقته مستغربة مما يفعله،فإبتسم إبتسامة خلاَّبة وعيناه تراقب خصلات شعري وهي تتدلّى على كتفي وابتسامته الماكرة لا تفارق شفتيه.

"ولكن لم فعلت هذا؟ .... الجو حار جدّاً، ولا اطيق شعري مفروداً هكذا" سألته متذمرة

" نعم معك حقّ، الجوّ حارّ ... وأنا لا أطيق أن أرى شعرك يكشف أماكن حسّاسة منك، فيوترني ويبعث فيّ رغبةً للقيام بأمور لا أريد حتّى التفكير فيها وأنا معك ..."

عقدت حاجبيّ رامقةً إيّاه بإستغراب" عن أي أماكن حسّاسة تتحدّث؟ ولِمَ توتّرك؟ "

ولكنه عوضاً عن إجابتي قرّبني اليه أكثر فألقيت برأسي إلى صدره واحتضنته . وجودي قربه يشعرني بالأمان، وينسيني هموم الدنيا ويعطيني الرغبة بالاستمرارية.

بقينا على حالنا لبرهة دون حراك أو كلام، نستمع الى أنفاس ونبضات بعضنا البعض وإذ بكلام رينا يجتاح أفكاري من جديد فابتعدت عنه قليلاً جالسةً بطريقة تسمح لي رؤيته بوضوح والتحدّث اليه بسهولة وسألته:

" هل تحدّثت البارحة مع آدم؟ "

رفع حاجبه وكأنّ سؤالي لم يعجبه وأجاب:

" نعم، ولم تسألين؟ هل اتصل بك اليوم؟ "

"لا، ولكني تحدّثت الى رينا وأخبرتني بأنّك هدّدته البارحة بعدم الاقتراب منّي أو حتّى مخاطبتي....."

"حسنا، ... وما المطلوب الآن؟ "

إجابته الباردة أشعلتني غيظاً، فأجبته غاضبة:

" هذا صحيح إذاً، أنت هدّدته،... ولكن لم فعلت ذلك؟ ماذا ستفعل؟ هل ستضربه كما فعلت منذ ايّام؟ أم سترسل أحداً ليقوم بذلك؟ أنظر إلى نفسك، تتصرّف كرجل عصابات، أم تريدهم أن يظنّوا أنك كذلك؟"

رمقني بنظرة غاضبة للحظات طويلة ثم ترك الأريكة ووقف عند النافذة مولياً إيّاي ظهره وقال ببرودة تامّة ونبرة حازمة:

" ليس من الضروري أن أكون رجل عصابات لأحميك منه نور. هناك ألف طريقة يمكنني أن أنفّذ بها تهديدي له دون المساس به أو إيذاءه جسديّاً ... لست مضطرّاً لاستعمال العنف لأقضي عليه وعلى كل من حوله اذا آذاك أو اقترب منك "

كلماته ونبرة صوته أثارتا ذعري،حدّقت به وكأني أراه للمرّة الأولى لا أعرفه، أجهله، وأجهل ما هو بقادر على فعله.

" أوتظن بأني سأكون سعيدة اذا أذيت أحداً من أجلي، لن أسامحك أبداً اذا فعلت أمراً كهذا. أشعر بأني لا أعرفك ... لست إيّان الذي عرفته وأحببته. إيّان الذي أحبّ لا

يجرؤ على إذاء نملة ولم أسمعه قط يستعمل قوّة ونفوذ المال في سبيل ترهيب الناس وإخافتهم، أنت لست كذلك "

وقبل أن أنهي جملتي وجدته قادم نحوي بخطى سريعة ، عيناه تستشيطان غضباً، تعابير وجهه مخيفة أثارت ذعري فتراجعت إلى الخلف بعفوية لتعترضني الأريكة خلفي . وقف قبالتي قائلاً بعصبيّة صارّاً على اسنانه:

" حتّى النعجة نور، إذا شعرت بالخطر يحوم حول صغارها، تصارع لأجل حمايتهم،لا اعتقد بأنّ هذا الأمر يحوّلها الى ذئب. محاولتي حمايتك، لا يعني بأنّي شرّير او ظالم أو عديم الرحمة، بل يعني أنّي ربّ عائلة يعرف كيف يحمي أفرادها عندما يحتاجون إليه"

" ليس بالتهديد إيّان " أجبته متوسلةً محاولةً إخفاء ذعري من كلامه وغضبه.

" في بعض الأحيان يكون هذا الحل الوحيد " أجابني بصرامة

" لا اريدهم أن يظنوا بك سوءاً" أجبته بحنان

" لا يهمّني ما يظنونه جميعاً، ولكن يهمّني ما تظنيه أنت "

أمسكت بساعده وقلت محاولة تهدئته:

" أنا اعرفك جيّداً وواثقة من حسن نواياك وأعرف بأنّك فعلت ما فعلته بدافع حبّك لي ورغبتك في حمايتي. ولكن أرجوك ... ليس بهذه الطّريقة ... لا أريدك أن تحميني بهذه الطريقة ... من أجلي، حاول إصلاح الأمر مع آدم وعائلته ، فوالده خائف منك كثيراً "

لانت نظراته وحدّة ملامحه وقال بنبرة ضعيفة وكأنّه غير مقتنع بما يقوله:

" حسناً،... سأرسل بطاقة اعتذار للعائلة بأكملها، من أجلك، كي تكوني سعيدة ومرتاحة ... ولكن " رفع سبّابته في وجهي منبّهاً " لن اسحب طلبي بعدم الاقتراب منك "

أجبته ساخرة: حقّاً ... وما نفع بطاقة الاعتذار، طالما أنك مازلت مصرّا على تهديدك؟ "

" إنّه طلب وليس تهديد ... سأسحب الـ "و إلاّ "وما بعدها " قال وهو يحاول أن يكبت ضحكته عنّي، رغم غضبي الشديد منه، إلاّ أنه أضحكني فوجدتني أرمي بنفسي بين ذراعيه المفتوحة لاستقبالي ورحنا نضحك معاً بشدّة.

الفصل العاشر

أخذ بيدي وخرجنا سوياً الى الحديقة الخلفيّة، سرنا يداً بيد بين الأشجار والنباتات حتّى وصلنا الى شجرة السرو القابعة على حدود الحديقة، جلس عند جذعها واتكأ اليه، فتح لي ذراعه كي أجلس بجانبه ففعلت، ظهري الى صدره وذرعاه تحيطان بي، ألقيت بمؤخرة رأسي الى كتفه وجلسنا بصمت نستمع إلى أصوات الطبيعة، ننعم بظلال الشجرة وهدوء الجوّ وجمال الطّقس. التفتّ اليه فوجدته مسترخياً كلياً رأسه مستنداً الى الجذع وعيناه مغمضتان.

وأنا أتأمّله تذكرت الليالي والساعات التي كنت أقضيها بجانب سريره أراقبه نائماً، ولكن هذه المرّة أعرف انّه مِلكي، وبأنّي ملكه، وأشعر بحبّه يدغدغ مشاعري وأفكاري وأحلامي. ولو خيّرت أن أقضي عمري كلّه أتأمّله وأنا جالسة ها هنا في حضنه الدافئ والحنون، ومال الدنيا وما فيها، لاخترته دون تردّد.

رفعت يدي أتلمس بشرته الملساء بأطراف أصابعي راسمةً درباً على معالم وجهه الوسيم أحدِّدُّ ملامحه، فتح عينيه الناعستين بتكاسل مبتسماً ابتسامة سلبت قلبي، همس آخذاً بيدي عن وجهه:

" حذاري ،أنت تلعبين بالنّار "

" هل تحبّني إيّان؟ " وجدتني في اللحظة التي سألت نفسي هذا السؤال نطقه لساني دون رادع وكأنّه خانني ووشى بي ... ولكن يبدو أنّ سؤالي ذكّر إيّان بنكتة مضحكة، اذ بدأ بالضحك دون توقف.

أغضبتني ردّة فعله على سؤالي، سألته حانقة:

" حقّاً ... ما الذي يضحكك فيما قلته؟ "

ظلّ يضحك لبرهة وأنا أراقبه بغضب شديد، إلى أن ضبط نفسه وقال وهو يحاول أن يضبط ضحكة أخرى

" حقّاً أنتِ ! ... أتسأليني إن كنت أحبّك؟ بعد كلّ ما فَعَلتِه وجعلتني أفْعله وتسألين؟ "

لكمت كتفه بقوّة مردفةً :

" ليس هناك من داعٍ للضحك على سؤالي ... كان بإمكانك الإجابة بكلّ بساطة"أردفت مبرّرة " لقد تساءلت فقط لأنك منذ فترة وجيزة فقط أخبرتني بأنّك لا تؤمن بالحبّ وبأنّ قلبك عاجز على أن يحبّ "

يبدو أن كلامي أعاد اليه ذكريات غير محبّبة إذ فجأة اختفت ابتسامته ليحلّ مكانها نظرة غامضة وحزينة.

أعاد برأسي الى كتفه وضمّني الى صدره :

" أحبّك نور،... وحبّي لك يعذبني، إذ يرغمني على تخطي الخطوط الحمراء لمبادئي ومعتقداتي. حبك أضعفني وعطّل أسلحتي وجعلني أستسلم لمشاعري. وها أنا في كلّ لحظة أحبك فيها أشعر بأنّي أغتصب براءتك وطفولتك "

كلماته حيّرتني وأخافتني. ما الذي يقصده بكل هذا؟ لم كل هذا الحزن والألم؟ لا أظنّ بأنّ هناك سبباً يمنعنا من حبّ بعضنا البعض . ومع كل هذا اراه حزيناً، معذّباً ومقهوراً وكأنّ حبّه لي فعلٌ محرّم عليه.

استدرت نحوه، لمست وجنتيه برفق، عيناه تراقبانني بكآبة وألم، جعل قلبي يعتصر حزناً عليه وقلت ملقنةً إياه:

" لا أريدك أبداً أن تفكّر بانّ حبّك لي يؤذيني أو يؤثّر عليّ سلباً بأي طريقة. بالعكس، أريدك في كلّ مرّة تشعر فيها بحبك لي، ان تتذكّر أنّك بكلّ بساطة تعطيني سبباً للعيش . من دونك إيّان، سأفقد رغبتي بالحياة، تذكر هذا دائماً".

أخذ بكفيّ عن وجهه ، لثمهما برفق ليضعهما بعد ذلك على صدره فوق قلبه لأشعر بنبض الحياة يقرع بإنتظام بين أضلاعه ، تنهّد بأسى مردفاً:

" قبل أن اتعرّف إليك كانت حياتي فارغة ومظلمة، خالية من المشاعر والأحاسيس والآمال.

كانت علاقاتي كلّها عابرة وباردة ،حتى أتيت أنت وقلبت عالمي رأساً على عقب ، وكأنّك صفعتني بلا رحمة ، وأيقظتني من حلم جميل ورقيق عشته لعشرة سنوات ، لأكتشف بعد ذلك أنه لم يكن سوى كابوساً كنت أعيشه مراراً وتكراراً. "

" طالما أنّ حبّنا غيّر حياتك للأحسن، فلم الحزن والألم إذاً؟ لم أرَ الأسى في عينيك والحزن في صوتك في كلّ مرّة تتحدّث فيها عن حبّك لي؟ "

ضحك ضحكة باردة لم تلمس عينيه وقال:

" صبراً عليّ ... فأنا مازلت مبتدئاً في هذه المسائل، حبك قلب كل موازيني ، واجتاح قلبي بمشاعر وأحاسيس لم أعتد وجودها أو عيشها من قبل. صبراً عليّ نور، صبراً عليّ "

أنهى كلامه مغمضاً عينيه ملقياً برأسه الى جذع الشجرة، مشّط شعره بأصابعه ليشبكهم عند مؤخرة رأسه، أخذ نفساً عميقاً وكأنّه يحاول احتواء مشاعره المتضاربة بداخله.

إنّه كالطفل الصغير الذي يستكشف عالمه المحيط به للمرّة الأولى أو كالأعمى الذي أضحى بصيراً وبدأ يعيش تجارباً جديدة لم يرها من قبل ولا حتّى في أحلامه. وكأنّه يرى الألوان، الطبيعة وما تحتويها، الشمس والقمر والنجوم والسماء والغيوم، الليل والنهار لأوّل مرّة في حياته.

وضعه يحزنني ، أشعر بالأسى حياله، لا بدّ أنّ المأساة التي عاشها لم تكن سهلة ولا بسيطة. ماذا فعلوا به؟ من هو السبب فيما هو عليه الآن؟

اقتربت منه واضعةً نفسي بخجل في حضنه من جديد. بقي على وضعيته ولكنه أحاطني بذراعيه وضمّني إليه.

ناديته بتردّد " إيّان "

"نعم" أجابني بتكاسل

" هناك سؤال يحيرني، هل يمكنك أن تجيبني عليه؟ "

" اسألي نور، ما الذي يشغل بالك؟ "

" من هي نايا ؟ وماذا فعلت لك لتجعلك لا تؤمن بالحب وترفض أن تشعر به، أو تعيشه من جديد؟ "

أنهيت سؤالي منتظرة جواباً ، ولكنه لم يجب، ساد الصّمت بيننا لدقائق ثم كسره قائلاً بغصّة:

" يا ليت المسألة بهذه البساطة، سؤالٌ وجواب... أنا آسف نور، لن استطيع الإجابة عن سؤالك، لأنّ المسألة تتخطى حدود الحبّ والخيانة، الجراح والقلوب المكسورة. إنّها طفولتي ومراهقتي وماضيّ بأكمله، لا أريدك أن تدخلي في متاهاته ومأساته.

في بعض الأحيان، العيش في ظلمات الحقيقة يجنبنا إدراك بشاعتها وحقارتها، وأنت نور، أنقى من أن تعرفي ذلك الجزء المظلم من الحياة وقذارتها. "

" أنت تخيفني بكلامك هذا. أرجوك إيّان، كلّ ما اريده هو مساعدتك على تخطّي هذه الأمور والبدء معي حياة جديدة. فأنا أحبّك كثيراً ولن أحتمل فراقك لأي سبب من الأسباب لذا أرجوك ساعدني لأفهمك وأساعدك"

قرّب فمه من عنقي نافثاً بأنفاسه الحارّة بين خصلات شعري:

" وهذا ما أحاول فعله، انا أحاول نور ... أحاول بكلّ جوارحي وبكلّ قدرة لديّ، من أجلك أنت فقط، من أجلك حبيبتي. "

وبحركة عفوية أزاح خصلات شعري عن عنقي طابعاً قبلة خفيفة بأنفاسه الحارّة. أغمضت عيوني محاولةً إحتواء مشاعري ورغبتي إتجاهه.

أنا أعشقه بكلّ ما يحتويه من أسرار وأحزان وآلام، من قوّة وضعف،عزّة وكبرياء.

أجده قويّ الشخصيّة، شامخاً بين أصحابه وأمام موظفيه وعمّاله، الكلّ يخافه ويهابه ويسعى لرضاه. وبين أحضاني، أجده كطفل صغير يسعى للحصول على الحبّ والحنان وقلبه يفيض بهما. إنّه ملاكي الحارس الذي يحميني، وملاكي الحبيب الذي أعشق.

***

" أين طلال، ألم يعد بعد؟ " سألت وأنا اسكب الطعام في طبقي.

" سيتأخّر اليوم، ارسل رسالة يخبرني فيها بأنّه يعاني من مشكلة في استلام الشحنة عند المرفأ "

" يا للمسكين، فهو غارق في العمل منذ الصباح الباكر"

رمقني بنظرة جانبيّة وكأنّ كلامي لم يعجبه قائلاً بجدّيّة مبالغة:

"وإلى ماذا تلمّحين آنسة نور؟ "

" أرجوك سيّد إيّان، لو أنّ هناك شيئاً ما في بالي لقلته دون تلميح" أجبته بنفس الجدّيّة.

ضحك " في هذه معك حقّ. فأنت لا تعرفين كيف تخبئين ما يختلج في صدرك، لجوجة، مندفعة ولا تفلترين كلامك أبداً "

إبتسمت ببلاهة وخجل جلي على ملامحي ، إنه محقّ، أنا لجوجة ولا أفلتر كلامي،فركت كفّي المتعرقين ببنطالي أحاول إستعادة رباط جأشي وسألته هامسةً " أتزعجك صفاتي هذه؟ "

هزّ برأسه مجيباً " أبداً نور، هذه الصفات هويّتك وميزتك الفريدة من نوعها، هي التي جعلتني أقع اسير حبك، صدقك وعدم قدرتك على الكذب حتى لو حاولت، هي من أكثر الصفات التي أحببتها فيك"

كلامه زادني خجلاً وبلاهة فسألته محاولةً خلق جو مرِح " يبدو أنّ هناك صفات أخرى أحببتها فيّ "

" بالطبع هناك، ومع الوقت سأكشفها لك جميعها "

" ولم ليس الآن؟ "سألته بفضول

رفع حاجبه مدّعياً التفكير " هذه مثلاً، صفة أخرى أحبّها فيك وكثيراً، فضولك وعدم صبرك "

ضحكت مشيحةً بنظري عنه ، أهزّ برأسي عائدةً الى طبقي مغتبطةً بأنه يحبّ كلّ صفاتي السيئة والرهيبة.

" سأستأذنك بعد العشاء لإنهاء بعض الأعمال العالقة في المكتب"

" ولكنّك وعدتني بأنّك لن تعمل اليوم " أجبته متذمرة

" نعم فعلت، ولكني مضطرٌّ حبيبتي، فقط لساعة أو أكثر, عليّ إرسال مستندات يحتاجها طلال لإنهاء ما يقوم به "

مع انّ الفكرة لم تعجبني، إلاّ انّ الوضع لا يسمح لي بالتذمر، وخاصّة أنّ المسألة تخصّ مساعدة طلال في إنهاء عمله العالق.

تركت إيّان في مكتبه يعمل، وصعدت الى غرفتي لأراجع بعض المحاضرات ليوم غد. إنّها فرصتي أنا كذلك الأمر لإنهاء بعض الدروس العالقة. جلست على الأريكة بجانب الشرفة أُقلِّب صفحات محاضراتي، يا الله، إنّها كثيرة وتحتاج الى وقت طويل لإنهائها ...... فتحت المحاضرة الأولى وبدأت فيها ... .

يبدو أني غطيت بنوم عميق لأستيقظ على صوت إيّان الهادئ يهمس لي حاملاً إيّاي بين ذراعيه الصلبتين لينقلني إلى السرير "هاي أيتها النائمة ، دعيني أنقلك إلى السرير"

تنهدّت بتكاسل ملقيةً برأسي إلى كتفه أحيط عنقه بذراعي بتملك متمتمةً بغفوتي " لقد تأخّرت كثيراً، فأنا أنتظرك منذ فترة "

وضعني في السّرير لأسمع ضحكته الخافته "وأنا أنتظرك منذ زمن. آسف حبيبتي، لم أنتبه لمرور الوقت، أعدك بأن أعوضك قريباً. هيا نامي الآن. أحلاماً سعيدة يا ملاكي الصغير " قال طابعاً قبلة خفيفة على رأسي يغطيني بإحكام.

تململت بالسرير أفتش عنه ، أريده أن يستلقي بقربي إلى أن أعود وأغفى من جديد ولكنّه أطفأ النور مغلقاً الباب وراءه قبل أن تتسنّى لي الفرصة لأن أطلب منه البقاء فعدت الى عالم أحلامي من جديد.

****

استيقظت من نومي وأنا أحلم بإيّان وبابتسامته. أشعر اليوم بسعادة مفرطة ونشاط زائد، وكأنّ قلبي يريد أن يقفز من مكانه ويركض إليه ... ...

جهزت نفسي للجامعة ونزلت للإفطار لأجد طلال بانتظاري يقرأ جريدة الصّباح ويحتسي قهوته.

" صباح الخير طلال " ألقيت اليه التحية وجلست قبالته، رفع رأسه عن الجريدة يراقبني بغرابة وكأنّه يراني للمرّة الأولى ثم قال:

" كيف حالك اليوم؟ "

" بخير، أحاول أن أشغل نفسي كي لا أفكر بكل ما حصل في حياتي لأني إذا بدأت بالتفكير فسأجنّ "

" ستكونين بخير، فنحن كلّنا بقربك لندعمك ونهتم بك "

"شكراً طلال، أشكرك من كل قلبي على كلّ ما فعلته من أجلي حتّى الآن "

"أنا لم افعل شيئاً نور. أنت وإيّان تستحقان ما هو الأفضل وأرجو أن تتمكّنا من إسعاد بعضكما البعض."

" ارجو ذلك."أجبته بتنهيدة " وأنت، هل تصالحت مع سارة أم مازلت في فترة النقاهة ؟ "

"لا، لم نتصالح بعد " أجابني ثم عاد الى جريدته وكأنّه يسألني أن أغلق الموضوع.

مكابرته أثارة حنقي ، لا يريد أن يتحدّث بالموضوع ولا يريد مصالحة سارة ومع كل هذا يبدو ضائعاً من دونها فقلت بحنق محدّثةً نفسي "يتهمني بالعناد وهو أعند مني بمراحل. على الأقل عنادي إيجابيّ. أمّا عنادك بم تصفه؟"

ثنى الجريدة ليفسح مجالاً لرؤيتي بوضوح وقال حانقاً:

" لقد جرحَتني نور، اتهمَتْني بالخيانة ، ليس فقط خيانتها، بل خيانتكما أنت وإيّان، جرّدتني من مبادئي. وما زاد الأمر سوءاً، هو ما فعلته وقالته عند العشاء. لم يحق لها البوح بما باحت به أمامك. لقد خانتني، لذا لا، ... لا أعتقد بأنّي مستعدّ لتخطّي الأمر بعد"

" ولكنك مازلت تحبّها وتفكر بها، لا تنكر ذلك، فأنا دائماً أراك شارد الذهن، حزين ومهموم. هناك دائماً مجالاً للتسامح عندما يكون الحبّ صادقاً، لذا أتمنّى أن تتصالحا قريباً "

" حسناً، كفى كلاماً، ستتأخرين على محاضراتك، هيا بنا "

وضعت حزام الامان أسأله" كيف كانت صفقة البارحة ؟ "

" لا تذكريني بالبارحة، كان نهاري شاقاً ومتعباً وكل ذلك بسببك "

" ولم؟ "

" كي يبقى إيّان بقربك، تركني وحدي أعمل عمل أربعة. "

" أُف، لو كان إيّان معك، كم عدد الذين كنت ستقوم بعملهم ؟ "

" واحد " أجابني رافعاً سبّابته بوجهي مشدّداً على واحد، رمقته رافعةً حاجبي بتساؤل " والثلاث البقيّة؟ "

" ومن غيره؟ بالطبع إيّان، إنّه يعمل كالآلة، هذا الرجل متعة حياته العمل دون كلل. فأنت لم تريه وهو يناقش صفقاته. ترغبين فقط بمشاهدته والاستماع الى حججه الغير قابلة للنقض أو النّقاش. سلس، مقنع، جذاب لا أذكر بأنه خسر صفقة أرادها لنفسه أبداً ... حتى انّه لا يقوم بمجهود يذكر لها "

ولم الاستغراب، إنّه يتحدّث عن إيّان. فهو ليس فقط متربعاً على عرش شركاته وأملاكه ويديرها بطريقة سحريّة، بل متربع أيضاً على عرش قلبي وروحي ويدير حياتي بطريقة سحريّة رائعة وخلاّبة.

" ماذا يحصل هنا؟ " سأل طلال مخففاً سرعة السيارة ، اذ هناك جيب أسود كبير بنوافذ مفيمة يقف منتصف الطريق قاطعاً مرور كلا الاتجاهين، يبدو أنه معطّل، إذ غطاء الموتور مفتوح وأحدهم يقف أمامه، رؤيته محجوبة عنّا.

أوقف طلال السيارة مستغرباً وجودها:

"هذا غريب، ماذا يفعل هذا هنا في هذا الوقت؟ إنه طريق فرعيّ ولا يدخله إلاّ القاصد القصر، لا بدّ أنّه أضلّ طريقه، سأنزل لأرى ما خطبه " ثمّ قال قبل أن يغلق الباب " ابقي في السيارة، وأغلقي نافذتك "

استغربت طلبه ولكني نفّذته بالحال، أغلق الباب وتوجه نحو السيارة الاخرى، اختفى أمامها لبضعة لحظات قبل أن أفاجأ بهما يتصارعان ، نقف قلبي فزعاً ، وأنا أرى طلال يدفعه بعيداً مانعاً إيّاه للوصول إلى شيئ مرمي أرضاً ... تجمدت للحظات، لا أعي ما أراه، يا الله!!! إنهما يتصارعان بعنف، ماذا عليّ أن أفعل؟

أخذت محفضتي أفتش عن هاتفي من شدّة توتّري وارتباكي عجزت عن إيجاده ثمّ وجدته فعانيت من فتحته، وبعد عدّة محاولات، اتصلت بإيّان الّذي ردّ عليّ من الرّنّة الأولى بصوته المرح والطيب :

" مرحباً حبيبتي، كيف حالك ؟ "

حاولت النطق للإجابة عليه ولكني عجزت، جسدي وصوتي يرتعشان ليخرج صوتي متلعثماً شدّة الخوف والذعر غيرمفهوم ،عيناي لا تفارق طلال الذي يحاول عبثاً نزع يدين ذاك الرجل عن عنقه.

" ماذا هناك نور؟ أجيبيني، لقد أرعبتِني " سألني إيّان مذعوراً

" يا الهي سيقتله، قل لي ماذا عليّ أن أفعل، كيف أساعده؟ أنا خائفة "

" من سيقتل من ،نور ؟ أنا لا أفهمك, أين أنت؟ أين طلال ؟ "

" رجل، هناك رجل يتشاجر مع طلال، سيقتله، سيقتله "

"أين أنتم؟ .... أجيبيني ؟ "

تلفتّ حولي متمتمةً" مازلنا على الطريق الفرعيّة للقصر ... أنا ... أنا في السيارة ... وطلال في الخارج "

شهقت صارخة لحظة رأيت طلال يقع أرضاً فاقداً للوعي والدماء تسبح من رأسه، صرخت على الهاتف مذعورة " لقد قتله، إيّان، لقد قتله، إنّه على الأرض، لا يتحرّك، ماذا أفعل، أخبرني "

"إهدئي حبيبتي ، لا تخافي، لقد أرسلت رجال الأمن إليكم، وأنا آتٍ، أقفلي الأبواب والنوافذ ولا تخرجي من السّيّارة ، إتفقنا ، وأبقي معي على الهاتف ، لا تغلقي الخط ، أنا معك "

" إيّان، إنه ، إنه يحمل مسدس ، إنه قادم نحوي"

صرخ إيّان على خط هاتفه الثاني مثيراً ذروة ذعري " أين أنتم ، الم تصلوا اليها بعد " ثمّ عاد الي يخاطبني بصوت هادئ محاولاً التخفيف من خوفي " أنا قادم ، أصبحت قريباً منك لا تخافي "

"أحبّك إيّان ، أحبّك كثيراً وأعرف بأنك ما زلت بعيداً كثيراً عنّي ، أعرف" قلت شاهقة عاجزة عن إمساك الهاتف أكثر فوقع مني لحظة صرخ بي الرجل أن أفتح الباب .

رفع المسدّس نحوي مشيراً لي أن أخرج من السيارة. صوت إيّان مازال على الهاتف يصرخ باسمي ويسألني أن أجيبه. تلفتُّ حولي أتفقد أقفال الأبواب لأتأكّد من أنّها محكمة الإغلاق، قلبي يقرع بين أضلاعي كالطبول الهندية ، جسدي ينتفض إرتعاشاً وأنفاسي تخرج متقطعة متسارعة ، إذ به يشرع بضرب النافذة بمؤخرة المسدس لينشطر تحت يديه ،صرخت حاميةً وجهي من شظايا الزجاج الذي إجتاح المكان ، فتح الباب وسحبني خارج السيارة بدون مقدمات جاذباً إيّاي نحو سيارته .

دفعته عني صارخةً به " دعني .. ماذا تريد منّي؟ ... أتركني "

حاولت مقاومته،جذبت شعره، لكمته بعنف محاولةً تحرير نفسي من قبضته دون جدوى، إذ في نهاية الأمر حملني الى سيارته،ملصقاً يداي وقدماي مكمماً فمي،

عصب عيناي بقطعة قماش ورماني في الصندوق. وبعد لحظات، انطلقت السيارة بسرعة هائلة نحو المجهول.

خوفٌ رهيب إستملك كياني ، مرتعبةً من القادم ، ماذا يريد مني ؟؟ هل سيقتلني ، هذا رهيب ، وطلال ، لقد قتل طلال .

توقفت السيارة بعد فترة من القيادة السريعة وبعد لحظات فتح الصندوق وسحبَني منه بعنف، حاولت منعه من لمسي أو حملي ولكنّي عجزت عن ذلك. حملني على كتفه يخاطبني بلغة عربيّة ثقيلة: " اهدئي، كفّي عن المشاغبة، كوني عاقلة ولن يصيبك مكروه"

وبعد بضعة دقائق من المشي وبضع أقفال سمعته يفتحها دخل بي مكاناً بارداً ورطباً ورماني أرضاً لأسمع صدى صوت خطاه تحوم في المكان، لا بدّ أنّ المكان فارغ وكبير نظراً لقوّة الصّدى، أنا لا أرى شيئ ، مازالت عيناي معصبتان وهذا أسوأ ما في الامر اذ لا أعرف ماذا يجري من حولي .

بعد صمتٍ دام لفترة سمعته يتحدّث بالإنكليزيّة بطلاقة، يبدو أنه يتحدّث عبر الهاتف إذ كان يسكت لبرهة بين كلّ حديث وآخر دون أن أسمع ردّ المتحدّث إليه.

" وأخيراً سنلتقي مجدّداً ... ألم أقل لك أنّه في المرّة القادمة سأجعلك تأتي إلي بنفسك... ... .. نعم فأنا أنتظر هذه اللحظة منذ عشر سنوات، لا تعرف كم كانت طويلة ومملّة. ولكن ما تركني أصبر عليها صورتك أمامي كلّ يوم تذكّرني بما أريد فعله عند خروجي من السجن.

... . لا أعتقد بأنّ وضعك يسمح لك بالتفاوض معي ... ... على كلّ حال، لا حاجة لي بها، استعملتها كطعم لاستدراجك ... ... في الحظة التي تسلمني فيها نفسك سأتركها تذهب بسلام.. ... ..هاي انتبه، إذا شعرت أنّك برفقة أحد سأقتلها دون تردّد وسأجد طريقة لأجدك وأقتلك. نظام الحماية في منزلك ساعدني كثيراً في خطّتي، لذا لا تكن غبيّاً واعلم بأنّي سأراك عن بعد وسأعرف ما إن كنت وحدك أم

لا .. .. سأتصل بك لأعطيك التعليمات " أقفل الخطّ ثم سمعت خطاه تبتعد تدريجيّاً حتّى اختفت.

شهقت متعبةً ،خائفة،مذعورة ،هذا رهيب، ماذا يحصل؟ من هو هذا الرجل؟ ماذا يريد من إيّان؟ ولم يريد استدراجه الى هنا؟ لا أعتقد بأنّها فكرة سديدة بأن يأتي إيّان الى هنا وحده وبدون سلاح، لا يمكنه ، يجب أن أفعل شيئاً ما كي أحرّر نفسي وأهرب... ...تململت أحاول حلَّ رباط يداي وقدماي علّ الرباط يفك ،عبثاً حاولت. المكان بارد ورطب، الأرض قاسية ومليئة بالحصى أشعر بها تغرز في جسدي كلّما حاولت الحراك، زحفت على غير هدى حتى اصطدمت بشيء صلب، إنّه حائط على ما أظن, اتكأت اليه وجلست أنتظر، دموعي تنساب سخية ساخنة ، قلبي ينبض بكل أنحاء جسدي ، ماذا سيحصل ، أنا خائفة ... ...

بعد وقت طويل نسبيّاً من إنتظار المجهول سمعت صوت خطاه تقترب من جديد، يتحدّث على الهاتف مجدّداً، لا بدّ أنه يتحدّث الى إيّان، ليبدأ قلبي يتخبّط في صدري

من جديد محاولاً الهرب مني، أشعر بالخوف، رغم وضعي، إلاّ أني لا أشعر بالخوف على نفسي قدر شعوري بالخوف على إيّان ومما يضمره له هذا الرجل. وما زادني رعباً قوله لإيّان قبل أن يقفل الخطّ:

" هذه المرّة لن أخطئ قلبك إيّان ... ... هذه المرّة سأجعلها تخترق قلبك وتمزّقه في صدرك"

شهقت أحاول الصراخ ليغوص صوتي بحنجرتي ، يريد قتله، لا يريد منه شيئاً سوى قتله... .... لا يريد مالاً ولا فدية بل يريد أن يقتله، يا الله! ماذا سأفعل، إيّان لا تأتي وحدك، أرجوك لا تفعل.

هذه المرّة لم يترك المكان، بل بقي يحوم في أرجاءه.

حاولت الحراك علّي أثير إنتباهه ، علّه يفك وثاق عينيّ وفمي ، علّي أحاول إقناعه عن العدول عن رغبته بقتل إيّان ولكنّه تجاهل محاولاتي كلها ، أتمنّى لو أنّ الوقت يتوقف ها هنا ولا أضطر لعيش اللحظات القادمة،عندما يدخل إيّان هذا المكان أعزل

ووحيد ليسلم نفسه مكاني ،يا الله !!لا تسمح بأن يصيبه مكروه، سأموت إن حصل ذلك. ولكن يبدو أنه ليس كل ما يتمناه المرء يناله اذ سمعته يتحدّث عبر الهاتف من جديد بنبرة انتصار واضحة في صوته:

" أحسنت ... الآن أترك سيارتك حيث أنت. انزل منها ...

أنا أراك الآن ... لا تكن غبيّاً وتحضر معك سلاحاً ... أدخل من الباب الأمامي، إنّه مفتوح ... اتّجه نحو اليمين الآن ... نعم من هنا ... "

حاولت تهدئة نفسي علّي أتوصل لحل ما ، ربما اذا هدأت ونزعت الخوف من قلبي سأتمكن من التفكير وإيجاد حلّ لهذه المصيبة ، نقف قلبي قافزاً من مكانه لحظة سمعت صوت إيّان قادم من مكان ما قريب يقول بصوت بارد وحاد :

" ها أنا ذا ... ... أطلق سراحها وافعل بي ما شئت "

ضحك الرّجل قائلاً بسخرية: " أهكذا تستقبل خالك بعد غياب طال لعشرة سنوات؟ ألم تشتق إليّ؟ ألن تأخذني بالأحضان؟ "

ردّ إيّان بنبرة ثابتة وحادّة " كلانا يعرف بأنّي لست هنا لهذا الغرض خالي" قال خالي بنبرة مشددة ساخرة متابعاً " لذا أطلق سراحها وافعل ما جئت تفعله "

" دعني أتأكّد أوّلاً، بأنّك لست مسلّحاً .. .. يبدو أنّ أمر هذه الفتاة يهمّك كثيراً، لتأتي إليّ دون تردّد من أجل إنقاذها "

" كفى كلاماً .. ... ما جئت لأتحدّث إليك، لذا نفّذ وعدك لي وأطلق سراحها، فها أنا أتيت إليك كما أردت دون سلاح ودون مرافقة. أعطها مفاتيح سيارتي ودعها ترحل، ثم دعنا نتدبّر أمرنا أنا وأنت رجل لرجل "

سمعت خطوات قادمة نحوي لأشهق متراجعة بعفوية لحظة شعرت بأحدهم يلمس قدمي وإذ به يفكّ وثاق قدمّي وعينيّ. حدّقت به بحقد أتأملّه بجرأة ، خاله!!!...إنّه يشبهه إلى حدٍّ ما ، أيعقل هذا ... لماذا يريد خاله قتله؟ ماذا يحصل هنا؟

جذبني من ساعدي ليساعدني على الوقوف، تلفتت حولي مستكشفةً المكان إنه مستودع مهجور، إذ نوافذه عريضة وعالية جداً، والأرضيّة متسخة جدّاً والجدران متشققة والعواميد نصفها منثور أرضاً هنا وهناك.

وبعض المعدّات وشاشات الحاسوب، لا بدّ أنه أحضرها ليستعملها لمراقبة الكاميرات التي زرعها على طول الطريق وفي أرجاء المكان.

وعندما رأيت وإيّان واقفاً عن المدخل يراقبني بحزن والم أقف تحت رحمة هذا الرجل الغريب. شهقت محدّقةً به ، عاجزة عن فكّ أسر نظراته الحزينة التي تواسيني ، تتأسف لي ، ترجو معذرتي .

دفعني لأسير أمامه موجهاً المسدّس الى رأسي، نظرات إيّان لا تفارقني،إستوقفني على بُعد بضع أمتار عنه آمراً إيّاه :

" ارم مفاتيح سيارتك وابتعد عن المدخل "

وبحركة متقنة هادئة سلسة رمى إيّان مفاتيح سيارته الى الأرض على بعد خطوات منّي وابتعد عن المدخل، كما امره الرجل وقال لي بهدوء تام :

" اذهبي ... لا تنظري الى الخلف، خذي المفاتيح وارحلي ... سألحق بك ... لن أتأخر عليك ... أريد فقط التحدّث إلى خالي لحلّ بعض المشاكل العالقة بيننا وآتي إليك "

حرَّكت رأسي رافضةً طلبه... لن أرحل من هنا وأتركه وحده مع هذا الرّجل. إنّه يكذب عليّ، لن يخرج من هنا سليماً. كيف يعقل أنّه يطلب منّي أن أرحل وأتركه تحت رحمة هذا الرجل الذي ينوي قتله، أبداً لن أفعل.

رفضي أثار حنق إيّان الذي كان حتى هذه اللحظة متمالكاً أعصابه حدّ البرودة التامّة فصرخ بي صوتاً غاضباً زادني خوفاً ورعباً " لمرّةٍ واحدة في حياتك لا تعاندي وتتمرّدي وأسمعي الكلام ، خذي المفاتيح اللعينة واخرجي من هنا. "

غامت عيناي منهمرةً بالدموع الساخنة السخية حاجبة عني الرؤية ، أومأت له برأسي مجدّداَ رافضةً الانصياع لأوامره شاهقة بأسى .

كيف سأتركه هنا لمصيره وأخرج سالمة من كل هذا؟ كيف سأعيش مع هذه الحقيقة، بأنه ضحّى بنفسه لإنقاذي. مهما فعل ومهما صرخ، لن أتركه, سأبقى لألقى ما يلقاه.

أخذَ نفساً عميقاً يحاول إحتواء غضبه وخاطبني برفق هذه المرّة " أرجوك نور، أنا ارجوك أن تذهبي، لا اريدك هنا. لا شأن لك بكل ما يحصل، أحتاجك لأن تخرجي" قال يرجوني بيأس متقدماً نحوي.

وإذ بالرجل يستوقفه مكانه مشيراً المسدّس نحوه ، مثيراً ذعري " لا تتقدّم خطوة أخرى، ابق مكانك. يبدو أنّها لا تريد تركك وحدك هنا، وتفضل الموت معك " ضحك ضحكة طويلة وعالية ثم تابع " يا لسخرية القدر، وكأنّ التاريخ يعيد نفسه. ما شأنك أنت والنساء اللواتي يضعن أنفسهنّ في مقدّمة المدفع من أجلك ... إنّها حقّاً شجاعة ... تذكرني بنايا. أتذكرها؟ لا اعتقد بأنّك تمكنت من محو ذكرها من رأسك.

أنا واثق من أنّك تذكرها عند كلّ لفتةٍ تقوم بها، أليس كذلك؟ يا للمسكينة، ماتت وهي تحاول حمايتك منّي، تلقت كلّ الرصاصات عنك ... يبدو أنّه لدينا متبرّع آخر لذلك. " قهقه قائلاً" أنا واثق بأني إذا خيرتها ما بين الخروج من هنا حيّة من دونك، أو تلقّي الرصاصات عنك، لاختارت الخيار الثّاني "

صدمني كلامه ، إنّها ليست المرّة الأولى التي يحاول فيها قتله. وما قصّة نايا؟ أيعقل انّها كانت حبيبة إيّان التي شبحُها مازال يطارده حتّى الآن. ولكن كل هذا غير منطقيّ، لا أفهم شيئاً. فالأفكار تتخبط في عقلي وتتركني عاجزة عن التّركيز أو التّفكير بمنطق.

لاحظت إيّان يحاول جاهداً كبت جماحه وإبقاء نفسه هادئاً اذ قبضته تشتدّ تارةً وتلين طوراً وكأنّه يفكّر بالانقضاض عليه وقتله وما يمنعه عن ذالك وجودي بينهما والمسدس موجَّه الى رأسي. تارةً يوجهه نحوي وطوراً نحو إيّان.

رمقني إيّان برجاء يتوسّلني بنظراته وكأنّه فهم ما افكّر به. ولكنّي أرى أنّ الوضع كله يحتاج الى ضربة حظّ، لن أخرج من هنا من دونه ، وإيّان لن يتحرّك من مكانه أو يقدَم على فعل شيء طالما المسدّس موجه نحوي.

أغمضت عيوني مسترجعةً ذكرى الموقف الذي كنت فيه معه في صالة الرياضة عندما دفع بظهري نحو صدره وقال لي بأنّ قبضتي ضعيفة وضربة مرفقي على معدته ستؤذيه. وها أنا ذا، اقف بين يدي هذا الرجل، ظهري الى صدره ويداي موثوقتان، لذا عندي فرصة بأن أحاول ضربه ... هزّ إيّان برأسه وكأنّه يرجوني أن لا افعل ذلك ولكنّي رغم رجائه، وعندما وجدت الفرصة الملائمة وضعت كلّ عزمي في أعلى جسدي بأكمله ولكمته بشدّة بمرفقي على معدته.

تراجع الرجل مندفعاً فاقداً توازنه ، لا اعتقد بأنّ لكمتي كانت قويّة كفاية لإيقاعه أرضاً، بل فاجأه ما فعلتُ، لم يكن يتوقّع حصول هذا ... ... وقع المسدّس من يده وهو يحاول أن يوازن نفسه ويلتقطني لمنعي من الوقوع فوقه وأنا إستغليت الفرصة

هاربةً من قبضته وبذات اللحظة تقدّم إيّان نحونا ناشداً التقاط المسدس فزحف الرجل هو الآخر نحوه ووصل اليه قبل إيّان مباشراً بإطلاق النار نحوه.

صرخت فزعةً عائدةً إليه أركله بقدمي بكل عزم علّه يتوقّف عن إطلاق النار على إيّان الذي رأيته يهوي أرضاً مضرج بالدماء.

دفعني بقوّة نحو الحائط يركلني بعنف شديد ،وعندما فاق الالم قدرتي على إحتماله بدأ جسدي يفقد الشعور به وكأنّ عقلي قفل على نفسه أجهزاستقبال الألم مرسلاً لي رسالةً وضعتني في حالة ركود ذهني فصلتني عن الشعور بالخوف والألم موجدةً مكانهم فراغاً شاملاً. لأسمع بعد لحظات دوي الرصاص من جديد، تلاها سكون عميق عمّا ارجاء المكان،...تململت أئنّ الماً رهيباً إجتاح كياني ، لا أعرف تحديد مكانه ،حاولت فتح عيوني بصعوبة لأرى إيّان يزحفُ نحوي بخطى ثقيلة والدماء تشلي من جسده ، اقترب منّي لاهثاً ألآمه يحاول نزع الشريط اللاصق عن فمي ، شهقت أشعر بألم برئتي وكافة أنحاء جسدي ، المٌ يفوق الاحتمال ، رهيب .

" لا تخافي ... ... ستكونين بخير ... ... أنت بأمان الآن "

ثم دخلت في مرحلة لم أعد أميّز فيها الحقيقة من الخيال. إذ تهيأ لي بأني أسمع صوت طلال وأصوات أخرى لم أميّزها، وخطى أقدام كثيرة ... ... وأحدهم يقول ... ...

" إنّنا نفقده .....أسرعوا شحنة كهربائيّة.. ... نعم ... إنّنا نفقده ... ضغطه منخفض تماماً."

ثمّ شعرت بأنّ أحداً يحملني، وبعد لحظات قليلة، فقدت الوعي تماماً.

****

فتحت عيوني المتثاقلة لأجد نفسي في غرفةٍ مضاءة بأشعة الشمس القويّة المنبعثة من النافذة.

الجدران بيضاء والخزانة بيضاء، السرير والشراشف بيضاء.

جلت بنظري حول الغرفة، لأجد طلال نائماً على الأريكة بجانب سريري. حاولت أن أغيّر من وضعية استلقائي فشعرت بألم رهيب في ظهري وصدري عجزت لأثره على التنفس.

كتفي محاط بشيء سميك وقاسٍ، أنابيب المصل تتدلّى من يدي وهناك أنابيب تتدلّى من فتحتي أنفي.. ... ..

لا أذكر كيف وصلت إلى هنا ... ... آخر ما أذكره ... ... لا،لا اريد تذكر آخر ما أذكره ... ... لا اريد ... .

يا ليتني لم استيقظ لأضطرّ الى مواجهة الواقع ، مواجهة مصيري ، ماذا حصل لإيّان ، لا !!! أريد أن أعود للنوم ولا أضطر للسؤال عنه والقى جوباً سيدمر حياتي كلياً . كانت حالته سيئة جدّاً قبل أن أفقد وعيي ويأتوا بي إلى هنا.

صَحِيَّ طلال من غفوته ليُفاجأ بي أحاول جاهدة الجلوس دون جدوى. الألم رهيب ويكبّل حركتي.

وقف مسرعاً من مكانه مقترباً من السرير وقال:

" هاي... هاي اهدئي ... لا تتحرّكي، أتحتاجين لشيء ما، أتريدين أن أنادي الممرّضة؟ "

" أين إيّان؟ " لا يهمني الم جسدي ، فجلّ ما افكّر به الآن هو إيّان

" إنّه بخير، لا تقلقي عليه ... ... إنّه في الغرفة المجاورة"

من نبرة صوته علمت أنّه يكذب ، لو أنّ إيّان بخير لكان معي ، هنا ، في الغرفة .

" لم أنت هنا ولست عنده؟ أنت تكذب عليّ ... أخبرني بالحقيقة، أين هو؟ كيف حاله؟ أرجوك، إنّه ليس بخير، وأنا أعرف ذلك. لم يكن بخير عندما كناّ هناك، لقد أطلق النار عليه أكثر من مرّة، لمَ تركته يذهب طلال؟ لمَ لمْ تمنعه من الذهاب الى هناك؟ "

طأطأ رأسه بخزيٍ مردداً بصوت ضعيف " لم يكن خياري نور ... لم يسمح لنا بالتدخل. جل همّه ًكان كيفيّة إنقاذك وتأمين خروجك من ذلك المكان سالمة.

أمرنا بالبقاء متأهبين وعدم التدخل طالما أنت بالداخل. ولكنك لم تخرجي، وهذا ما أخّرنا عليكم"

" هل كنت تعلم بأنه كان سيقتله "نبرتُ به وسط دموعي وشهقاتي المؤلمة " لقد ذهب الى هناك رغم معرفته بأنه لن يخرج من ذلك المكان حيّاً ... كيف قبلت بذلك؟ وأنا ... كيف ظننتم للحظة بأنّي سأخرج من دونه؟ " مسحت دموعي وقلت بإصرار " أين هو أريد رؤيته، ساعدني على النهوض وخذني إليه "

حاولت النهوض فغلبتني صرخة ألم أعادتني الى مكاني عاجزة عن الحراك.

" اهدئي أرجوك ... ... إنه على قيد الحياة، صدّقيني، أنا لا أكذب عليك، إنّه مناضل، يحارب لأجل الحياة، كدنا نفقده ولكنه تخطى المرحلة والحمد لله "

حدّقت به أراقب تعابير وجهه علّي أستشعر منها صدق ما يقوله ولكني لم أستطع، قلبي يؤلمني، أريد أن أصدقه ولكني خائفة، أحتاج الى رؤيته بنفسي لأصدّق انه على قيد الحياة، فأنا بتّ أعرفه جيّداً، مستعدّ لفعل أي شيء ليبقيني عن الحقيقة ومأساتها،

لقد فعل هذا من قبل وسيفعلها مجدّداً، لذا لا أدري، أحتاج الى إثبات لأصدّق كلامه ... .

" خذني اليه أرجوك " سألته متوسلةً

" حالك لا تسمح لك، فأنت بحالة سيئة، كتفك مخلوع، عندك ثلاثة أضلع مكسورة وفخذك مشعور. وإيّان في قسم العناية المشدّدة، ممنوع الدخول إليه. "

دخل في هذه الأثناء الطبيب برفقة الممرّضة. ابتسم عندما رآني صاحية وقال:

" حمداً لله على سلامتك نور، ها أنت استيقظت وبصحّة جيّدة "

رفع حاجبه وقال معاتباً " ولم هذه الدّموع؟ لا تخافي، فأنت بخير وهذه مجرّد رضوض وكسور ستتعافين منها قريباً إن شاء الله"

نزع الأنابيب من أنفي وتفقّد مؤشّراتي الحيويّة وقال:

" لا تخافي أسابيع قليلة وتعودين الى حياتك الطبيعيّة السابقة. ولا تتردّدي في سؤالي عن أيّ شيء يشغل بالك حول صحتك. سأصف لك مسكناً قويّاً ليخفف عنك الألم "

كلماته زادتني رغبةً بالبكاء، انا لست قلقة على نفسي وإنّما قلقي وحزني على إيّان وحاجتي إلى رؤيته.

سألته وسط دموعي " أريد الاطمئنان على حال إيّان، أخبرني دكتور، كيف حاله؟ "

أجابني والابتسامة لا تفارق محياه مما طمأنني قليلاً" لا تقلقي عليه ... إن شاء الله سيتخطّى وضعه بسلام. أنا لست طبيبه، لذا لا أستطيع مناقشة وضعه معك. بإمكانك التّحدّث الى طبيبه المسؤول عن حاله، سيساعدك أكثر منّي" ثمّ استأذن وخرج.

التفتّ الى طلال الجالس على الأريكة ، تثاءب من شدّة التعب والارهاق مرّراً كفّه على شعره ، يبدو أنّه لم ينم منذ البارحة حتّى أنّي نسيت أن أسأله عن حاله، فهو كذلك الأمر تعرّض للأذيّة والضرب على يد ذلك الرّجل.

سألته محاولةً الاعتذار عمّا بدر منّي من إهمال لحاله:

" وأنت طلال، كيف حالك؟ فآخر مرّة رأيتك فيها كنت فاقداً للوعي ورأسك ينزف "

وبحركة عفوية وضع يده على رأسه مكان الجرح معلّقاً بأسى "ليس بالشيء المهمّ. احتجت لبضعة قطب، وها أنا عدت سليماً وكأنّ شيئاً لم يكن"

شرد بنظره بعيداً قائلاً بنبرة حزينة:

" لقد أخفقت، كل هذا حصل بسببي، لم أستطع حمايتك ومنعه من أخذك، لقد خذلت إيّان للمرّة الثّانية نور"

عكست عيناه الحزينتان الألم الذي يشعر به، أفهم تماماً ما يمرّ به، إذ يلوم نفسه على ما حصل ، وأنّه لولا إخفاقه في حمايتي لم يصل إيّان الى هنا، إرتعش قلبي حزناً وأسى على الزوج ، لا أستطيع ترك طلال يلوم نفسه على القدر وأحكامه.

" لا تلم نفسك على ما حصل طلال. لقد حاولت قدر استطاعتك منعه من أخذي ولكنه كان مسلّحاً وعنيفاً "

" لقد فاجأني ذلك الحقير، عندما رأيته تجمّدت مكاني غير دار بما عليّ فعله. "

" هناك أسئلة كثيرة تدور في رأسي وأحتاج الى إجاباتها، ولكن جل ما أريده الآن هو رؤية إيّان والاطمئنان عليه، أرجوك طلال جد وسيلة لأراه ، أرجوك "

" يا الله!! نور، ما هذا العناد الذي تتسلّحين به، قادر على إزاحة جبل من مكانه " تلفّت حوله حائراً بما يريد فعله ثمّ قال خارجاً من الغرفة مهرولاً "سأعود بعد قليل "

اختفى لأكثر من ربع ساعة ثمّ عاد برفقة ممرّضة التي بدورها وقفت تتأمّلني للحظات ثمّ قالت تهزّ برأسها معارضةً:

" لا أنصحك بالتحرك من مكانك، فوضعك لا يسمح لك بذلك. الحركة ستسبّب لك ألماً رهيباً لن تتحمّليه"

أجبتها بعناد " لا يهمّني، خذوني فقط إليه"

وقفت متردّدة، بما تريد فعله ثمّ ألقت نظرة عتاب الى طلال:

" إذا علم طبيبها بما سأفعله سيطردني دون شكّ، ولكنّ قلبي لا يطاوعني على رفض طلبك. دقيقة وأعود"

غابت للحظات ثمّ عادت بكرسيّ مدولب قرّبته من سريري وسألت طلال مساعدتها في نقلي إليه.

بمجرّد ان وضعت يدها تحت كتفي محاولة تحريكي شعرت وكأنّها تغرس سكيناً في خاصرتي. كبتُّ ألمي وكابرت على نفسي إلى أن وضعوني على الكرسيّ.

دفعني طلال أمامه وهي قادت المصل بجانبي.

قالت ونحن نسير في البهو نحو المصعد الكهربائي.

" لقد تحدّثت الى صديقة لي تعمل في قسم العناية المشدّدة، ستسمح لك برؤيته من وراء الزجاج، لن تدخلي إليه. أرجو أن يكون هذا كافياً لك "

أومأت لها برأسي موافقة بصمت خوفاً مني إذا فتحت فمي أن لا أقوى على كتم ألمي وأخرج صرخة تدوي المكان ، المهم أن أراه ، أطمئن عليه ، أتأكد بأنه ما زال على قيد الحياة ، لم يتركني ويرحل كالجميع ، سأموت إذ فعل .

توقف المصعد وفتح الباب عند الطابق الرابع. قادوني بصمت عبر البهو. توقفوا أمام غرفة من الغرف وقالت الممرّضة " ستأتي ممرضة لإدخالك ونحن سننتظرك هنا "

أدخلتني ممرضته إلى الغرفة حيث يوجد فاصل زجاجيّ مغطّى بستائر بيضاء يفصل إيّان عن باقي الغرفة. فتحت الستائر وقرّبتني إليه ثمّ خرجت بهدوء تامّ ... .

يا حبيبي ، يا ضوء عيوني ، أرجوك لا ترحل وتتركني ، أرجوك لا تكسر قلبي وتطفئ شمعتي ، من دونك ستنعدم الحياة فِيّ ، سأحزن إلى الابد ، سأهيم الحياة كظلال تنتظر خلاصها ......

شهقت بألم عاجزة عن كبت حزني والمي ، إنّه هناك مستلقٍ على السرير دون حراك، يبدو شاحباً وساكناً وهناك عشرات الأسلاك الموصولة من الآت الضغط والقلب والتنفّس الاصطناعي الى قلبه وصدره ورأسه وذراعيه. كلّها تعمل بانتظام مصدرتاً طنيناً يبعث الرهبة في النفس.

بسطٌّ كفِّي على الزجاج متمنية لو أنه لا يقف حاجزاً بيننا، لأدخل إليه وأبقى بقربه الى أن يصحو ، ليسمع صوتي ويشعر بأنفاسي قربه، كي

لا يشعر بالوحدة والغربة.

أرجوك ناضل من أجلي ، فأنا أحتاجك أكثر من أي شيئ بهذا العالم ، أنت أمي وأبي، أختي وأخي، صديقي وحبيبي فكيف سأتحمّل خسارة كل هؤلاء دفعة واحدة. خسارتك ستكون مأساتي التي لن أتخطاها ما حييت.

قلبي مكسور ويؤلمني، ألمه يطغى على آلام جراح جسدي كلّها.

رفعت رأسي إلى السماء مستنجدةً الله أن يسمعني ويشفق على حالي وينقذه من الموت لأجل خاطري ويعيده الي ....

شهقت مذعورة لحظة شعرت بالممرّضة تلمس كتفي برفق هامسةً:

" أرجو المعذرة، حان الوقت، هل أنت جاهزة؟ "

لا ، لست جاهزة ، لن أكون جاهزة ابداً طالما هو هنا وأنا هناك ، عاجزة عن مواساته والجلوس بقربه والاطمئنان على حاله ، دفعتني أمامها خارج الغرفة ...وأنا مسحت دموعي الساخنة محاولةً إخفاء ألمي قدر المستطاع .

" أريد رؤية طبيبه، أرجوك طلال خذني إليه "

دفعني أمامه قائلاً "يكفي ما فعلناه لليوم. ستذهبين إلى غرفتك

دون اعتراض وعندما يتوفر طبيبه سآتي به إليك، أيسعدك هذا؟ "

" لا، لن يسعدني شيء طالما إيّان في تلك الحالة" أجبته بحسرة.

دخلنا الغرفة لنفاجأ بسارة ، يبدو أنها كانت تنتظرنا منذ فترة إذ وقفت عن الأريكة باللحظة التي دخلنا فيها والتوتر بادٍ على محياها.

أكمل طلال دفعي نحو السرير متجاهلاً وجودها، وبمعاونة الممرضة أعادوني إليه وعندما استقرّ حالي ... اقتربت منّي قائلة:

" حمداً لله على سلامتك، لقد عرفت اليوم بالخبر، إنّه منتشر عبر القنوات الإخباريّة، لقد قلقت كثيراً عليكم" قالت وعيناها على طلال تحاول لفت انتباه إليها الذي بدوره لم يعلّق بل اكتفى بالوقوف عند النافذة ومراقبتنا من هناك.

إبتسمت لها بوهن ، حزينة على حالها ،وقلت محاولة تلطيف الأجواء "شكراً لك على اهتمامك وزيارتك. طلال بخير، هو أقل المتضرّرين بيننا، احتاج فقط لعدّة قطب برأسه وعند حاجبه. "

أولته كامل إنتباهها ذاهبةً اليه، وقفت قبالته وقالت بتردّد:

" لقد خفت عليك كثيراً عندما سمعت أنك كنت من بين المصابين. لا أعرف ماذا كنت سأفعل لو أنّ مكروهاً أصابك. "

وضعت يدها على وجنته تتلمّسها برفق، تحاول إستمالته للنظر إليها وتابعت ترجوه:
" أرجوك، كفى فراقاً، اغفر لي فعلتي، أنا أحبك كثيراً وما عدت أحتمل بعدك عنّي، أرجوك "

يا لعناد طلال ... لم أكن أعرفه عنيداً الى هذه الدرجة، فالمرأة تتوسّله ليسامحها، ماذا يريد أكثر من ذلك ... لو أنّي قادرة على الوقوف، لذهبت إليه وصفعته ليعود إليه حسّ المنطق ... ولكن يبدو أنّ كلامها أثر فيه في نهاية الامر اذ أخذها بين ذراعيه واحتضنها بقوّة، يلثم رأسها بشوق وهي كالبلهاء أجهشت بالبكاء ... لا ليست كالبلهاء ... كنت سأبكي لو أني كنت مكانها ... نعم ...

يبدو أنهما نسيا وجودي في الغرفة ، فتنحنحت كي لا يسترسلان بمشاعرهما فالتفت طلال إليّ وسألني بإهتمام " أستكونين بخير اذا نزلنا الى الكافيتيريا قليلاً ؟ "

ابتسمت له وأجبته " بالطبع سأكون بخير، لن أذهب إلى أي مكان، ستجدني هنا بانتظارك عندما تعود"

مسحت سارة دموعها، مقتربةً منّي :

"إنّني أصلّي لسلامة إيّان وسلامتك، أرجو أن يتعافى قريباً" ثم تركتني ولحقت بطلال إلى الخارج.

وأنا جلست أحدّق بالجدران حولي ، الوقت يمر بطيئاً مملاً ، لا أريد البقاء وحدي والتفكير بالذي حصل.

ما الذي يمكن أن يكون قد فعله إيّان ليدفع بخاله الى السعي لقتله بهذه الوحشيّة؟ ومن هي نايا؟ ولم وضعت نفسها أمام خط الرصاص بدل إيّان؟ أين خاله الآن؟ وماذا حصل له؟ كلها أسئلة لا أجد لها أجوبة منطقيّة ، تؤلم رأسي وتشوّش أفكاري.

الفصل الحادي عشر

عاد طلال برفقة طبيب، يبدو في حوالي الخمسين من عمره وسيم الطلة ومرح الملامح، دخل الغرفة وتوجه مباشرة نحوي وقال بطيبة:

" ها هي مريضتنا المثابرة، كيف حالك اليوم؟ "

أجبته بخجل رامقةً طلال بتساؤل " بخير، الحمد لله "

قاطعنا طلال قائلاً "إنّه طبيب إيّان، سألته أن يأتي إليك ليخبرك عن حالته"

جلس الطبيب على الأريكة وقال " أعرف شعورك وأنت قابعة هنا لا تستطيعين الحراك وهو هناك في غرفة العناية المشدّدة. لذا ،سأحاول نقل حالته لك بطريقة علميّة مبسّطة وشفّافة. عندما وصل السيد كرم الى المستشفى كان قد توقف قلبه لحوالي دقيقة، ولكن الحمد لله تمكن طاقم سيارة الإسعاف من إنعاشه من جديد.

وصل إلينا مصاباً بثلاث طلقات ناريّة، طلقتين منهما استطعنا استخراجهما بنجاح ومن دون مضاعفات، ولكن، ... هناك الرصاصة الثالثة التي تثير قلقنا، إنّها قريبة جدّاً من القلب وكان قد خسر الكثير من الدماء لذا لم نرد المخاطرة بحياته وإجراء ثلاث عمليّات له، فوضعناه في حالة سبات اصطناعي الى أن يتعافى من العمليتين الأوليتين ثم نجري له العملية الثالثة. لذا نرجو أن تبقى حاله مستقرّة على ما هي عليه حتّى ذلك الحين.

إنّه مناضل آنسة رضى، كحالك تماماً وأعتقد بأنه سيتكمن من الحراك والمشي قبل أن تتمكني أنت من ذلك " وقف عن الأريكة وقال " أرجو أن أكون قد أجبت عن كل تساؤلاتك حول صحة السيد كرم. والآن اعذريني، عندي جولة عليّ إكمالها" ثم خرج من الغرفة مهرولاً كما دخل.

وقف طلال عند النافذة، ينظر الى الخارج بصمت. يبدو مرهقاً، شعره مبعثر وذقنه طويلة، مرر أصابعه بعصبيّة عبر شعره آخذاً نفساً عميقاً ثم تركها معلقة عند مؤخرة رأسه وكأنه يحاول كبت شيئاً أليما بداخله.

كسر سكون اللحظة رنين هاتفه، انتشله من جيبه وأجاب: " نعم ... ... لقد استيقظت ... . لا .... أفضّل أن تأتي غداً، حالتها النفسيّة لا تسمح لها بالكلام اليوم ... . حسناً، موعدنا غداً إذاً عند العاشرة صباحاً ... إن شاء الله. "

أقفل الخطّ، قرّب الاريكة من سريري، انتشل ظرفاً من جيبه ثم جلس.

وقبل أن أسأله عن هوية المتصل قال:

" إنّه المحقّق الذي يحقق في قضيتكما، يحتاج الى بعض المعلومات منك حول ما حصل. طلبت منه أن يأتي غداً، لا أريدك أن تتحدّثي عن الموضوع قبل أن تصبحي مستعدّة."

ابتسمت له ابتسامة باردة وضعيفة وعينايَ تراقبان الظرف في يده. راح يقلّب الظرف بتوتّر وقال:

" أعطاني إيّان هذا الظّرف قبل أن يتركنا ويذهب إليك... ...

طلب منّي إعطاءك إيّاه في حال حصل مكروه له. أعرف بأنّ الوقت ليس مناسباً ولكنّي متأكد كذلك الأمر بأنّه يتمنّى منّي إعطاءك إيّاه الآن. "

أعطاني الظّرف وهو يحاول قدر الإمكان تحاشي النّظر الى عيوني.

فتحته بلهفة وأنا أشعر بقلبي ينبض بين يدي. حدّقت مطوّلاً إلى الورقة قبل أن تبدأ الأحرف والكلمات تتوضّح أمامي... ...

" حبيبتي نور:

اذا كنت تقرئين هذه الرسالة، هذا يعني أنّ الأمور لم تجر كما تمنّيت لها أن تكون.

أرجوك لا تشعري بالضيق، سامحيني واغفري لي فراقك المفاجئ بهذه الطريقة ولا تلومي نفسك لأنه لا ذنب لك بكل ما حصل.

ومهما كانت الحقيقة التي ستعرفينها فهي لن تغيّر من حقيقة وقوّة مشاعري تجاهك.

مازلت أذكر تلك اللحظة التي رأيتك فيها للمرّة الأولى وأنت تنزلين من السيارة وتنظرين حولك باستفسار في ذلك الفستان الأسود وشعرك الطويل وعيناك الحزينتان على فراق والدك.

أيقنت ذلك الوقت بأنك لست إنسانة عاديّة ولن يكون الوضع سهلاً وجودنا في نفس المكان والزّمان.

أسرتني بجمالك الحزين والرقيق وبعنادك وإصرارك المُرْهِقان، وببراءة قلبك وطهارة روحك.

مع أنّي حاولت جاهداً مقاومة هذا الحبّ وكتمه في قلبي وروحي لأسباب خاصّة ومؤلمة، إلاّ أنّ عنادك حال دون ذلك، إذ استمريتِ بالاندفاع نحوي، وتركتني عاجزاً عن التفكير بمنطق فوجدت نفسي متيّماً بك وقلبي وروحي يتقطران شوقاً وهياماً للمزيد منك.

لقد أحببت فيك ذكاءك ومرحك وعشقك للحياة، لذا أرجوك ابقي كذلك ولا تيأسي، فالحياة جميلة وتستحقّ أن يحارب الإنسان من أجلها ويعيشها بكل لحظاتها الجميلة والتعيسة وأنت بالتأكيد تستحقين كل جميل فيها.

لقد بقى سرّاً واحداً لم أبوح به لك ظنّاً مني أنّه للأفضل من أجل مصلحتك ومستقبلك ، حبيبتي نور ، قبل وفاة والدك تم عقد قراني عليك بنية أنّ يبقي مجرد ورقة أستعملها إذ إحتجت اليها وأمزقها عندما تجهزين للإلتفات إلى حياتك بعيداً عني ، ولكنّي للأسف إضطررت إلى تثبيت ذلك العقد قانونياً قبل ذهابي اليك كي أضمن حقوقك كاملة بإستملاك أملاكي مناصفةً بينك وبين طلال ، طلال سيهتم بك من جميع النواحي ، لا تقلقي ، لن يتخلّى عنك أبداً .

أرجوك نور فأنا اتمنّى منك تخطي هذه المسألة بطيب خاطر وبأقل ضرر ممكن وسامحيني أرجوك، سامحي هذا القلب الذي لم ينبض إلاّ عندما ارتوى بحبك وغادر هذه الدنيا لا يفكّر إلاّ بك" .

شهقت مقلبّةً الورقة عليّ أجد فيها المزيد من كلامه وريحه. خانتني دموعي وكأنّها كانت تنتظر اللحظة المناسبة لتنهمر دون توقف، أنا زوجته!! إنّه زوجي !! لقد أخفى عنّي ذلك ، وماذا بعد ؟! إذ كل يوم أكتشف سرّاً عظيماً ، اليماً ، مقيتاً ، إفلاس والدي ، تشردي ، والآن خبر زواجي الذي لا أعلم به حتى ، وهل هذا يجوز ، أن أكون زوجة لرجل لا أعلم بأني زوجته.

أخذ طلال الرسالة من يدي وقال:

" أرجوك نور، أعطيتك الرسالة لتتحلّي عبرها بالقوّة والإرادة وليس العكس."

" هل كنت تعلم ، هل كنت تعلم بزواجنا ؟؟!! كيف ، كيف ؟؟" صرخت عاجزة عن إدِّعاء الهدوء .

طأطأ طلال رأسه خَجِلاً من نفسه ومن ما سيقوله " نعم ، نعم ، لقد كنت شاهداً على ذلك الزواج "

" كيف يتزوجني بدون علمي ، هل هذا يجوز ، اليس من المفروض أخذ موافقتي "

" لقد تولّى والدك الإنابة عنك ، لقد كنت قاصر وهو ولي أمرك فتولّى المسألة بنفسه دون العودة اليك ، إنّه زواج شرعي من كل النواحي نور"

" وهل كنتما تنويان إخباري ، هل كان ينوي إخباري "

سكت ، صمت ، لا يملك إجابة ، وأنا ، أشعر بالخيانة ، أشعر بالغضب والحنق ، أشعر بالرغبة للصراخ عالياً ، عالياً ، عالياً .

شهقت عاجزة عن تمييز ألمي، أهو جسديّ نتيجة الكسور والرضوض أم ألم قلبي وروحي ونفسي التي تبكي فراق حبيبها وتندبه، الخيانات المتتالية ،أمْ كل ذلك معاً.

دخلت الممرّضة في هذه الأثناء مع أدويتي، رمقتني بشفقة قائلة:

" يبدو أنّنا حسدناك، كناّ اليوم نتحدّث عنك ونشيد بصبرك وتماسكك. هيا اهدئي، فالبكاء سيزيد من ألمك. إن شاء الله سيتعافى حبيبك ويعود إليك من جديد" غرزت حقنة في كيس المصل مردفةً "هذا مسكن للألم، سيساعدك على النوم والاسترخاء لصباح الغدّ"

أخذت منديلاً رطباً تمسح فيه وجهي الرطب من دموعي الصامته وعنقي الى أن غرقت في نوم عميق لم أستيقظ منه إلاّ في صباح اليوم التالي.

دخلت الممرّضة غرفتي بعد استيقاظي بدقائق قليلة، حيّتني بوجهها البشوش،

" صباح الخير، أرجو أن تكوني قد نمت جيّداً " سألتني وهي تعاين المعدّات وتفحص مؤشراتي الحيويّة.

سألتها " أين طلال ؟؟ "

أجابتني وهي مشغولة بضبط تدفق المصل:

" ذلك المسكين، لم يغادر المستشفى منذ ثلاثة أيّام مضت.

أجبرناه البارحة على الرحيل ليرتاح قليلاً ، واليوم جاء قبل شروق الشّمس"

" أين هو الآن؟ "

" أعتقد بأنّه عند إيّان في الأعلى، أتى لرؤيتك باكراً، كنت نائمة بقي لفترة ثمّ خرج"

لقد أطلقت عنان غضبي البارحة على ذلك المسكين ، إيّان ووالدي خدعاني ، ظنّاً منهما بأنهما يحميانني ، ولكنّهما لم يدركان بأنهما يؤذيانني حدّ الصميم .

زوجي إيّان كرم ، لم أرد أن أكتشف بأني زوجته بل أرتدته أن يطلبني للزواج ، يحبني ، يقع بغرامي يعشقني حدّ الجنون ومن ثم يطلبني للزواج .

مسحت دمعةً يتيمة ، إنزلقت رغماً عنّي ، لن أعترف بهذا الزواج ، لا أريد منه شيئ ، هذا الزواج باطل .

وطلال خدعني ، ولكّني رغم كل ذلك ، لا أستطيع أن أحقد عليه بعمق ، وهو هذا المسكين الذي يحمل همّ الدنيا على ظهره، وخاصّة الآن وبهذه الظروف .

****

عند العاشرة تماماً، دخل طلال الغرفة برفقة رجل يرتدي ثياباً رسميّة، لا بدّ انّه المحقّق.

" مرحباً نور، أنا المحقّق منير خليل، أرجو أن يكون وقتك مناسباً للإجابة عن بعض الأسئلة"

قال مقرّباً الأريكة الى سريري وجلس عليها. وطلال أسند ظهره الى النافذة يراقبنا بصمت.

" نعم تفضّل، أنا جاهزة للإجابة عن كل أسئلتك"

انتشل دفتراً صغيراً من جيبه وقلَماً ثمّ سألني:

" هل كنت تعرفين الخاطف من قبل؟ "

" لا، كانت المرّة الأولى التي أراه فيها"

" عندما اختطفك، هل طلب فدية ماليّة مقابل إرجاعك؟ "

" لا ...لم يطلب مالاً "

"كيف عرفت ذلك؟ "

"من فحوى كلامه مع إيّان، لم يكن يسعى الى المال بل للانتقام"

هل رأيت معه أحدا أثناء عمليّة اختطافك أو حيث كان يحتجزك؟ "

" لا أعتقد ذلك، كنت طوال الوقت معصبة العينين ولكني واثقة من أنّي لم أسمع صوت أحد غيره في أرجاء المكان. "

" بحسب ما علمنا، لم تكن المرّة الأولى التي حاول فيها قتل السيد كرم. منذ عشرة سنوات مضت قَتَل زوجته وفشل في قتل السيد كرم. هل لديك معلومات عن تلك الحادثة؟ "

كلامه فاجأني وضيّعني ، قتل زوجته، هذا يعني ... ... كيف هذا ؟ قال بأنّه قتل نايا ذلك اليوم، أيعقل هذا؟ سألته:

" قلتَ بأنه قتل زوجته، ما اسم زوجته حضرة المحقّق؟ "

" نايا سالم، لقد قُتلت في نفس المكان والزمان الذي أصيب فيه السيد كرم، منذ عشرة سنوات مضت. إذاً تقولين أنّه لا علم لك بأسباب تلك الحادثة "

نظرت إلى طلال مستغربة ما أسمعه وعاجزة عن ربط الأمور ببعضها وهو بدوره غضّ بصره عنّي متحاشياً النظر إلى عيوني.

نايا إذاً هي زوجة خاله، حسناً، أنا ضعت هنا، ما عدّت أفهم شيئاً، إذا كانت زوجة خاله، فهذا يعني أنّها لم تكن حبيبته... ... ومنذ عشرة سنوات مضت كان إيّان في السابعة عشرة من عمره... لم خاله حاول قتله؟ حينها كان مجرّد مراهق... ....

" آنسة نور، أما زلت معي؟ " أيقظني صوت المحقّق من غفلتي فأجبته معتذرة:

" نعم اعتذر منك، ماذا كان سؤالك؟ "

" ما الذي سمعته بالتحديد، عندما التقى السيد كرم بخاله السيد كمال عيد؟ "

"بالحقيقة لم أفهم شيئاً ممّا حصل "

" أخبرينا أنت بالتفاصيل ودعي التحليل لنا "

لم يتحدّثوا كثيراً، كلّ ما أذكره هو قوله لإيّان: لن أخطئ في إصابة قلبك هذه المرّة " شعرت لأثر هذه الذكرى وكأنّ قلبي ينبض في جسدي بأكمله، سكتّ لبرهة محاولة استعادة ربط جأشي ثمّ تابعت " ثمّ راح يتحدّث عن نايا وكيف أنها وقفت بينهما وتلقت كل الرصاصات، فقط لاغير."

" هل أنت متأكدة نور، لم تسمعي شيئاً آخر؟ " سألني وكأنّني أمسك عنه معلومات أخرى.

" لا، أنا متأكّدة، لم يتكلما عن شيء آخر، هذا كل شيء "

أعاد الدفتر الى جيبه ووقف قائلاً:

" شكراً لك على استقبالي هنا، أرجو أن لا أكون قد أزعجتك"

" العفو حضرة المحقّق،... ماذا حصل لخاله؟ أين هو الآن؟ "

" لقي حتفه إثر طلقات ناريّة أصيب بها بمسدّسه الخاصّ، توفي فوراً في مسرح الجريمة" أجابني ثم اعتذر وخرج.

هذا رهيب!! لقد قتله إيّان. هل هذا جيّد؟ بالطبع لا ...إنّها كارثة.

خاصّة بالنسبة الى إيّان، لن يتقبّل فكرة أن يكون قد قتل نفساً وخاصّة اذا كانت هذه النّفس خاله. إنّه أمر مخيف. ولكنه لم يقتله عمداً كان دفاعاً عن النّفس ضدّ رجل عنيف ومسلّح وخطير.

جلس طلال على الأريكة مكان المحقّق،يبدو حزيناً مرهقاً مهموماً ، أمسك بيدي وقال:

" أنا آسف نور، آسف لجعلك تمرّين بكل هذه المأساة وهذه الظروف خاصّة أنه لا ذنب لك بكلّ هذا سوى حبّك الكبير لإيّان."

" أنا لا افهم شيئاً طلال، ما الذي حصل قبل عشرة سنوات ليدفع رجلاً يسعى يائساً لقتل زوجته وابن أخته ومن ثمّ يعاود الكرّة بكلّ برود أعصاب؟ ما الذي حصل حينها؟ وما قصّة نايا؟ لطالما ظننت أنّها حبيبته ليتضح بعد ذلك أنّها زوجة خاله. ما الذي يحصل؟ أجبني؟" سألته بكلمات تختنق في حنجرتي.

وضع طلال رأسه بين كفّيه وكأنّه يحمل جبلاً فوقه، أخذ نفساً عميقاً وقال:

" أظنّ بأنّ الوقت قد حان لتعرفي الحقيقة كاملة، ولكن عليك أن تعديني بأنّ الحقيقة مهما كانت لن تؤثر على طبيعة مشاعرك لإيّان "

"أعدك بذلك " وعدته مرتعبة من تلك الحقيقة التي أشعر بأعماقي بأنها ليست من حقي ، وبأنها تحمل أسراراً فضيعة .

سرح بنظره بعيداً وكأنّه يغوص في غيابات الماضي وقال:

" بدأت قصّة إيّان قبل ولادته بسنوات طويلة، مع والده السيد إحسان كرم، كان رجلاً نزيهاً يملك أموالاً لا تأكلها النيران. كان متزوّجاً من امرأة أحبها كثيراً، ورغم عجزها عن إنجاب طفل له يرثه لم يتركها، بل بقي معها الى أن توفيت بمرضٍ عضال.

كان والده في ذلك الحين قد شارف على الستين من عمره. بعد وفاة زوجته قرر أن يجرب حظّه ويتزوج بامرأة شابّة علّها تنجب له وريثاً يرث أمواله وأملاكه من بعده.

وهنا أتى دور والدة إيّان، ريّا عيد، كانت تعمل عنده كموظفة استقبال، شابّة جميلة في حوالي الرابعة والعشرين من عمرها، فقيرة وتعمل لكسب رزقها. عندما أخبرها السيد إحسان بنيّته قبلت على الفور. قبلت وهي تفكر بالأموال الطائلة التي سترثها بعد وفاته وكيف ستصرفها ولكنها لم تفكّر ابداً بالطفل الذي ستنجبه له ليرثه.

تركت خطيبها وتزوجته، وأنجبت له إيّان.

توفّي والده بعد أربعة سنوات من الزواج بسبب أزمة قلبيّة حادّة، وجدوه ميتاً في منزله وحيداً دون صحبة.

هنا بدأت مأساة إيّان المتتالية. كان عندها في الثالثة من عمره اذ اكتشفت والدته بأنّ زوجها لم يترك لها شيئاً بعد وفاته وبأنّه سجّل كلّ أمواله وأملاكه بإسم إيّان وحدّد له مبلغاً شهرياً يُصرف عليه حتّى يبلغ سنّ الرشد ويتسلّم أمواله بنفسه. وترك فقط المنزل ومبلغاً شهرياً مماثلاً للأم.

لم يعجبها ما حصل وعطّل عليها مخططاتها المستقبليّة فثارت ثورتها وانصبّت على هذا الطفل المسكين الذي لا يفقه شيئاً من هذه الدنيا سوى حاجته الفطريّة والماسّة لأّمه وصدرها الحنون.

تزوجت بخطيبها السابق , الذي بدوره كذلك الأمر أعماه الطّمع، لم تخبره بحقيقة تجميد أملاك زوجها لصالح ابنه فتزوّجها ظنّاً منه أنه يكسب بزواجه منها أموالاً وأملاكاً سيموت قبل صرفها ليتفاجأ بالخبر بعد زواجهما.

بالطبع جنّ جنونه وصبّ جام غضبه عليها وعلى إيّان الذي أصبح بالنسبة إليهما عدواً وسبباً رئيسيّاً في منع الأموال عنهما.

إهمال أمّه وعدم اكتراثها له وظلم زوجها وعنفه المستمرّ سبّبا له حرماناً وأذى مستديم استمرّ أربع سنوات الى أن توفيت والدته إثر جرعة زائدة من الممنوعات تاركةً إيّاه وحيداً للحياة ومأساتها.

كان إيّان في السابعة من عمره في ذلك الحين عندما اكتشفت مؤسسة حماية ورعاية الطفل العنف الذي تعرّض له من قبل أمّه وزوجها فنقلوه للعيش في بيت خاله ظناً منهم أنهم يؤمنون له بيئة عائليّة آمنة وطبيعيّة ليكتشفوا عكس ذلك ولكن بعد فوات الأوان"

توقّف لبرهة وكأنّه يحاول ضبط أفكاره ثم تابع " كان خاله رجلاً سكيراً وعنيفاً لقد كان جارنا في الحيّ، هناك تعرّفت الى إيّان وأصبحنا أصدقاء. كان لا يفصل بين منزلي ومنزله سوى سور خشبيٌّ عتيق فيه فتحة كان دائماً ما يتسلل منها ويأتي اليّ هرباً منه.

نايا كانت زوجة خاله، شابة في العشرين من عمرها، أتى بها من لبنان بعدما تزوجها لا أقارب عندها في كندا، كانت وحيدة وبسيطة حنونة وشابة جدّاً. أحبت إيّان كثيراً وهو بدوره أحبّها ووجد فيها حضن الأم الذي فقده في أمّه عندما كان طفلاً ، كان دائماً يتسلل الى فراشها اذا استيقظ من كابوس مزعج اثناء الليل لينام في

حضنها وعند الصباح كانت تخرجه من المنزل وتطلب منه البقاء عندي الى ان تناديه.

كان دائماً ما يقف عند النافذة المطلّة من غرفتي إلى منزله ليستمع الى صراخ خاله وأصوات التكسير والضرب الذي كان ينهال به عليها في كل صباح يعود فيه ثملاً إلى المنزل.

كان يعمل حارساً ليلياً لإحدى الشركات وكان غالباً ما يعود الى المنزل ثملاً وينهال على نايا بالضرب ولا يوفر إيّان إذا صادفه في المنزل، لذا كانت ترسله إلينا كل صباح كي لا تعرضه لما تتعرّض إليه. مرّت السنوات على هذه الحالة إلى أن " غصّ طلال في الكلام وكأنّ ما سيقوله علق في حنجرته، أخذ نفساً عميقاً ثم تابع بصوت مليء بالأسى " إلى أن أتاني يوماً باكياً، لم يتوقف عن البكاء لساعات ثم قال لي (أنا أحبها كثيراً، إنّها أمي التي ربّتني وحَمَتني وتلقّت الضربات عنّي، لا

أستطيع فعل ما تريده منّي، لا أستطيع) كان إيّان حينها في الخامسة عشر من عمره ولم أفهم ما قاله إلاّ بعد سنوات عدّة.

في تلك الليلة التي أتاني فيها باكياً نور، كانت نايا قد قلبت الأدوار وهي من تسلل إلى فراشه مراهقاً وطلبت منه ما يستحيل على ابن أن يفعله لأمّه ولكن رغم ذلك، أرغم نفسه على الرضوخ لطلبها فقط لإرضائها.

بعد مرور سنتين على هذه الحالة، فاجأهم خاله في صباح يوم وهي في فراشه، أخذ المسدّس مطلقاً النّار عليهما عشوائياً. تلقت هي كل الرصاصات ما عدا واحدة، أصابت كتف إيّان.

توفّيت نايا على الفور وأدخل إيّان المستشفى للعلاج النّفسي قبل العلاج الجسديّ وحكم على خاله بالسجن لعشرة سنوات. بقي إيّان في قسم العلاج النفسي إلى أن أكمل الثامنة عشرة من عمره. كنت أزوره دائماً هناك وعندما خرج، باع بعض أملاك والده وحوّل أمواله الى لبنان وقرّر المجيء للعيش هنا. إنّه بلد والده الأصلي.

طلب منّي مرافقته فقبلت دون تردّد ومنذ ذلك الحين ونحن معاً في السراء والضراء "

" يا ليت المسألة مسألة سؤال وجواب نور، إنّها طفولتي ومراهقتي وماضيّ بأكمله ، أنا رجل بلا طفولة، براءتي اغتصبت، روحي سجنت وقلبي تجوبه الظلمات. إنّني ظل رجل لم يبقَ منه إلاّ طيف يسير بلا هدى ولا هدف "

راح صدى كلماته يتردّد في عقلي مراراً وتكراراً.

هذا رهيب،أيعقل أن يكون في هذه الدنيا هكذا ظلم بحق الطفولة والمراهقة. إنّه أمر مأساوي ورهيب ويستحيل أن يكون حقيقة واقعة بحقّ طفولة هذا الرجل الذي لا يتّصف سوى بعكس ما عاناه في ماضيه.

مالَ طلال وجهي اليه يرمقني بذعر " هل أنت بخير؟ قولي شيئاً؟ أنت تخيفينني "

أومأت له برأسي على انّي بخير، ولكن نظراته نحوي لا تشير على أنّه يراني بخير. أنا حقاً أشعر ... لا .... لا أعتقد بأنّي أشعر بشيء ، هذا يعني أنّي بخير، هذا ما قلته

لنفسي . ثمّ فجأة اعترتني رغبة جامحة لرؤيته، لأحضنه وأبكي وأنوح على صدره، لأنعم بدفئه وحنانه وعطفه، لأمسك بيده وأخبره بأنّي أحبّه وأحتاجه وأرجوه بأن لا يتركني ويناضل من أجلي لأنّ حياتي يستحيل أن تستمرّ من دونه.

لألقي بنفسي بين أحضانه وأخبره بأنه أروع وأفضل وأحن إنسان بهذا الكون وبأني سأقضي حياتي كلها أُحبّه وأذكّره بأنّ هناك حب صادق بريئ وخالٍ من المصالح بهذا العالم، عليه فقط أن يناضل لأجل حياته وأجلي .

همست لطلال بهدوء تامّ:

" أريد رؤية إيّان، خذني إليه ... أريد رؤية إيّان خذني إليه ... "

ثمّ رويداً رويداً بدا صوتي يرتفع حتّى ملأ ارجاء الغرفة. أمسكني طلال محاولاً منعي عن الحراك وبعد لحظات امتلأت الغرفة بالممرّضات.

رحت أصرخ علّهم يسمعون: " أنا بخير ... كل ما أريده هو رؤية إيّان ... أنا بحاجة إليه... اسمعوني، أنا فقط بحاجة إليه... أحتاج لأن أكون بقربه ... أرجوكم خذوني إليه،إنه بحاجة الي ، فقط دعوني أكلّمه للحظات أرجوكم "

قال طلال بعصبيّة وهو ما يزال يحاول منعي عن الحراك " افعلوا شيئاً قبل أن تؤذي نفسها."

أجابته الممرّضة وهي تحاول تثبيت حركتي " سنعطيها مهدءاً يجعلها تنام، إنه الحلّ الوحيد الآن، وسأتّصل بطبيبها وأعلمه عن حالها حالاً."

***

استيقظت من نومي مشوشة الأفكار، وأشعر بانزعاج كبير. ماذا حصل؟ ماذا فعلوا بي؟ لا أريد النّوم بعد الآن، ولا اريد الاستلقاء على هذا السّرير اللّعين عاجزة عن الحراك ، لقد مللت من وضعي وعجزي.

رؤيتي غير واضحة وكأنّي في غرفة مليئة بالضباب. نظرت جنبي لألاحظ امرأة ترتدي فستاناً زيتيّاً أنيقاً، تحمل كتاباً تقرأ فيه، شعرها معقود وترتدي نظارة طبّيّة. ابتسمت لي لمجرّد رؤيتي أحاول رؤيتها بوضوح.

رفعت سريري قليلاً حتّى لا ابقى في وضعيّة الاستلقاء التّام ثم ناولتني كوب ماء وهي تبتسم مطمئنة.

أخذت الكوب من يدها وأنا أراقبها. من هي هذه المرأة؟ وماذا تفعل هنا؟

يبدو أنّها لاحظت نظرة التساؤل في عيوني فبادرت بالقول:

" أنا الطبيبة سهى جابر، معالجة نفسيّة، كيف حالك اليوم؟ سمعت بأنّك مررت بحالة هستيريا طفيفة البارحة. لا داعي للخوف هذا أمرٌ طبيعيّ في وضعك وظروفك ولا يعدّ أمراً خطيراً. "

رفعت لها حاجبي مبدية عدم إعجابي بوجودها ولكن ماذا سأقول، إنّها معالجة نفسيّة ولا أعتقد بأنّها بحاجة لتسمع منّي كلاماً لتفهم ما يجول في خاطري. اذ ابتسمت ثم أخذت نظارتها عن عيونها وقالت بصوت دافئ:

"أعرف بأنك تتساءلين عن سبب وجودي هنا. فأنا هنا بناءً على طلب طلال ... لا تخافي ليس لمعالجتك بل للإجابة عن أسئلتك حول موضوع السّيّد إيّان وماضيه. "

رمقتها بنظرة استغراب. ماذا تقصد بكلامها؟ أيعقل أن يكون طلال قد أخبرها بما أخبرني إيّاه عن إيّان؟ هذا لا يجوز، لا يحقّ له بذلك. إنّها مسألة تخصّ إيّان وحده؟

" بالطبع تتساءلين عن الخصوصيّة السّرّية التي تمنع أي طبيب من مناقشة حالة مرضاه مع أي جهة كانت دون إذنه. لقد تلقيت خطاباً من السيد إيّان قبل ساعات قليلة من إصابته يطلب فيها منّي أن أقوم بمساعدتك والإجابة عن أي سؤال قد يجول في بالك حول حالته النفسية والمرضيّة في حال فارق الحياة. ولكن يبدو أنّ طلال

استبق الأمور وأخبرك بكل شيء وتركني في وضع حرج لا أستطيع التخلي فيه عنك، لذا أنا جاهزة للإجابة عن كلّ أسئلتك"

كلامها أثار تساؤلاتي، ولم إيّان يقصد طبيبة نفسيّة بعد مضي كلّ هذه السنوات ؟؟

سألتها: "منذ متى وإيّان يتعالج عندك؟ "

"لقد كنت طبيبته المعالجة للأشهر الستة التي مضت والفضل في ذلك يعود الى طلال الذي سعى جاهداً لإقناعه بذلك"

ولمَ يسعى طلال لإقناع إيّان باللجوء الى معالجة نفسيّة؟

" عفواً على سؤالي، ولكن ما الذي دفع إيّان في اللجوء الى علاج نفسي عندك؟ "

" أنت دفعته الى ذلك "

صدمني جوابها، ماذا تقصد؟ ماذا فعلت أنا؟

" نعم، هذا صحيح، لا تستغربي ذلك.

عندما أتى إيّان لزيارتي في المرّة الأولى، كان في المراحل الأولى للصراع النفسي الذي تملكه عندما بدأ يلاحظ إعجابك به ومحاولاتك للفت انتباهه. وهو بدوره كان قد بدأ يشعر بالضعف والعجز عن مقاومتك بسبب عنادك وإصرارك عليه.

الصراع الذي ولَّدْتِهِ عنده تعود جذوره الى ما عاشه في طفولته. فالمرأة التي أحبّها كأمّه وأعطته الحبّ والحنان والعطف والحماية منذ كان في السابعة من عمره، تحول إلى مرض ومأساة في عمر الخامسة عشر. ففي نفس الوقت الذي كان ما يزال يرى في نايا الأم التي حُرم منها ويحتاج إليها، هي بدأت ترى فيه شاباً وسيماً تريده لنفسها وبشدّة، خارقة بذلك قوانين الطبيعة.

لقد كانت مرحلة صعبة جداً عليه، إذ جعلته يتخلّى فيها عن كل شيء يسمّى براءة وحضن أم دافئ كان ما يزال بحاجته.

أقنعته بأنّها ربّته وحمته وأعطته والآن أتى دوره في إعطائها وحبّها وحمايتها.
غرست في عقيدته أنّ الحبّ هو أخذ وعطاء، لا تعطي إلاّ إذ كنت تتوقع شيئاً بالمقابل ولا يهمّ الوسيلة أو الغاية.

نعم، لقد اغتصبت براءته وطفولته وعقيدته وجعلت الحب بالنسبة إليه وسيلة وليس غاية، بل قضت على قوانين الحبّ بأكملها لديه.

لكنّه تخطّى الأمر وعاش حياته من بعدها، يأخذ ويعطي، عاشر النساء واختار الناضجات منهنّ والذوات خبرة بالحياة وتجاربها وابتعد عن أي امرأة تبدو له بلا خبرة او تجربة سابقة.
كلّهنّ كنّ في عمره تقريباً أو حتّى أكبر منه سنّاً.

في هذه المرحلة العقل الباطن كان هو الذي يتحكّم بتصرّفاته دون أن يشعر هو به.
حتّى ظهرتِ انت في حياته وجسّدت كلّ ماضيه وآلامه وأعدته الى مرحلةٍ من حياته كان يظنّ بأنّها قد ولّت. وأنت بعنادك وإصرارك كنت تضغطين عليه

باستمرار ،والذي جعل حاله تسوء أكثر أنّه بدأ يحبك وبدأت عقدة الذنب تحطم الجدران التي عاش لفترة عشرة سنوات يبنيها بينه وبين الماضي وكأنك أعدته اليه بكبسة زر"

قاطعتها واليأس يتملّكني " ولكن لم أنا؟ لم أنا بالذات التي أعادت له الماضي؟ قلتِ بأنّه عاشر عددًا من النساء بشكل طبيعيّ، فما الذي اختلف معي وجعلني سبب آلامه، وجسر عبور الماضي إليه؟ "

" هذا هو السؤال الذي أريد الإجابة عليه بالتحديد.

كل النساء اللواتي كان يعاشرهنّ مجربات، ناضجات، عندهن خبرة بالحياة. أمّا أنت جعلته يعيش الماضي من جديد ولكنك قلبت الأدوار هذه المرّة. ذكّرته بنفسه عندما كان في مثل سنّك يعيش تحت كنف امرأة أحبّها واحترمها كثيراً كأمّ له.

وأنت أتيت إليه تلك المراهقة البريئة والتي لا خبرة لها بالحياة وما تزال بحاجة الى حضن أبيها الدافئ الذي فقدته. وكأنّ التاريخ يعيد نفسه. فأنت أتيت للعيش في منزله

ووُضعتِ تحت وصايته ليحميك من غدر الدنيا ،ويعلّمك ويكون لك بمكانة والدك الذي خسرته وليس العكس"

"ولكن هذا ليس صحيحاً. فإيّان كان متحفّظاً جدّاً بعلاقته معي. وهناك اختلاف كبير بين علاقتي به وعلاقته بنايا. كيف يعقل أن يفكر بهذه الطريقة؟"

"نعم هذا صحيح بالنسبة إليك والى كل شخص لم يعش الحالة التي عاشها إيّان، ولكن بالنسبة إليه، عقله الباطن هو الذي كان يفسّر له الحالة التي كان عليها معك.

أن تسألي شخصاً ما أن يشعر بك وبألمك لن يكون نفس الشعور ما ذا كان الألم بداخله. تماماً كالمثل الذي يقول: من يشعر بدفء النار ليس كمن يُكوى بها.

وهذا ما حصل مع إيّان. إذ في كلّ مرّة كان يقترب فيها منك أو يشعر برغبة تجاهك كان يستعيد ذلك الألم والعذاب الذي كان يشعر به وهو بين أحضان نايا فكانت عقدة الذنب ترهقه اذ يتهيأ له انّه يستغلك كما استغلّته نايا في ذلك الوقت.

وهنا أتى دوري لأساعده وأقنعه بأنّ ما يحصل هنا أبداً لا يشبه ما حصل في الماضي وأنك حتى ولو كنت مراهقة وبريئة وعديمة الخبرة وتحت وصايته الشرعية. ورغم كلّ أوجه الشّبه هذه التي ربطت بينك وبينه في تلك الأثناء, إلاّ أن هناك فارق جذري وهو أنك أبداً لم تنظري إليه، كما هو نظر إلى نايا ولم تعتبريه ولو للحظة كوالد لك. بل منذ اللحظة التي دخل فيها حياتك وجدت فيه رجل أحلامك الذي تحبينه وتعشقينه. "

" أتقصدين من كلّ هذا أنّه تخطّى المشكلة واقتنع أنّ حبّه لي لا يشبه حبّ نايا له؟ "

"الإجابة عن هذا السؤال معقّدة قليلاً. لا يمكنني القول بأنّه تخطّى تماماً هذه العقدة "عقدة الذنب" ولكنّه أصبح في مراحل متقدّمة من العلاج بخصوصها، إذ بدا يتقبّل الفكرة عموماً واقتنع بأنك لن تكوني سعيدة من دونه وأنك بحاجة إليه، خوفه عليك كان السبب الرئيسي لبوحه بحبه لك. "

"إذاً، مازال يصارع نفسه من أجل حُبّي ومازلت سبباً في عذابه وعقدة ذنبه" وجدتني أتساءل بصوت مرتفع، دون أن أشعر ، إذ بادرت الطبيبة بالإجابة عن تساؤلاتي:

"لا أريدك أن تفكّري بهذه الطريقة، بل اريدك أن تعرفي بأن حبكما لبعضكما هو افضل ما حصل له وما يمكن أن يحصل.

فحبّه لك أعاد إليه حياته الطبيعيّة كإنسان يحبّ، يحلم بالغدّ، يشعر، يتمنّى، يخاف، يتألّم. أنت لست سبباً لآلامه، بل أنت درب التّخلّص منه والدواء الذي سيقضي عليه .ولكن صبراً عليه، فهو مازال مبتدأً في هذه الأمور"

ذكرتني كلماتها بما قاله لي ذلك اليوم تحت شجرة السّرو:

" صبراً عليّ، فأنا مازلت مبتدأ في هذه المسائل" نعم معها حقّ حبّي له غيّره للأفضل كما حبّه فعل معي وإن شاء الله، مع الوقت سيتخطّى تلك المرحلة من حياته وينساها كلّيّاً، طالما أنّنا نسير على الطريق الصحيح بالتأكيد سنصل الى غايتنا

المنشودة في نهاية المطاف. وأنا عليّ أن أتقن دوري وأقنعه بأنّه لا يجتاح براءتي أو يستغلّني بحبه لي، بل بالعكس، إنّه يدافع عنها ويحميها أكثر من أي شخص على وجه هذه الأرض.

الآن فهمت سبب رفضه المستمرّ لي وخوفه عليّ من نفسه، وإذ كان يشعر بي وأنا بين يديه كما كان يشعر بنفسه وهو بين يدين تلك الحقيرة والمريضة نايا، كيف طاوعها قلبها بعد أن ربّته كابنها طفلاً لتستغلّه بعد ذلك وتجبره على أن يكون عشيقها.

لو أنّ زوجها لم يقتلها، لكنت أنا قتلتها بنفسي وعصرتها وقطّعتها. إنّها عديمة الرّحمة والإنسانيّة، وكأنّ ما عاناه من أمّه وزوجها وخاله لم يكفه، لتأتي هي وتقضي على كلّ ما تبقى منه.

إنّه طيب القلب والروح ليحاول حمايتي من نفسه خوفاً من أن يكون مثل نايا ويستغلّ وضعي وضعفي وبراءتي وصغر سنّي لصالحه.

****

ليس هناك أصعب من لحظات الانتظار إذ تتحوّل الدقيقة الى ساعات طويلة ومملّة ومخيفة خاصّة اذا كانت تتعلّق بمسألة موت أو حياة أعزّ وأغلى ما أملك في هذه الدنيا والخبر الذي أنتظره يتعلّق بمصير حياتي ومستقبلي وسعادتي أو حزني الأبديّ.

لليوم حتّى سمحوا لرينا وتمارة بزيارتي، لا أدري، أهي صدفة أم فعل قصد، قصده طلال كي يصرف انتباهي عن عمليّة إيّان الّذي دخل غرفة العمليّات منذ أكثر من ساعتين مضت وإلى الآن لم أسمح أي خبر عنه. وحتّى طلال لم يعد الى غرفتي منذ الصباح حين أتى ليطمئنّ عليّ ويخبرني بموعد بدء العمليّة.

قطعت رينا حبل أفكاري وقلقي وهي تحاول تبرير نفسها:

" اليوم حتّى سمحوا لنا بزيارتك، كانوا دائماً يرفضون بحجّة أنّ حالتك لا تسمح بذلك "

قاطعتها تمارة " لقد خفنا عليك كثيراً، فأنت لا تعرفين ما الذي يقوله الجميع في الجامعة، أحقاً أنّ هذا الرّجل اختطفك وطلب مقابل ارجاعك 10 ملايين دولار ولم يقبل إلا من إيّان أن يذهب بنفسه ووحده لتسليمه المال"

ضربت رينا قدمها بقدم تمارة بخفّة محاولة عدم لفت انتباهي لذلك لكي تغلق فمها ولا تتفوّه بالمزيد ثم قالت:

" أنا أعتذر منك نور على كل ما بدر منّي ذلك اليوم في القهوة.

الغضب أعمى بصيرتي وجعلني أتفوّه بأشياء لم أقصدها، فأنت صديقتي العزيزة ومهما حصل سنبقى أصدقاء "

أشعرتني كلماتها بالراحة لأني بحاجة اليها كثيراً خاصّة في هذا الوقت والوضع، أمسكت بيدها وضغطت عليها بخفّة وقلت:

" وأنا كذلك الأمر، أعتذر على كلّ ما بدر منّي وأعدك من الآن وصاعداً أن لا أخفي عنك شيئاً أبداً و ...."

فقاطعتني فرحة:

" وأشكرك على ما فعلته من أجل والدي وآدم، يبدو أنّ تأثيرك قوي على إيّان اذ اتصل بنفسه بوالدي واعتذر عمّا بدر منه من كلام لآدم وأرسل بطاقة اعتذار مع باقة أزهار جميلة جدّاً الى المنزل باسم العائلة كلّها"

كلماتها جعلت قلبي يعتصر حزناً وألماً واغرورقت عيناي بالدموع.

حبيب قلبي وروحي وعمري، ظننته يمزح عندما قال بأنّه سيرسل بطاقة اعتذار للعائلة بأكملها، اقتربت رينا منّي أكثر مقبّلةً وجنتي وقالت:

" أرجوك،لا تحزني، سيكون بخير، فانا أدعو يومياً لك وله ليشفى ويعود إليك معافاً إن شاء الله"

" أرجو ذلك، ارجو ذلك رينا، وأنا متوتّرة وخائفة جدّاً. أين طلال؟ لمَ لمْ يأت حتى الآن؟ ما قصّته، ألا يعرف بأنّي أتحرّق لمعرفة خبر عن إيّان؟ "

اقتربت تمارة من رينا وهي تراقبني بأسى وقالت:

" اهدئي نور. ما رأيك أن أذهب وأفتّش عن طلال وأسأله القدوم إليك لإخبارك بما تريدين؟ "

مسحت دموعي السخية الحارّة محاولةً كبت نفسي عن البكاء "لا أعرف أين هو، ولا أظنّهم سيخبرونك، فهم متحفّظون جدّاً بمسألة إيّان نظراً لفضول الصحافة، فهم يمنعون أي أحد من الاقتراب من جناحه ويتعاملون مع حالته بسرّيّة تامّة "

قالت رينا علّها تهدئني " حسناً إذاً لا خيار عندك سوى الانتظار، ونحن سنبقى هنا بقربك الى أن يأتيك الخبر وإن شاء الله سيكون خبراً سعيداً ليفرح قلبك. "

أغمضت عيوني مسندةً رأسي الى الخلف محاولةً احتواء ألمي وحزني وخوفي.
أشعر بأنّ قلبي سيتوقف قبل أن يدخل طلال من هذا الباب ليأتيني بالخبر، يا الله!! ما أصعب لحظات الانتظار اذ أشعر أنّها تتآكلني من الداخل وتقضي عليّ ببطء.

***

قفز قلبي من صدري رعباً عندما دخل طلال الغرفة. نظرت الى عينيه الشاحبتين أفتّش فيهما عن علامة تطمئنني عن حالة إيّان. خوفي يسيطر على كلّ افكاري وكأنّ قلبي ينبض في كل أرجاء جسدي. لست مستعدّة، لست مستعدّة لسماع الخبر، أغمضت عيوني راجية من الله أن لا يُسمعني إلاّ الخبر الطيب عنه، فتحتهما من جديد لأرى طلال واقفاً بجانب سريري والإرهاق بادي على محياه، شعره مبعثر وذقنه طويلة، شهقت بذعر منتظرة ما سيقوله .

" لقد خرج من العمليّة منذ نصف ساعة، أعادوه الى غرفة العناية المشدّدة، رفض طبيبه إعطائي أي معلومات عن حاله منتظراً حتى الغد ليستيقظ من العمليّة، لذا ليس بيدنا حيلة سوى الانتظار والدعاء"

" ماذا تعني طلال؟ أنا لا أفهمك، هل نجحت العمليّة أم لا؟ "سألته لا أستوعب ما قاله

" هذا السؤال سيجيب عنه الطبيب غداً نور، هذا ما أعنيه "

" ولمَ أشعر بأنّك تخفي عنّي شيئاً ما، اخبرني طلال، هل هناك شيء آخر تخفيه عنّي؟ "

أجابني بجدّيّة تامّة:

" نور، أنا لا اخفي عنك شيء، أنا فقط متعب ومرهق وأحتاج الى النّوم، آسف، ولكنّي مضطرّ لتركك لبعض الوقت، سأذهب لأستحمّ وأنام قليلاً ثمّ أعود إليك غداً وأرجوك صدّقيني، لقد أخبرتك بما اخبرني به الطبيب، لذا لا تبدئي بتفسير الأمور على هواك وكأنّه ينقصك بعض الهمّ والغمّ، انتهت العمليّة دون مضاعفات وكلّ ما ننتظره منه الآن هو استيقاظه غداً فقط لا غير. "

أومأت برأسي ماسحةً دموعي لتحلّ مكانها أخرى حارّة تحرق عيوني ووجنتي.

بعد فترة قصيرة، دخلت الممرّضة الغرفة مع أدويتي وقالت بلطف:

" أرجو المعذرة صبايا، تأخر الوقت وانتهت فترة الزيارة. فلندع المريضة ترتاح الآن" . ثمّ غرزت حقنة الأدوية في مصلي.

سألتها " ما هذا؟ لا تقولي لي إنّه مهدئ للأعصاب، لا أريد أن أنام، أنا بخير" ولكني قبل أن أنهي جملتي غلبني النّعاس وغطيت في نوم عميق.

***

" صباح الخير، كيف حالك اليوم؟ " حيّتني الممرّضة وهي تقدّم لي فطوري. رمقتها بطرف عيني غاضبة منها ومن فعلتها ليلة البارحة، وضعت صينيّة الفطور أمامي وقالت بإعتذار:

" لقد كنت أتبع الأوامر نور، اتصل بي طبيبك البارحة وسألني إعطاءك المهدئ لتنامي ففعلت"

أجبتها متذمّرة: " ولم لم تخبريني بذلك، على الأقل كنت أعلمتني بما ستفعلينه"

" لأنّي عرفت بأنّك لن تقبلي بها وستتعبيني لأعطيك إيّاها "

دخل طلال في هذه الأثناء، يبدو مرتاحاً اليوم، اذ شعره مصفف وذقنه محلوقة ويرتدي بنطالاً كحلي وقميص مقلّم، تنفست الممرضة الصعداء عندما رأته وقالت:

" هذا جيّد أنّك أتيت, هيّا أخبرها أنّ لا شأن لي بما حصل البارحة فهي غاضبة منّي، لقد كنت عبداً مأموراً ليس إلاّ "

وجهت انتباهي إلى طلال مستغربة كلامها، وما شأنه هو بذلك ؟ الى أن فهمت القصّة بأكملها. قلت حانقة عليه:

" طلال... هل أنت من طلب من الطبيب إعطائي مهدئاً لأنام البارحة؟ "

وقف بقرب السرير يراقب فطوري بشهيةً وكأنه يعاني مجاعة، أشار الى الممرّضة بالانصراف ثمّ مدّ يده آخذاً علبة الهلام عن الصينيّة فتحها وراح يلتهمها بشهيّة مفرطة:

" مم ... لطالما كنت احبّ أكل الهلام، إنّها لذيذة " ثمّ نظر إليّ ببراءة وقال " آسف لم أسألك، أتريدين القليل منها؟ " ثمّ عاد يأكلها من جديد.

رحت أراقبه بغضب ولو أني قادرة على الحراك لوقفت من مكاني وانهلت عليه بالضرب الشّديد. أعادها الى الصينيّة فارغة، ثمّ جلس على الأريكة وقال:

" نعم أنا طلبت من طبيبك إعطاءك المهدئ، فأنت لم تري حالتك كيف كانت البارحة، وبصراحة انا كنت مرهقاً كثيراً وبحاجة الى النوم وكان هذا الحلّ الوحيد لأنام وأرتاح"

ماذا يحصل معه اليوم؟ وما شأنه بي؟ إذا كان هو مرهقاً وبحاجة الى النوم فيعطيني المنوم ، لينام هو بسلام؟ كيف يحصل هذا؟ سألته غاضبة من فعلته: " وما شأني بك، تعطيني منوّماً لتنام أنت، كيف يحصل هذا؟ "

" أعطيك منوماً آنسة نور، لأنام مطمئنّاً من دون قلق على حضرتك "

" أنت أناني طلال "

حدّق بي غير مصدّق ما قلته :

" أناني!...أهذا ما استنتجته في نهاية المطاف، أناني !... شكراً لك آنسة نور "

" هلاّ توقفت عن مناداتي آنسة نور "

" أمرك، آنسة نور "

يا الله!! أشعر وكأنّي بركان هائج على وشك الثوران في أي لحظة. أمسكت بعلبة الهلام الفارغة ورميتها عليه بعصبيّة، التقطها قبل أن تصيبه ثمّ فتحها من جديد وراح يأكل ما تبقّى من أثرها.

إبتسمت أراقبه غير قادرة على تمالك نفسي عن الضحك من تصرفاته.

قلت وأنا أحاول تهدئة نفسي عن الضحك إذ شعرت بألم حاد في خاصرتي:

" ما خطبك اليوم طلال؟ فأنت على غير عادتك؟"

أجابني بجدية تامّة والحزن والإرهاق بادٍ في نبرة صوته

" لقد تعبت نور، تعبت من كل شيء،... والبارحة كان يوماً شاقاً ومرهقاً ، وكأنّي كنت أقف عند حافّة الهاوية منتظراً من أحدهم ليدفعني نحو الأسفل"

تمنّيت لو أنّ بإمكاني الحراك لاحتضنته بقوّة لمواساته. فأنا وإيّان قابعان في سريرين طوال النهار والليل ولا ندري بما يدور من حولنا. أمّا هو فعليه مواجهة كل شيء من حوله، العمل، الصحافة، الأطباء، ونحن. يا الله، وبعد كل هذا أتذمّر منه ومن تصرفاته وغيابه عنّي لبضع ساعات، دون أن أفكّر به وبمشاعره وخوفه وقلقه وتعبه وأعماله، وكأنّه رجل آلة يعمل على البطاريّة. أنا سيئة، وسيئة جدّاً. جلّ همّي كان إيّان ونسيت هذا الرجل القابع أمامي يتعّذّب ويحاول جاهداً تأمين حاجاتنا دون تذمّر أو تقصير.

" أرجوك طلال سامحني، فأنا في بعض الأحيان أتصرّف دون تفكير و ......"

قاطعني قائلاً: " هاي، هاي نور، أنا أرجوك، فأنا اليوم أشعر بالراحة لذا لا تفسدي عليّ هذه اللحظات وعودي الى ضحكتك، فهي بالنسبة لي أفضل من كل الكلام والمبرّرات التي ستعددينها أمامي الآن"

" كيف حالك أنتَ وسارة؟ هل عادت المياه الى مجاريها بينكما؟ "

" نحن بخير، سارة امرأة طيّبة ويجمعنا تفاهم عميق وقديم، لذا كان من السهل إصلاح الأمور بيننا من جديد "

لا يبدو سعيداً بكلامه عن علاقته مع سارة، لا بدّ أنّ ما حصل أثّر على عمق مشاعره نحوها، ولكن كما قال، فهو يعرفها منذ أكثر من ثلاث سنوات وما يجمعهما يتعدّى قصّة الحبّ بل تاريخ وتجارب وعِشرة ، وهذه الأمور ليس من السهل التخلي عنها بسهولة.

ربّما مع الوقت سيتخطّى ما حصل بينهما ويعود معها كسابق عهده.

سألته بتردّد:

" ماذا ستفعل مع إيّان ، خاصّة الآن، بعد ان عدت الى سارة، أتظنّ أنّه من الضروري إخباره سبب المشكلة؟ "

نظر إليّ مطوّلاً وكأنّه شرد في وجهي ليتنبّه لذلك تنحنح معتدلاً في جلسته:

" لقد أخبرت إيّان، بات يعرف كلّ شيء، لذا لا داعي للقلق حول هذه المسألة بعد الآن"

صدمني كلامه ! أخبر إيّان!!

سألته مذهولةً من كلامه " أخبرته !، ولكن كيف ومتى فعلت ذلك؟ انت وعدتني بأنّنا سنخبره معاً." ثمّ وجدتني اصرخ به " لقد نظرت الى عينيه وكذبت في وجهه دون تردّد طلال . كيف فعلت بي ذلك؟ "

" لقد علم أنّك تخفين عنه شيئاً ما ،نور، أوتظنّين أنّ المسألة مرّت على إيّان بهذه البساطة دون ان يلاحظ أنّ هناك خطباً ما؟ "

" ماذا تقصد؟ "

" لقد شعر بأنّك تخفين شيئاً عندما كنتما تتحدّثان بالسيارة ، ولكنّه لم يرد إحراجك والضغط عليك للبوح بما تخفينه ، وعندما وصل الى الشركة سألني عن مشكلتي مع

سارة، عندها عرفت أنّه يشك بأمر ما، فاضطررت لإخباره بكلّ شيء. أنا أعرف إيّان جيّداً، ما كانت مسألة كهذه لتمرّ عليه بسهولة، خاصّة اذا كانت تخصّك "

" هذا رهيب، طلال، ولكنّه لم يفتح معي هذا الموضوع، لم يتحدّث عنه معي قطّ. كيف كانت ردّة فعله؟ هل صدّقك؟ ماذا سيظنّ بي الآن؟ سيظنّني كاذبة "

" اهدئي نور ... أوّلاً، نعم، اعترف لك أنّه انزعج منّا ولكن لسبب واحد وهو محاولة إخفاء سبب المشكلة عنه وكأنّنا لا نثق برجاحة تفكيره ، ولكنه في نهاية الأمر تفهم السبب الذي دفعك لفعل ذلك.

أمّا أنه ظنّ بنا كما ظنّت سارة، فهذا مستحيل. إيّان أوعى من ذلك بكثير وهو واثق من صدق مشاعرك تجاهه لذا وجد انه ما من داعي لإعطاء المسألة أكثر ممّا تستحقّ، فأغلق على الموضوع دون أي تعليق إضافيّ. "

....

الفصل الثاني عشر

تفقدت السّاعة إنّها الرابعة مساءً وحتّى الآن لم نسمع خبراً عن إيّان. تركني طلال منذ أكثر من ثلاث ساعات، ذهب الى الشركة لينهي بعض الأعمال العالقة ولم يعد حتّى الآن.

الممرّضات لا يعرفن شيئاً عن حالته. التوتر يقتلني ويجعل صبري ينفذ. قفز قلبي فرحاً لحظة دخل طلال الغرفة عند الخامسة مساءً برفقة الممرّضة فاستقبلته فرحة لرؤيته ومتذمّرة من تأخيره:

" وأخيراًا! ايعقل هذا؟ أكلّ هذا الوقت في الشركة أم بالتأكيد ذهبت الى سارة بعد ذلك "

تبادل والممرّضة نظرات غامضه ثمّ عاد إليّ عاقداً حاجبيه وأنا تابعت تذمّراتي متجاهلة إيّاه

" هل ذهبت الى إيّان؟ هل استيقظ؟ الجميع هنا يرفض إخباري بأيّ شيء، هيا طلال، ما بالك أخبرني"

ضحك يهزّ برأسه وقال: " وكأنّه لا يكفينا متذمّر واحد، الآن أصبحوا اثنين "

" ماذا تقصد؟ "

" أقصد إيّان، لم يكفّ عن السؤال عنك منذ اللحظة التي استيقظ فيها، ولو أنه قادر على الحراك لأتاك بنفسه راكضاً"

قفز قلبي فرحاً وانقبضت معدتي لهذا الخبر. أجبته فرحة وكأنّ السماء تمطر أزهاراً ملوّنة:

" لقد استيقظ، كيف حاله؟ وماذا كنت تنتظر لتخبرني؟"

" استيقظ منذ حوالي الساعتين، ولكنّ طبيبه أبقاه في العناية حتّى انتهى من إجراء كلّ الفحوصات اللازمة له. والحمد لله جميعها كانت جيّدة، فنقلوه منذ قليل الى غرفته. "

أغمضت عيوني مسندةً برأسي الى الخلف أتنفس الصعداء، الحمد لله، إنّها المرّة الأولى منذ أسبوع أقدر فيها على الاسترخاء والتّنفّس دون أن أشعر بأنّ هناك شيئاً ما يضغط على صدري ويعصر معدتي وأمعائي ...

" أريدك أن تأخذني إليه ... أرجوك طلال "

جلس على الأريكة بجانبي وقال:

" حسناً، هذا ما أريد التحدّث إليك بشأنه الآن، طبيبك غير راضٍ عن صور الأشعة التي أخذوها لك صباح اليوم وقال بأنّك تضغطين على نفسك وتتحرّكين رغم أنّه منعك من ذلك. لذا، يا عزيزتي، لن تذهبي اليوم الى أي مكان... ولكن .. " سكت يحاول ضبط نفسه عن الضحك وكأنّ هناك شيئاً ما يدغدغه ثمّ تابع بحماس " غداً سننقلك الى غرفة مشتركة مع إيّان علّنا نرتاح من تذمّراتك وطلباتك"

شهقت فرحةً " حقاً .. وهل قبل طبيبه بذلك؟ هل حال إيّان تسمح بأن أبقى بقربه؟ "

"وهل كان للطبيب خيار آخر، فأنت لم تري إيّان عندما استيقظ كان همّه الوحيد رؤيتك والاطمئنان عليك، لولا سيطرة الطبيب على الأمور لكان أتاك بنفسه. لذا وجدنا أن جَمعكما في غرفة واحدة هو الحلّ الوحيد للسّيطرة عليكما وعلى تمرّدكما"

حضنت نفسي فرحةً بكلامه، لقد عاد، حبيبي عاد ومشتاق اليّ كاشتياقي إليه. حسناً لا ضرّ بأن أنتظر رؤيته للغد. لا أعرف كيف سأقضي ليلتي بانتظار نهار الغد ليأتي وأذهب إليه، لأراه وأشتمّ رائحته وأسمع صوته وألمس يده.

" وهناك شيئ آخر "

"ماذا ؟!" سألته بقلب مقبوض

" لن تتحدّثي عن موضوع زواجكما ، إنّه لا يعلم بأنّي أعطيتك الخطاب ، ولذا لن توقيعيني بمشكلة عويصة معه وتفضحين فعلتي ، إتفقنا "

حدّقت به أتأمل وسامته وروحه وطيبته ، أنا أُحبّه كثيراً كثيراً ، ومأت له برأسي أخذةً كفّه إحتضنتها برفق معلّقةً" أنا أحبك كثيراً طلال ، أنت أروع شخص في حياتي "

ضحك معلّقاً هو الآخر " أروع شخص ، أو أروع ثاني شخص ؟؟!!"

" أنت أروع أوّل شخص ، إيّان أروع ثاني شخص ، ولكن لا تخبره بذلك كي لا يغضب "

إسترسل بالضحك أخذاً رأسي يلثمه بحنان ثم وقف من مكانه مغادراً الغرفة.

***

وضعوني على كرسيّ مدولب وقادوني نحو غرفة إيّان، نبضات قلبي بدأت تخرج عن سيطرتي. التوتّر يرهقني وحماسي الشديد يجعلني أرغب في الوقوف والركض إليه.

تركتني الممرّضة مع طلال أمام الغرفة ودخلت، وبعد برهة سمعته يتحدّث معها... قفز قلبي من مكانه عندما سمعت صوته، ضغطت على جوانب الكرسيّ محاولةً التخفيف من حدّة توتّري، وضع طلال يده على كتفي وقال:

" اهدئي، لا تتركيه يراك هكذا، لقد قضينا البارحة بأكملها نقنعه أنك بخير لذا حاولي أن تطمئنيه عنك وليس العكس"

" أصبح سريرك جاهزاً لاستقبالك، فلندخل "

راحت عيناي تفتّشان عنه، لا أريد رؤية أي شيء آخر غيره، لاقتني عيناه الزرقاوتين الباهتتين والمرهقتين من المرض وكثرة النوم، ابتسم ابتسامة باهتة وهو يمدّ يده إليّ يدعوني للاقتراب منه. ابتسمت له محاولةً كبت دموعي، طلال محق، يجب أن لا أدعه يقلق عليّ، لذا لن أبكي لرؤيته بل سأبتسم وأفرح به.

قربني طلال من سريره القابع من الجهة الداخليّة للغرفة بجانب النافذة صدره ملفوف مع كتفه بقطعة شاش عريضة تغطي قسماً كبيراً منه.

والمصل يتدلّى من يده وآلة الضغط والقلب موصولتان بصدره.

تركني طلال بقرب سريره وقال ممازحاً " سنعود بعد قليل، لا تستأنسوا" ثمّ اختفى هو والممرّضة وراء الباب.

أعطيته يدي وأنا أراقبه متفحّصة إيّاه. شعره مبعثر وطويل، بشرته وشفتاه الباهتتان، لا لون فيهما، ذقنه الطويلة نسبياً. لو أن بقدرتي لوقفت عن الكرسيّ ورميت بنفسي بأحضانه. إنه هنا بشحمه ولحمه مستلقياً على السرير وبخير يراقبني بنظرات مشتاقة وقلقة ، أشعر برغبة في البكاء والإرتماء على صدره والبقاء بقربه الى الأبد لأنه جزء لا يتجزأ مني ، إنه نبض قلبي وروح جسدي والنفس الذي أحيا بواسطته.

"هل أنت بخير؟ أتتألمين كثيراً؟" قال بصوت ضعيف وهو يمسك بيدي. قواه خائرة ولمسته ضعيفة وبطيئة وكأنّه يحاول جاهداً تحريك يديه والنطق بالكلمات.

ضغطت على يده بخفّة وقلت " أنا بخير طالما أنت بخير " ثمّ لاحظته يتأمّل ذراعي المشدودة الى عنقي وفخدي المحاط بالجص الأخضر، حرّر يدي مقترباً من وجهي يتلمس بشرتي وملامحي بأنامله ، بدأ من جبهتي وانتهى عند شفتي.

لم أستطيع تمالك نفسي فأخذت كفّه عن وجهي وقبّلتها بشوق وحب .

قال بصوت واهن " ملاكي الصغير، حبيبتي العزيزة على قلبي وروحي ونفسي، ماذا كنت سأفعل من دونك؟ "

أجبته " وماذا كنت سأفعل أنا من دونك؟ "

" يعذبني ما أصابك. ولو كان بإمكاني أخذ آلامك لفعلت وأرحتك منها"

قربت يده من قلبي وقلت " وأنا ما كنت لأرضى بأقل مما حدث لي مقابل أن أكون بقربك دائماً وأبداً"

نظر إليّ بأسى وكأن قولي أزعجه، اختفت الابتسامة عن شفتيه ولكنه قبل أن يعلق على ما قلته، دخل طلال برفقة الممرّضة وقال:

" هذا يكفي للآن، علينا وضعك في سريرك قبل أن يأتي طبيبك ويعترض على ما نفعله"

تبعتهما ممرضة إيّان، قالت وهي تضع حقنة في مصله:

" لقد أخرت دواءك بما فيه الكفاية ليتسنّى لك الوقت لرؤية نور والاطمئنان عليها ، والآن بعد أن فعلت، أظنّ أنّ الوقت قد حان لتأخذ دواءك دون اعتراض، عليك أن ترتاح الآن"

وبينما طلال والممرّضة يساعدانني على الاستلقاء في سريري، لاحظت أن إيّان يحاول جاهداً مقاومة نعاسه دون جدوى، إذ لحظات وغطّ في نوم عميق.

" إلى متى سينام؟ " سألت ممرّضتة عند الباب.

" الى صباح الغد ان شاء الله، لا تخافي، فجسده مازال ضعيفاً من العمليّة ويحتاج الى النوم والراحة ليستعيد عافيته، غداً سيكون أفضل بإذن الله "

وجودي قربه وهو نائم كالطفل الصغير ذكرني بحديث طلال عنه وكل ما عاناه في طفولته وفترة مراهقته، لا أصدق بأن هذا الرجل المستلقي في ذلك السرير عانى ما عاناه في ماضيه.

مازلت أذكر كلامه عندما أخذ بيدي ووضعها على قلبه ووصفه بالسقيم والبارد والغير قادر على الحبّ وإعطاء الحبّ, إنّه مخطئ. إذا كان هو غير قادر على الحبّ، فماذا يسمّى كل ما فعله من أجلي، ابتداءً من حمايته لي ومشاعره تجاهي وحنانه وعطفه وحبّه الكبير. وكأنّ ما مرّ به من مأساة وخيبات وآلام وأحزان، صنعوا منه رجلاً أفضل , نادر الوجود غير قادر إلا على إعطاء ما حرم منه طوال حياته وهو الحب والحماية والحنان. بقربه أشعر بكياني وأنوثتي، وصعاب الحياة تنساب بسهولة لتصبح مجرد ذكرى منسيّة. إنّه بكل تأكيد، إيّان حياتي.

***

استيقظت على صوت قادم من ناحية إيّان، إنه صباح اليوم الثاني وآخر ما أذكره قدوم طلال مساءً ليطمئن علينا. لا بدّ أنّي غفوت وأنا أراقب إيّان نائماً.

الستارة التي تفصل سريرينا مغلقة، لا بدّ أنّ طبيبه عنده اذ سمعته يقول:

"هذا ممتاز، يبدو أنّ الرفقة نفعتك في نهاية الأمر، مؤشراتك الحيويّة أفضل بكثير ممّا كنت أتوقع"

ثم سمعت إيّان يقول، صوته اليوم يبدو أحسن من البارحة.

" أحتاج لأن تسمح لي باستعمال الحاسوب لإنهاء بعض الأعمال العالقة"

" إنّها مسألة صعبة سيد كرم، فأنت مازلت في فترة النقاهة، صحتك الآن هي الأهمّ من كل شيء وأهمّ من الملايين التي ستكسبها من صفقاتك العالقة، أليس كذلك؟ " قال مازحاً.

" معك حقّ، صحتي أهم من كل ما أملك ولكن عندي مسؤوليات اتجاه موظفي وعمالي وأنا أعتبرهم بأهمية صحتي أيها الطبيب، لذا أنا مجبر على إنهاء تلك الأعمال العالقة، فمستقبل عائلات كثيرة يتوقف عليها."

سكت الطبيب لبرهة ثمّ قال " لا شكّ عندي سيد كرم أنّ رجلاً بشهامتك يستحقّ ان يكون بمركزك، ولكن عليك أن تعدني بأن لا تضغط على نفسك كثيراً، فاليوم سندعك تمضي نهارك دون مسكنات لنرى غداً كيف ستكون نتيجة فحوصاتك، جسدك مازال يتأقلم للعودة الى وضعه الطبيعي، حتى ذلك الحين عليك الاعتدال بكل الأمور"

" سأفعل، أعدك بذلك "

ثم سمعت وقع أقدام الطبيب يغادر الغرفة ولكن يبدو أن ممرضته مازالت عنده اذ أرى ظلّها يتحرّك بجانب سريره، لا بدّ أنّها تمسح جسده بالفوط المعقّمة اذ أشمّ رائحتها تفوح في أرجاء الغرفة.

أزعجتني فكرة يدها على جسده، لا بدّ أنّها فرحة بنفسها وهي تلامسه بحجة تنظيفه، أوتظنّ بأنّي لم أنتبه لها البارحة عندما كانت تراقبه برغبة مصفِّفَةً شعره بيديها بعد أن أعطته المهدئ لينام.

إنّه سحر إيّان، لا أعتقد بأن هناك من يقدر على مقاومة سحره ذاك.

ضغطتّ على زرّ استدعاء ممرضتي التي وجدتها أمامي بلمح البصر. طلبت منها أن تفتح الستارة بيننا، فتركتني وذهبت الى الجهة الثانية لتأخذ إذن إيّان بذلك ومن ثمّ فتحتها من جهته.

وإذ ممرضته العزيزة قريبةً منه حدّ الخطر ترمقه بابتسامة خجولة وتوتر بادٍ على محياها ممسكةً بيده تمسح بين أصابعه، رؤيتها على هذه الحال زادت من نار الغيرة في قلبي. أمسكت نفسي عنها كي لا أصرخ بها مطالبةً نزع يدها عنه، رمقت إيّان بطرف عيني فوجدته يراقبني بعينيه الزرقاوتين والابتسامة على شفتيه. تجاهلته عاجزة عن مبادلته الابتسامة نظراً لما يختلج في صدري من غيرة هوجاء.

سحب يده من يد الممرّضة وقال بلطف: " شكراً لك ، هذا يكفي "

ثمّ أعاد انتباهه إليّ عاقداً حاجبيه وقال:

" ما الذي يدور في بالك نور؟ "

رفعت حاجبي بإستنكار رافضةً النظر اليه محوّلةً انتباهي الى ممرضته التي تتهادى مغادرةً من أمامي وكأنّها غير مكترثة لوجودي.

سألته وأنا أحاول ضبط وتيرة صوتي الحانق " ألا يوجد ممرض ذكر في هذه المستشفى؟ "

أجابني بنبرة وكأنّ سؤالي لم يعجبه " وما حاجتك الى ممرض ذكر؟ "

" ليعتني بك ويساعدك بدلاً من هذه الممرّضة التي يبدو أنّه لا شغل عندها سوى مداعبة شعرك وأنت نائم وإمساك يدك وملامستك"

ضحك ضحكة ضعيفة باسطاً كفّه مكان إصابته، لا بدّ أنّ الضحك سبب له الألم
"أتغارين عليّ من الممرّضة؟ وأنا في هذه الحالة؟! ...حبيبتي، أنا لا أرى في هذه الدنيا سواك. أنت نبض هذا القلب، دونك ستنعدم الحياة فيه دون رجعة"

أجبته متذمّرة وكأنّ كلامه ليس بكافٍ لإقناعي " ولكنّي لا أطيق أن أرى أحداً غيري يرعاك ويهتمّ بك، عجزي يحزنني ويحبطني.... "

قاطعني قائلاً بأسى " توقفي أرجوك، توقفي ولا تكملي. لا تنسي أن حالتك هذه أنا السبب فيها. فلولا مشاكلي وماضيّ وحبي لك لما واجهتِ كل هذا، واقتربتِ من الموت الى تلك الدرجة. "

أجبته بصوت ضعيف متحاشية النظر إلى عينيه:

" أنا بخير إيّان، إصاباتي كلها ليست بخطيرة، ولم تتعدّ بعض الكسور والرضوض. ولكن حالتك هي التي كانت تخيفني، ظننت بأني خسرتك إلى الأبد ولم أصدّق أنّك مازلت على قيد الحياة إلاّ عندما رأيتك بنفسي في غرفة العناية المشدّدة.

كنت أصلّي كل يوم متمنية شفاءك وعودتك اليّ. ما كنت لأتحمّل خسارتك، أفضّل الموت على فراقك إيّان "

أجابني خانقاً:

" أوتظنّين أنّ الموت لعبة أو قرار يأخذه الإنسان بسهولة كما فعلت حضرتك ذلك اليوم. عنادك وتمرّدك كانا سيوديان بحياتك ويجعل كل ما فعلته يذهب هباءً دون جدوى "

أجبته غير مكترثة لما أقوله، إذ ذكّرني للتوّ بما فعله الأسبوع الماضي:

" وكيف ظننت للحظة من اللحظات بأنّي سأخرج من ذلك المكان تاركة إيّاك لذلك الرّجل. وكيف طاوعك قلبك على تسليم نفسك مكاني، وأنت على علم بأنه سيقتلك ولن يتركك تخرج حياً. نعم، أنا أفضل الموت على فراقك. ولو تكرّر هذا الأمر سأكرر نفس الفعل لن أخرج. ولن أخرج وسأبقى لألقى ما تلقاه أفهمت إيّان. "

رفع صوته الضعيف قدر إمكانه يقول حانقاً:

" السبب الوحيد الذي جعلني أذهب إليه هو لإنقاذك منه، إنّه مجرم وعديم الرّحمة وأنت لا دعوة لك بكلّ ما حصل. ماذا كنت سأفعل لو أنّه قتلك؟ أخبريني، كيف كانت ستكون حياتي لو أنّ مكروهاً أصابك وبسببي؟ قولي لي ... ... ما الذي يجري لك نور، أإلى هذه الدّرجة حياتك رخيصة عندك؟ "

نبرة صوته الضعيفة أخافتني، إذ اختفى صوته قبل أن ينهي جملته الأخيرة غطّى وجهه بكفّه وكأنّه يحاول كبت ألمه ومشاعره.

أخافني ضعفه ، هل فقدتُ عقلي كليّاً ؟؟!! ما الذي نفعله؟ ما الذي أفعله؟ الوقت ليس ملائماً لهكذا حديث خاصّةً الآن وهو بحالته هذه،حالته لا تسمح له بالانفعال ...

أنقذ دخول طلال علينا الوضع ، يحمل جهازي حاسوب وقف بين سريرينا يهزّ برأسه معاتباً يبدو أنّه غير راضٍ بما سمعه.

" ما الذي سمعته وأنا قادم من البهو؟ لا تقولا لي أنكما تتشاجران، إذا كان هذا ما تفعلانه فمن المستحسن أن أستدعي الممرّضة حالاً لنقل أحدكما من هنا... "

قاطعه إيّان باسطاً ذراعه نحوه لأخذ حاسوبه "هذا ما كنت أحتاج إليه، أعطني الحاسوب واخرج من هنا "

رمقت طلال بطرف عيني لأراه يحمل حاسوبي أنا أيضاً، أعطاني إيّاه وقال:

" خذي حاسوبك وراجعي محاضراتك وتوقفي عن مضايقته. صحّته لا تسمح بذلك "

رفعت حاجبي منزعجة من تعليقه. ولم يظن بأنّي أنا من يزعجه؟ لما لا يكون العكس، وهو من يزعجني؟ تجاهل نظراتي وتركني راحلاً ليتوقف عند الباب يقول ممازحاً :

"أتريدونني أن أغلق الستارة بينكما؟ فأنا أشعر بأنّ الجوّ مشحون ولا أريد المخاطرة بترككما وحدكما لأعود وأجد مجزرة قائمة بينكما "

في نفس اللحظة التي رمقت فيها طلال بنظرة كفى هراءً رمقه إيّان بالمثل.

ضحك رافعاً ذراعيه في الهواء مستسلماً " حسنا، حسناً سأخرج " واختفى وراء الباب.

فتح إيّان حاسوبه فور استلامه يتفحّص بريده الإلكتروني. طالما أنه يتحاشاني فسأفعل مثله. فتحت حاسوبي لأراجع محاضراتي التي أرسلتها لي رينا:

أوّل رسالة كانت منها وتقول:

عزيزتي نور:

أرجو أن تكوني بحالة جيّدة، سمعت بأنّ عمليّة إيّان أجريَت بنجاح، حمداً لله على سلامته وبلّغيه تحياتي.

منعوا عنّا الزيارة عندما انتقلت الى الغرفة المشتركة بحجّة عدم إزعاجه.

لقد سألت عن أفضل زميل لك يأخذ نفس المواد التي تأخذينها ودلوني على هشام صالح، لست متأكدة من أنك تعرفينه، ولكنه يعرفك وأبدى اهتماماً شديداً

لمساعدتك، لذا أعطيته بريدك الإلكتروني وطلبت منه إرسال كل المحاضرات التي فاتتك إليه.

أرجو لك التوفيق

صديقتك المشتاقة رينا.

وجدتني أبتسم للشاشة دون أن أعى، إنّها حقاً لصديقة وفيّة ومحبّة. فتحت أوّل محاضرة وبدأت بمراجعتها. وبعد مرور بضع ساعات من تصفح محاضراتي شعرت بالملل والتعب.

رمقت أيّان بطرف عيني فوجدته على نفس الوضعيّة التي كان عليها ، أصابعه لم تتوقّف عن ضرب أزرار الحاسوب منذ استلمه، يقرأ، يطبع ثم يرسل وهكذا. إنّها المرّة الأولى التي أراه يعمل فيها ، وكأنّه يعيش في عالمه الخاص ، حتّى أنّه لم يرفع بصره عن الحاسوب عندما دخلت علينا الممرّضة لتفقدنا.

أيعقل هذا، أعتقد بأنه سيقضي نهاره بطوله يعمل. وأنا ماذا أفعل؟ أأنظر الى الجدران؟ أريد التحدّث معه، خاصة الآن، إنّه غاضب مني ، لا يمكنني تركه هكذا عليّ مصالحته، ولكن كيف؟

دخلت البريد الإلكتروني وطبعت:

من نور

الموضوع: أشعر بالملل

النص: مرحباً

أرسلتها وانتظرت الرّدّ متحاشيةً النظر إليه.

توقف عن الطّبع للحظة ثم عاد من جديد، وبعد لحظات استلمت بريداً منه

من إيّان

الموضوع: مشغول

النص: مرحباً، اذا كنت تشعرين بالملل، جدي لنفسك شيئاً تفعلينه.

من نور

الموضوع: شيء أفعله

النص: ما رأيك بمرافقتي في الجري لحرق بعض الدهون وقتل الملل.

من إيّان:

الموضوع: شيء أفعله

النص: هناك آلاف الأشياء يمكنك فعلها دون اضطرارك الى الحركة. لسانك الطلق مثلاً، لا يحتاج إلى الحركة ليعمل وكما أذكر فآخر مرّة جربته كان يعمل بامتياز.

من نور

الموضوع: لساني الطلق

النص: سيّد إيّان كرم، إذا كان لساني الطلق أسمعك كلمة أزعجتك فأنا أتبرّى منه من أجلك أنت فقط.

من إيّان

الموضوع: لسانك الطلق

النص: آنسة نور رضى، لا شك عندي بذلك، فأنت مستعدّة للتبري من نفسك لأجلي. أوتظنين بأن هذا يفرحني؟ لا ... لا يفعل.

من نور

الموضوع: قلبي يؤلمني

النص: أما زلت غاضباً منّي؟

من إيّان

الموضوع: قلبي يؤلمني

النص: نعم

من نور

الموضوع: عنادي وتمرّدي

النص: ماذا يمكنني أن أفعل لكي تسامحني؟ فأنا لست آسفة على ما فعلته، لذا لا يمكنني القول "أنا آسفة" ولكن يمكنني أن أعدك بأن أحاول أن أتخلّص من عنادي لأجلك أنت فقط.

نظرت إليه بطرف عيني، رأيته يبتسم وهو يقرأ بريدي، هزّ برأسه مباشراً بالطبع.

من إيّان

الموضوع: عنادك وتمردك

النص: مهما حاولتِ ، فأنت لن تقدري على التخلص من صفة العناد. ومن قال لك بأنّي أريدك أن تتخلّصي من عنادك؟ فأنا أحب هذه الصفة فيك ولي معها ذكريات جميلة. عنادك علّمني كيف أحبك وأعشقك وأحارب من أجلك. إنّه جزء مميّز من شخصيتك ولكنّه بكل تأكيد يحتاج الى "ترويض".

من نور

الموضوع: عنادي وتمرّدي

النص: إذاً هذا يعني أنّك مازلت تحبّني

من إيّان

الموضوع: : إذا أنت تحبني

النص: ما هذا السؤال؟ بالطبع مازلت أحبّك

من نور

الموضوع: : إذا أنت تحبني

النص: أتلاحظ أنّك حتى الساعة لم تسألني ولو مرّة ما إذا كنت أحبّك

ابتسم ابتسامةً عريضةً ثمّ راح يطبع ويطبع ...إنتظرت بريده بعدم صبر، ماذا يفعل؟ أيكتب مقالاً للجريدة؟ ثمّ أخيراً استلمت بريده.

من إيّان

الموضوع: هل تحبني؟

النص: غريب أمركن أنتن النساء، ما شأنكن وهذه العبارة؟

فالرجل يقتل نفسه أمامكن ويضحي بنفسه من أجل سعادتكن ويصارع القدر ليكون بقربكن. وبعد كل هذا التعب والإرهاق وقبل أن يأخذ نفساً من الركض وراءكن تسألنه: " وهل تحبني؟ " فأنت لم تخبرني اليوم أنك تحبني فتسببون له أزمة قلبيّة قبل الاعتراف بحبه لكن.

حبيبتي نور، الحب بالأفعال وليس بالكلام. وأنا رأيت منك ما يفوق الحب والعشق والهيام بأشواط كثيرة. لذا لا أجد من داعي للسؤال. لا شك عندي من صدق وعمق مشاعرك نحوي.

من نور

الموضوع: هل تحبني؟

النص: حبيبي إيّان، لا أعتقد بأنّ هناك ضرّ إذا سمعت منك هذه الكلمة بين الحين والآخر فتعيد إنعاش الحبّ في قلبينا من جديد.

من إيّان

الموضوع: هل تحبني؟

النص: حبيبتي نور، إذا كان هذا ما تريدينه؟ فعبارة أحبك أسهل بكثير من تبعات الحبّ، لذا لك عليّ قولها في اليوم عشرات المرّات وسأبدأ من الآن: أحبك، أحبك ، أحبك، أحبك آنسة نور رضى.

ملاحظة هامّة جدّاً: آنسة نور رضى هل تحبينني. فأنا نادراً ما أسمع منك هذه الكلمة.

من نور

الموضوع: هل تحبني؟

النص: ما هذا السؤال السخيف سيد إيّان؟ بعد كل ما فعلته من أجلك وتسألني ما إذ كنت أحبك؟ عارٌ عليك هذا الكلام.

من إيّان

الموضوع: هل تحبني؟

النص: صدق من قال: "إنّ كيدكنّ عظيم "

ملاحظة هامّة: دعيني أنهي عملي آنسة نور، هناك عائلات تعتمد عليّ لذلك .

من نور

الموضوع: عائلات تعتمد عليك

النص: هناك أنا أعتمد عليك وليس لي سواك، لذا رفقاً بنفسك أرجوك من أجلي.

دخلت الممرّضة في هذه الأثناء بعشاءنا، قدّمته لنا وخرجت دون تعليق.

أنهيت طعامي بأكمله وإيّان مايزال يعمل دون توقف. قلت له متذمّرة:

" إيّان أرجوك، هلاّ توقفت عن العمل وأكلت طعامك قبل أن يبرد. فأنت تعمل منذ أكثر من أربع ساعات متواصلة"

أجابني وهو مشغول بالنقر على مفاتيح حاسوبه " عليّ إنهاء هذا الخطاب، سآكل بعدما أرسله "

استدعيت ممرضتي لتساعدني على دخول الحمّام. غسلت شعري ونظفت جسدي بالفوط المعقّمة وبعد مرور كل هذا الوقت وجدت إيّان مايزال يعمل،أقلقني حاله ، ما خطب هذا الرجل؟ وكأنه يحاول أن يعوّض عمل أسبوع بأكمله في بضع ساعات. ما كان يجب أن يقوم طلال بجلب حاسوبه إليه. سألت الممرضة وهي تساعدني على العودة الى سريري.

" أرجوك هلّا استدعيت ممرضة إيّان الى هنا"

" حالاً سأفعل " وخرجت مسرعة.

بعد لحظات أتت الممرضة، وقفت أمامه منتظرة طلبه، نظر إليها مستغرباً حضورها المفاجئ.

قاطعتهما قائلة " ألا تعتقدين بأن الوقت قد حان لتأخذي منه حاسوبه؟ "

أغلق إيّان حاسوبه وهو يرمقني بنظرة باردة والممرضة وقفت أمامه حائرة لا تعرف كيف تتصرّف، احمرّت خجلاً وهي تأخذ منه الحاسوب

" معها حق، فأنت تعمل منذ الصباح، حتّى أنك لم تأكل عشاءك بعد "

وضعت الحاسوب على الطاولة وقدّمت له عشاءه، رمقني بحدّة، فإبتسمت له ولكنه لم يبادلني الابتسامة بل أخذ الشوكة مباشراً بطعامه.

لقد غضب منّي، حسناً فليفعل، يبدو أن الممرضة مستمتعة بما يدور حولها، إذ لاحظتها تحاول إخفاء ابتسامتها عنا وقالت لإيّان بدلع:

" أتريدني أن أغلق الستارة بينكما؟ فأنت بحاجة الى الراحة، سأعطيك دواءك الأخير بعد العشاء، ويمكنك أن تنام بعد ذلك "

عقدت حاجباي منتظرة رده والدماء تفور في عروقي غضباً منها، ما الذي تحاول فعله؟ أكرهها ولا أطيق رؤيتها.

أجابها إيّان وهو يراقبني عاقداً حاجبيه مثلي: " لا ... شكراً لك، فأنا أفضل صحبتها بالرغم من حركاتها الصبيانيّة والمزعجة"

تغيرت ملامحها بسبب ردّه ولكنها حاولت قدر الإمكان إخفاء خيبة أملها، وأنا بدوري، رمقتها بنظرة انتصار اراقبها تغادر الغرفة مهزومة.

وإيّان يلتهم طعامه بشهيّة غير مكترث لما يدور من حوله.

أطفأت النور من جانبي وأخفضت سريري محاولة النوم، ولكني لا اشعر بالنعاس، بل اشعر بالملل.

أنهى إيّان طعامه،ليدفع نفسه برفق محاولاً النهوض عن سريره ، رفعت رأسي أراقبه بقلق:" ماذا تفعل؟... إلى أين؟ "

" أحتاج دخول الحمّام " قال وهو يحاول الوقوف على قدميه بصعوبة فإستند الى حافّة السرير وكأنه سيفقد توازنه.

شهقت منبّهةً إيّاه بخوف وذعر، حيث بدا وكأنه يحاول جاهداً إبقاء توازنه

" سأستدعي الممرضة لا تتحرك، ابقَ مكانك "

رفع يده يستوقفني ، رافضاً طلبي وقال " أنا بخير، لا أحتاج الى ممرضة، ولكني شعرت بالدوار عندما وقفت " ثم اتجه نحو الحمّام وهو يجر عامود مصله بخطى صغيرة متثاقلة.

سألته راجية قبل دخوله: " أرجوك، إذا كنت لا تريدني أن أستدعي الممرضة لمساعدتك، فاترك الباب مفتوحاً ليطمئن قلبي" ففعل.

اختفى في الحمام لبضع دقائق وعندما عاد ذهب الى سريره أخذ عنه وسادته وغطاءه وأتى إليّ. وقف بجانب سريري وقال بمرح:

" هل يسمح لي ملاكي الصغير بالنوم بقربه الليلة؟ "

حدّقت به غير مصدّقة ما قاله للتو وأجبته " هل جننت، إذا عرف أطباؤنا بذلك " سكتّ لبرهة وأنا أفكر بما يمكن أن يفعلوه وسألته بفضول " ماذا يمكن أن يفعلوا برأيك؟"

أجابني ببرودة " لا أدري، ولكن إذا ساورك الفضول لمعرفة ما الذي يمكن أن يفعلوه فافسحي لي المجال لأنام بقربك وسنكتشف ردّة فعلهما لذلك غداً"

أفسحت له المجال، فالسرير عريض ويتسع لنا معاً بسهولة، ولكني قلقه أن يؤذيه ما نفعله فجرحه مايزال رطباً. وبعد جهد قام به، انزلق بجانبي، تركته يأخذ وضعية يرتاح فيها ثمّ اقتربت منه مقربّةً رأسي الى رأسه، أخذ نفساً عميقاً من شعري وقال:

" يا الله!!كم اشتقت الى رائحتك "

أمسك بيدي وقربها الى صدره فوق موضع قلبه ضاغطاً عليها بخفّة.

سألته بقلق " هل أنت متأكد من أنك ستكون بخير هكذا ؟ لا أريد أن أؤذيك بحركة عفوية أقوم بها "

" أنا بخير حبيبتي، لا تقلقي، وهل أنت مرتاحة هكذا؟ "

تململت مقتربةً منه أكثر ، مندسّةً به قدرالمستطاع " أنا سعيدة ومرتاحة بقربك كثيراً "

بدا مسترخياً تماماً بقربي، عيناه مغمضتان وأنفاسه منتظمة.

مررت أصابعي بخصلات شعره أمسج فروة رأسه. ابتسم مبدياً استمتاعه بحركة أصابعي، ناديته وأنا أراقبه يذوب تحت ملامساتي:

" إيّان "

" نعم" أجابني بتكاسل

" شكراً لك لأنك أنقذت حياتي"

أخذ بيدي عن صدره لاثماً كفّي بشوق وعمق ثم أعادها الى صدره وقال:

" وأنا أشكرك لأنك أنقذت حياتي ولأكثر من مرّة نور"

أجبته فرحةً قلباً وروحا به وبكل ما يتضمنه في أعماقه

" إيّان كرم، يبدو أننا أنقذنا حياة بعضنا البعض "

أومأ برأسه موافقاً على كلامي وقال بصوت متردد " نور، أعتقد بأنّ الوقت قد حان... لإخبارك بالحقيقة ...والإجابة عن أسئلتك ...حول ما حصل ذلك اليوم"

سكتّ حائرة بما سأجيبه، لا أستطيع التحدّث عن هذا الموضوع . فأنا تناسيته عن قصد، لثقة منّي أنه إذا فُتح ثانية لن أستطيع كبت نفسي وسأنهار أمامه.

لا أريده أن يرى دموعي وحزني عليه. شعرت بأني أختنق وأنا أحاول عبثاً منع دموعي لأشعر بمعدتي تعتصر نفسها من شدّة التوتر . ومن دون وعي منّي وجدتني متمسّكةً بمئزره بقبضتي ضاغطةً على صدره بقوّة. لن أبكي،...لن أبكي إذا بدأت بالبكاء سأنهار ولا أريده أن يراني هكذا أبداً.

للآن حتى أيقنت سبب إصراره في إخفاء ماضيه عنّي متذكرةً كلامه عندما قال لي " في بعض الأحيان العيش في ظلمات الحقيقة يجنبنا إدراك بشاعتها وحقارتها ". فهو أخفاها عنّي بقصد حمايتي من مرارة الحقيقة وبشاعتها وليس لحماية نفسه.

فها أنا الآن أدفع ثمن ما أعرفه .إذ في كل لحظة أنظر فيها اليه ،أرى ذلك الطفل البريء ذو الوجه الملائكي وقد حُرم من طفولته وعاشها مأساة متكرّرة ،وأشعر بألمه وعذاب ضميره الذي كان يشعر به في كلّ مرّة كان قلبه ينبض حباً لي.

لا أحتمل وجود هذه الصور في مخيلتي، فهي تعذبني وتُرغبني بالبكاء في كل مرّة أنظر إليه، وأرى من خلال عينيه.

وضعت إصبعي على فمه مانعة إيّاه من أن يكمل كلامه ،وقلت وأنا أحاول جاهدة الحفاظ على رتابة صوتي:

" لا داعي لذلك إيّان، طلال أخبرني بكل شيء "

بدا متفاجأً من كلامي والخوف والقلق بادي على محيّاه، أشعر بشعوره إنّه خائف من ردّة فعلي حول الحقيقة.

ابتسمت له مطمئنة وقلت "ما حصل معك يعدّ مأساة رهيبة .ولكني على يقين، على أنّك أنت على يقين، من أنه مجرد ماضي وولّى.

لا أريدك أن تذكره بعد الآن ، لأَنِّي أريد أن أكون حاضرك ومستقبلك.

ولكن اسمح لي فقط بالقول بأن ما حصل لك في الماضي جعلك إنساناً أفضل بكل شيء ومن كل ناحية. جعلك على ما أنت عليه اليوم، وتأكد من أنك أفضل مما يمكن أن تكونه أو حتّى يكونه أي إنسان. أنت رائع إيّان، قلبك يفيض بالحبّ والحنان، وإنسانيتك نادرة الوجود. أنت أفضل ما حصل لي حتّى الآن وما سيحصل لي في كل حياتي، وإيّاك ولو للحظة أن تظنّ بأنّك لا تستحقني، لأنك تفعل سيّد إيّان كرم وبكل تأكيد تفعل"

حدّق بي بملامح تفيض بالمشاعر الممزوجة بين الحب والامتنان والشوق . إستدار ناحيتي مستلماً شفتي بقبلة ، كقبلتنا الأولى في غرفته حين شعرت برغبته تدفعه نحوي غير مكترثة لما يريده أو يظنه أو يعذبه، ترك شفتي لاثماً وجنتي قائلاً بسعادة وإرتياح واضحين بصوته:

" تأخر الوقت، نامي حبيبتي واحلمي بي ... لأنّي بكل تأكيد سأحلم بك "

***

نام بقربي كطفل صغير، ملامحه هادئة وكأنه حقاً يحلم بي.

يده متمسكة بيدي بقوّة وكأنّه يحتجزني خوفاً من أن أهرب من جنبه. شعره مبعثر على جبينه أصبح أطول من المعتاد، ذقنه عمرها أسبوع خفيفة وناعمة، إبتسمت براحة وعمق أتأمّل ملامحه الوسيمة لأشعر بدموعي تُذرفُ بصمت.

إنّه هنا بقربي وبصحة جيدة، يحبني ويريدني ولا يقوى على فراقي، إنّه حبيبي الذي أحب وسأحب الى الأبد.

ابتسمت للفكرة والراحة والفرحة تغمرني. أغمضت عيوني متنهّدةً غافيةً على أثر أنفاسه العطرة ترطب وجهي مع كل نفس يدفعه للخارج.

الخاتمة

بعد مرور ثلاث أسابيع

دخلت غرفته أتفقد حاله ، البارحة حتى تحررت من الجص اللعين ، لقد كان مكبلاً حركتي نهائياً ، وإيّان جراحه تلضم برفق ، يقول الطبيب بأنّه قريباً سيُصبِح قادراً على ممارسة حياته اليومية كالسابق .

بعد عودتنا إلى المنزل عادت الثغرة تكبر بيننا ، إذ عاد يحاول خلق مسافة بيننا ، يعاملني بحنان وإهتمام ولكنّه يحاول قدر الإمكان البقاء بعيداً .

بالكاد يمسك كفِّي ، وأنا أشعر بالغليان بعروقي لأصرخ به بأنّي أعلم بأنّي زوجته ليظهر طلال بوجهي محدّقاً بي برجاء أن لا أفتح فمي ، ولكنّي مللت منه .

وكعادته إستقبلني متذمراً " ماذا تفعلين هنا نور ؟؟"

" أتيت أفتش عنك" أجبته جالسةً بقربه ليرفع نظره عن حاسوبه يجأرني بإستنكار وأنا أدعيت البلاهة مستلقيةً على السرير ، متمددةٌ بإرتياح .

أغلق حاسوبه بعصبية وقال بحنق " إذهبي ونامي بغرفتك ، هيا إنهضي عن سريري "

إبتسمت له بوقاحة تامّة مستلقية على بطني أناظره بأجفان مبطنة ، وهل يظن بأنّه أنْبَهَ منّي ، سأريه ....

"نور!!"

" عيون نور وقلب نور وروح نور "

وقف عن السرير خالقاً مسافة كبيرة بيننا " ماذا تفعلين هنا بالتحديد ؟!"

"أريد أن أنتقل للعيش بهذه الغرفة ، إنها تعجبني أكثر من غرفتي ، الليلة سأنام هنا "

عاد الي بخطى سريعة ليقف فوق رأسي يناظرني بإستغراب ، لا يجد حلاًّ لي، وأنا تابعت بكل براءة " اليوم إلتقيت بشاب بالجامعة ، جلس بقربي بالمحاضرة وفجأة شعرت بأنّي أعرفه منذ زمن ، وجدته قريبٌ من القلب ، لقد أمضينا باقي الفترة ونحن نتحدث ونتحدّث دون ملل "

رمقته بطرف عيني لأجده موشّحاً بالحُمرة القانية ، قابضاً على كفَّيه بحنق شديد يناظرني بغضب شديد وأنا تابعت " أعتقد بأنك كنت على حق في نهاية الأمر ، لقد كنت مصرّة بأني أحبك وأعشقك وأهيم بحبك لأكتشف بأنّي لا أعرف شيئ بهذه الحياة وما زال الدرب طويل أمامي لذا... "

" لذا ماذا يا أنسة نور ؟؟"

" سأكتشف مشاعري مع صديقي الجديد ، لربما يكون هو صاحب الحظ ويستملك قلبي "

إستدار تاركاً المكان ، خرج من الجناح إلى الشرفة ، عاد بعد لحظات قليلة جداً ، مشى بالغرفة عدّة مرات ، ذهاباً وإيّاباً ، ذهاباً وإياباً ، عاد ووقف أمامي وأنا مستلقية على سريره محاطة بلحافه الرمادي الناعم المحشي بريش نعام

" ومتى إكتشفت أنك لا تحبيني وأنّ مشاعرك ناحيتي ليست سوى عبثاً "

رفعت حاجبي مدّعيةً التفكير ، وبكل برودة أجبته " عندما كنت أتحدَّث إلى صديقي ، إكتشفت أنّه أدفأ منك ، مرح ، ووقح "

" هلاّ سمحت ووقفتي عن سريري ، إنّه فراشي ، وهذا لحافي ، وهذه غرفتي"

"وأنا!!؟؟"

"أنت ماذا ؟؟!!"

وقفت عن السرير مقتربةً منه ، لنرى إلى أين ستصل معي إيّان كرم، هل ستعترف بملكيتك لي أم ستبقى على عنادك .

وقفت قبالته رافعةً رأسى أناظره بإبتسامة ماكرة ، أمسكت بياقة قميصه ألهو بها فأمسك بها مبعداً إيّاها قائلاً " صديقك الوقح يا نور !!!، تريدين صديقاً وقحاً ؟!!"

ومأت له برأسي بنعم ، محدّقةً ببريق عينيه الآخاذ ، إنّه مجنون ليظن بأني سأُعجب بأحد غيره ، أحب أحد غيره ، أقترب من أحد غيره ، أسمح لغيره بالاقتراب مني .

"نور!" ناداني بهدوء تام مرسلاً شرارة بجسدي بأكمله

" حبيبتي نور ، من الغد والصاعد ستكملين عامك الدراسي بالمنزل ، سأستدعي كامل طاقم التعليم لإعطائك كامل محاضراتك بالقصر هنا "

شهقت منتفضة من بين يديه " هل أنت بكامل وعيك ؟!"

نخر ضاحكاً بسخرية " بين يوم وليلة إكتشفت بأنك لست مغرمة بي وأنّك على إستعداد لتقعي بغرام زميلك الذي التقيت به البارحة ، من هو الذي فقد عقله نور ، أنا أم أنت ؟"

" أنا لن أكمل دراستي بالمنزل ، سأذهب إلى الجامعة ، إنّه المكان الوحيد الذي أشعر به بحرّيتي ، ولن أتنازل عن حقي هذا "

"حرّيتك !! أنت لن تعودي إلى الجامعة ولن تكلّمي ذلك الوقح من جديد وستنفذين أوامري "

" أنا أكرهك إيّان" صرخت به ضاربةً قدمي بالأرض بحنق

" لا يهم ، اليوم ستكرهيني ، غداً ستعودين وتقعين بغرامي ، أيّتها المتقلبة المشاعر "

"بل سأكرهك إلى الابد " أجبته مندفعةً نحو الخارج ناسيةً خطتي الأصلية ، يبدو أن السحر إنقلب على الساحر .

وقفت عند الباب عائدة بإنتباهي إليه لأراه يراقبني بغموض ، يحاول فهم جنوني الذي رميته بوجهه ، يفكر بكلامي .

" أريد هذه الغرفة ، أنا أريد هذه الغرفة لتكون غرفتي ، وأنت بإمكانك أخذ غرفتي إذ أردت أو إختار لنفسك غرفة أخرى "

رفع حاجبه يرمقني بإبتسامة ماكرة جال بنظره حول غرفته وقال " ها نحن قد عدنا لجنون نور ، هل كنت تنتظرين شفائي لتبدئي من جديد ؟؟ حسناً ، عودي إلى هنا وقولي ما لديك يا عزيزتي وإلاّ ستنفجرين قهراً "

حدّقت به ببلاهة ، أحاول تمالك نفسي وأن لا أعاود الصراخ به ، لقد فهم لعبتي ، فهم بأنّي أريد منه شيئاً .

عدّت إليه ، عدّت بخطوات بطيئة مترددة وقفت قبالته رافعةً بصري اليه وإذ به يبتسم مسترسلاً بالضحك ، حضن وجنتي بين كفّيه الغليظين وقال "تريدين حبيباً وقحاً ها ، أنا لم أرى أوقح منك حبيبة ، الغرفة وصاحب الغرفة والقصر وصاحب القصر وكل ما في القصر تحت أمرك يا نور عيوني "

" إلى متى ستستمر بمعاملتي كطفلة ، متى ستبدأ تراني حبيبتك ، وزو...." صمتٌّ، صمتٌّ قبل التسبب لطلال بمشكلة كبيرة

عقد حاجبيه بتساؤل " أعاملك كماذا ؟؟"

حررت نفسي من بين كفَّيه موليةً إيّاه ظهري وقلت بصوت مخنوق "عندما تنظر الي ماذا ترى؟؟ هل تراني طفلة بحاجة لرعايتك وإهتمامك ، أم تراني حبيبتك وخطيبتك وزوجتك يوماً ما ؟؟"

جذبني من ذراعي معيداً إيّاي إلى مواجهته ، حدّقت بزرقة عيناه الخلاّبتان أنتظر ما سيقوله ، زفر نفساً حارّاً وقال " أنا أرى فيك كل هؤلاء ، أراك صغيرتي المدللة التي ما تزال بحاجة لرعاية مني ، أراك حبيبتي الفاتنة التي أغار عليها من النسمة العليلة التي تتخلل شعرك ، وأراك زوجتي المستقبلية التي ستحمل إسمي وتحترمه وتحافظ عليه وتحمل أطفالي يوما ما "

غامت عيناي بالدموع متمتمةً " إذاً أخبرني بالحقيقة ، عاملني على هذا الاساس ، دعني أثق بك ، برهن لي أنك تثق بي وبقدرتي على تقبل الحقيقة مهما كانت "

ناظرني بتساؤل ، لا يفهم فحوى كلامي ، إنّه لا يشك حتى بأنّه من الممكن أن أكون على علم بزواجنا ، لا يريد أن يعترف به ، يريد أن ينتظر الوقت المناسب ويطلبني من جديد ، يطلب موافقتي للزواج به ....

شهقت باكيةً مستسلمةً لقدري ووضعي ، مستسلمة لِحُبِّهِ ومشاعري، سيبقى زواجي سرّاً لن يبوح أحدٌ منا به للآخر ، أخذني بين ذراعيه يحتضنني بتملك دافناً وجهه بشعري متمتماً " أنت تُحَيِّرِينَنِي نور ، ماذا يجري معك حبيبتي ؟!!"

ضيّقت ذراعي حول خصره " أحبك إيّان ، أحبك كثيراً كثيراً "

قبّل جبهتي بشوق مجيباً " وأنا أعشقك أيتها المجنونة المتمردة العاشقة "

وأطفأ نار رغبتي بقبلةٍ لذيذة مشتاقة مرهفة .

****

نزلت عن سريري ، أخذت وسادتي وخرجت متسللةً إلى غرفة إيّان ، أو بإمكانكم القول غرفتي سابقاً ، نعم لقد تبادلنا الغرف ، بعد أن عدلت عن الفكرة ذلك اليوم هو أصرّ عليها وإنتهى الامر بتبديل الغرف ... فتحت الباب بخفّة لأجده يغط بنوم عميق ، تسللت إلى الداخل بخفة متناهية وخبرة سنوات ، وضعت وسادتي بقرب وسادته وإنزلقت تحت الشراشف مندسةً به ، نعم ، لقد تطور الامر معي ، لم يعد يعجبني النوم على الارض ، بل سأنام بقربه ، أوليس بزوجي ، وليجرؤ على إنكار ذلك إذ تجرأتُ أنا وواجهته بالأمر ،وبسرعة هائلة شعرت بدفئ جسده الرهيب ينساب إلى جسدي باثّاً دفئه بكل أنحائه ، إحتضنته برفق تام كي لا أوقضه فتململ مندساً بي أكثر ، تدغدغت ضاحكة كاتمة على فمي ، أشعر بقلبي يعصف داخل صدري خوفاً من ثورته عندما يستيقظ .

أخذت وضعية مريحة ملتصقةً به وأغمضت عيوني ناشدة النوم مستلذّةً بدفئه ورائحته وقربه ككل .

وعيت من نومي وأنا أشعر بثقل رهيب فوقي ، كاتماً على أنفاسي ، فتحت عيوني لأرى جسد إيّان بأكمله فوقي محتضناً إيّاي بين ذراعيه وساقيه ، تململت أحاول التحرر منه دون جدوى وإذ به يفتح عيناه ناظراً مباشرةً إلى عيناي ، عقد حاجبيه يحاول إستيعاب ما يراه وأنا كالبلهاء إبتسمت له ببراءة تامّة لينتفض مذعوراً مبتعداً إلى الجهة الثانية من السرير ، مسح على وجهه بكفّيه ليعود ويحدّق بي بتساؤل وإستغراب ، وأنا إعتدلت أرتب شعري مبعدةً إيّاه عن وجهي وعنقي لأسمعه يقول بحنق شديد

" لا يعقل ، لا يعقل ، ستسببين لي بذبحة قلبية بيوم من الايام ، ماذا تفعلين هنا بحق السماء "

" كنت أشعر بالبرد وإشتقت لغرفتي ، أردت النوم بغرفتي "

حدّق بي ببلاهة عاجزاً عن التعليق ، نزل عن السرير وقال " سأريك ماذا سأفعل بك أيتها العديمة الحياء ، سأقفل باب الغرفة من يوم غد قبل أنّ أنام"

أجبته ببرودة تامة " سأتسلل عبر الشرفة "

إستدار نحوي يناظرني بإستنكار ، حدّق بي للحظات تم عاد الي بخطى واسعة سريعة، صرخت ضاحكة أحاول الهرب من دربه لحظة إعتلى السرير يحاول الوصول الي .

"سأجعلك تفكرين الف مرة قبل التسلل إلى غرفتي ، تعالي إلى هنا "

ركضت بعيداً عنه مسترسلةً بالضحك ، غير قادرة على التوقف وهو لحق بي إلى أن حشرني بزاوية الغرفة إنقضّ عليّ حاملاً إيّاي فوق كتفه وأنا رحت أصرخ به أن ينزلني دون جدوى ، دخل بي الحمّام وأنا أصرخ به ملئ حنجرتي ، فتح المياه الباردة ورماني تحتها .

تمسّكت بكنزته جاذبةً إيّاه معي تحت المياه شاهقة أرجوه أن لا يفعل ذلك ، ولكنه فعل ، وشاركني حمامي القارس البرودة .

دفنت وجهي بصدره المبلل أرتعش من شدّة البرد لأسمع صوته بأذني

" كنت تشعرين بالبرد اليس كذلك ، هل تشعرين بالدفئ الآن "

لكمته على صدره بوهن أرقص بين ذراعيه ، أسناني تصلك ببعضها غير قادرة على التعليق لأشعر بدفئ الماء تدريجياً ، يبدو أنه فتح المياه الدافئة ، تنهدّت بإرتياح محتضنةً إيّاه بتملك أشعر بالدفئ ينساب الى جسدي تدريجياً لأسمعه يقول محذّراً

" المرّة القادمة لن أشفق عليك وأفتح الماء الدافئ لك ، المرة القادمة التي أجدك فيها بغرفتي سأضعك هنا حتى تتجمدين من البرد "

" أكرهك إيّان "

ضحك بسلاسة " نعم ، الآن تكرهينني وغداً تموتين عشقاً بي "

"سسسس ، سسسأحبك .... أقصد سأكككرهك إلى الابد "

وبدل أن يجيبني رفع ذقني مستلماً شفتي الباردتين بين شفتيه الدافئتين بشكل رهيب يبث دفئه بي من جديد .

****

اليوم عيد مولد إيّان التاسع والعشرون فقررت مفاجأته بالشركة بقالب حلوى من صنع يدي، ومن ثم سأدعوه إلى الغذاء في مطعم فاخر .

أشعر بالحماس الشديد ، حتى أني لم أخبر طلال بخطتي العزيزة .

طلبت من سائقي المرافق أخذي إلى الشركة ، حملت قالب الحلوى وتوجهت نحو الإستعلامات ، إنها المرّة الاولى التي أزور فيها الشركة ،

رمقني الحاجب بترقب لحظة وقفت أمامه أسأله بكل ثقة أن يدلني على مكتب السيد إيّان ليجيبني بعد لحظات .

" هل عندكَ موعدٌ مع السيد كرم ؟!"

حدّقت به ببلاهة ، لا أفهم مغزى كلامه فهزّ برأسه وتابع " لا تستطيعين الدخول اليه بدون موعد ، وعلى كل حال إنّه لا يستقبل معجبات بمكتبه ، هيّا إذهبي بعيداً "

أجبته بحنق " أنا لست معجبة ، أنا خطيبته ، وأريد الدخول اليه حالاً ، الآن وحالاً "

رفع حاجبه يرمقني بإستنكار ، وكأنّه لا يصدق كلامي معلّقاً بملل " نعم ، كل يوم يأتينا واحدة على شكلك مدّعيةً إرتباطها به ، هيا إذهبي من هنا قبل أن أجلب لك الأمن "

هممت برميه بقالب الحلوى لأعود وأتذكر بأّني تعبت كثيراً بصنعه ، أكيد بمساعدة ليلى ، أغمضت عيوني أخذةً نفساً طويلاً أحاول تهدئة أعصابي ، لأتذكر غبائي .

رمقته بمكر أخذةً هاتفي من محفضتي وإتصلت بطلال الذي أجابني من الرنّة الثانية " الو طلال ، أنا في الاسفل ، هلاّ سمحت وأعطيت أوامرك للحاجب بأنّ يدخلني اليكم "

" تحت أين ؟؟!"

" تحت ، عند مدخل الشركة "

" وماذا تفعلين هنا ؟؟"

زفرت بحنق " وهل هو تحقيق طلال . الآ يكفيني تحقيق الحاجب ."

طنّ في هذه الأثناء المصعد فاتحاً أبوابه ليخرج منه طلال ببدلته السوداء الأنيقة وقميصه الأبيض وربطة عنقه الخمرية المزركشة بألوان داكنة ، إبتسمت له أراقبه بإعجاب وهو تقدم نحوي يرمق الصندوق بيدي .

" وماذا لدينا هنا ؟؟"

" حسناً ، كنت أخطط بأنّ تكون مفاجأة لإيّان ، إنّه عيد مولده اليوم وصنعت له قالب حلوى "

ضحك رافعاً حاجبه يفكر ومن ثم قال " من الافضل أنّ تعودي إلى المنزل وتجهِّزي المفاجأة له هناك ، إنّه في إجتماع مهم مع مندوبين يابانيين لإستيراد الآت الالكترونية للمصانع ولا أظنه سينتهي منه قريباً "

أجبته بعناد " لا يهم، سأنتظره إلى أن ينتهي ، هلاّ سمحت وأخذتني اليه"

" حسناً ، لك هذا "

لحقت به لأتوقف متذكرةً " آه ، وهلاّ سمحت وأخبرت الحاجب عن هويتي ومن أكون "

عاد بنظره إلى الحاجب الواقف بخجل جلي متمتماً " لقد ، لقد ظننتها واحدة من النساء المزعجات ، أرجو المعذرة سيدتي "

ضحك طلال مجيباً " آه ، لا تعتذر ، إنها تفوق باقي النساء إزعاجاً وتسلّطاً ، أمين ، أقدم لك خطيبة السيّد إيّان وزوجته المستقبلية إذ لم تسبب له بذبحة قلبية وتقتله قبل ذلك "

فتح الحاجب عيناها بدهشة يراقبني بخجل وأنا جأرت طلال مردفةً " يا ليتني أتسبب لك بإنعقاد لسانك طلال "

المبنى مؤلف من خمسين طابقاً في منطقة السوليدير ، من ارقى وأغنى المناطق في بيروت ، الشركة رهيبة ، تنادي بالفخامة من جدرانها وبلاطها وسقفها وكل ما يحيط بها ، دخل بي إلى الطابق الثلاثين لأقف مشدوهة الفاه أراقب الموظفين كخلية نحل يعملون ، إستقبلتنا موظّفة عن باب المصعد تسألنا بإهتمام ،

" أهلاً سيد طلال ، هل من خدمة ؟؟"

" نعم نورما ، هل بإمكانك إيصال الانسة نور إلى مكتب السيد إيّان ، قدّمي لها كل ما تطلبه وتحتاجه ، ولا تخبريه عن وجودها هناك إتفقنا "

ناظرتني متفاجئة من طلبه ولكنها ومأت له تدلني إلى الطريق .

يا الله !! مكان عمل إيّان رهيب ، جميل أشعر بأنّي أعيش وسط فيلمٍ سينمائي في شركة كبيرة ، نقف قلبي غبطة من ما آراه حولي ، دخلت بي مكتبه ، مكتبه الذي

يجتاح ربع مساحة الطابق ، الجدران كلها مكسوة بالنوافذ الطويلة والعالية ، أسرعت إلى إحداها شاهقة لأرى البحر أمامي ، يا الله !! هذا جميل .

تنحنحت نورما مستدعية إنتباهي " أنستي ، هل بإمكاني مساعدتك بشيئ ؟؟"

"نور، أدعى نور " أجبتها مستديرة نحوها وتابعت " أنا خطيبة إيّان ، وشكرا لك ، نعم أحتاج لكوبين وطبقين فارغين وعصير أناناس . فقط لا غير "

وقفت قبالتي مشدوهة الفاه ، محدقةً بي ببلاهة ، وكأنّها لا تستوعب ما تلفّظت به للتو ، تنحنحت من جديد مسرعةً نحو الباب تقول " حالاً ، حالاً أنسة نور ."

ساعتين ، ساعتين مَرُّوا والسيد إيّان لم ينتهي من إجتماعه بعد ، هذا رهيب ، طلال يزورني بفترات متقطّعة يناظرني بتلك النظرة البلهاء وكأنّه يذكرني بما قاله " الم أقل لك ذلك "

المرّة القادمة عندما يأتي سأصرخ به غير عابئة بمكان تواجدي ، سأقتله ، وها هو عاد من جديد من الباب الخشبي العريض والثقيل على عجلة من أمره، إنتفظت من

مكاني على إثرها ، لأفاجأ بإيّان الذي دخل الى مكتبه بكامل هيبته ، يفكّ ربطة عنقه زافراً نفساً طويلاً ، يبدو مرهقاً ، مسح وجهه بكفّه مندفعاً نحو الداخل .

ضحكت بخفوت ، ما زال لم ينتبه لوجودي غارقةً بكرسّيه المريح جداً وراء مكتبه ، خلع سترته ، إنتشل ربطة عنقه ، مباشراً بفك أزرار قميصه العليا ، ليقف أمامي مشدوه الفاه ، فتح عيونه لا يستوعب ما يراه أمامه ، تراجع بضع خطوات إلى الوراء ملقياً نظرة شاملة الي ، إبتسم ضاحكاً ، مسترسلاً بالضحك ، يهزّ برأسه بقوّة " وماذا تفعل جنيتي الصغيرة هنا ؟؟ كيف دخلتي إلى هنا ؟"

وقفت عن الكرسي راميةً بنفسي بين أحضانه المفتوحة لإستقبالي مقبّلةً وجنته بعمق معلّقةً " كنت مستلذّةً بالمشهد ، الن تتابع خلع ثيابك ؟"

أبعدني عن حضنه محدّقاً بي " وقاحتك تتطور يا عديمة الحياء "

" كل عام وأنت حبيبي إلى الابد يا حبيبي "

رفع حاجبه بدهشة رامياً نظرة خاطفة إلى الطاولة الصغيرة بقرب النافذة التي جهزتها له واضعةً قالب الحلوى وبعض المعجنات التي بردت الان والعصير وباقة أزهار إقترضتها من مكتب أحد الموظفين .

ضمّني إلى صدره بقوّة لاثماً جبهتي بشوق " لم أحتفل بعيد مولدي منذ زمن طويل ولّى ، شكراً حبيبتي على هذه المبادرة اللطيفة . آه ، لا تعلمين كم يسعدني وجودك الذي أتى بوقته المناسب "

بعد مرور سنة

وقفت أتأمّل نفسي في المرآة الطويلة المعلّقة على حائط غرفتي حيث تفسح لي المجال لإلقاء نظرة شاملة على فستاني الأبيض الطويل المطرّز صدره بخيوط ذهبية وحبيبات اللؤلؤ الصغيرة وحمّالات عريضة على الكتفين وشريط ذهبيّ عريض من

الساتان يلف خصري ثم تبدأ خيوط التطريز تتلاشى تدريجياً حتى متوسط طول الفستان المكوّن من طبقات لا متناهية من القماش الناعم.

شعري الأسود يتدلّى على كتفي مغطِّيّاً ظهري وطرحتي تنساب بخفّة نحو الأسفل لتمتزج مع ذيل الفستان الطويل نسبياً.

طرقت ليلى الباب بخفّة ثم دخلت وهي تقول:

" هل أنت جاهزة؟ الجميع بانتظارك في الأسفل وخاصّة إيّان بدأ يفقد صبره "

أخذت نفساً عميقاً وقلت لها " أعتقد بأنّي جاهزة "

وقفت ورائي مباشرةً بفك وثاق فستاني وأنا أفكّ طرحتي وشعري.

" لقد كان حفلاً خيالياً، الطعام والزينة والأزهار، كل شيء كان أكثر من رائع. لم أتوقع هذا العدد من الحضور والصحافة والمجلات وكأنّه كان حفلاً ملكياً. يا حبيبتي، كنت ملكة تتهادين بين يدي ملكها فأنتما تشكلان ثنائياً استثنائياً، رائعاً ونادر الوجود... أتمنّى لكما التوفيق والسعادة من كل قلبي "

استدرت نحوها ،حضنتها وقلت " وأنت تشكلين أروع أم في الدنيا ... لا مثيل لك أبداً "

" حسناً، حسنا"، قالت وهي تبتعد عنّي قليلاً ماسحةً دموعها

" لا أريد إفساد تبرجك، هيّا بدّلي ملابسك وانزلي لتعودي لأصدقائك، فهم يأبون الرحيل قبل رؤيتك وتوديعك. سأنزل حقيبتك الى الأسفل ليأخذها طلال الى السيارة".

" حسناً، شكراً لك "

ألقيت نظرة أخيرة إلى نفسي في المرآة قبل أن أنزع فستان زفافي لتعود إليّ ذكرى اللحظة التي طلب فيها إيّان يدي للزواج.

قبل أربعة أشهر من الآن، إستيقظت من النوم جهّزت نفسي للفطور وخرجت من غرفتي لأفاجأ برائحة عطرة وكأنّي دخلت حديقة من الأزهار وبعد خطوات من غرفتي وجدت نفسي محاطة بالورد الأحمر المخملي من جميع الجهات، الأرض

مفروشة بأوراق الورد الأحمر ... أطراف السلالم مكسوّة بأزرار الورد وكأنّها محاكة بقضبانها وباقات من الورد متدلّية من السّقف على شكل ثريات مليئة بالندى.

يا الله!! ... أيعقل أنّي ما زلت نائمة وأحلم بما أراه الآن؟

لا يعقل أن يكون هذا المنظر حقيقة، فكم هو عدد مَحال الورود التي فُرّغت لتملأ أرجاء هذا القصر؟

وكأنّي فجأة دخلت حديقة خياليّة مليئة بالورد الأحمر والرائحة العطرة.

رحت أمشي على أطراف أصابعي خيفة أن أدوس على الأوراق المنثورة كفراش على الأرض والسلالم نحو الأسفل، وقفت عند منتصف السلالم مغتبطة بما أراه حولي غير مصدّقة، وإذ ببتلات من الورد الأبيض بدأت تتساقط من الأعلى وكأنّها قطع ثلج سميكة، رفعت يديّ التقط بعض الأوراق قبل وطئها الأرض، وهناك رأيته ، عند أسفل السلالم يرتدي بذلة رماديّة داكنة اللون وربطة عنق فضّيّة، راكعاً

على ركبته يحمل باقة من الزنبق الأبيض، زهرتي المفضلة، ينتظر وصولي بفارغ الصّبر.

وقفت متجمّدة عند وسط السلالم، عاجزة عن الحراك، أتأمّله راكعاً ينظر إليَّ بعينين تشعان بريقاً لم أرى لهما مثيلاً من قبل ،وضحكته أخّاذة تبرز جمال أسنانه

نظرت الى نفسي وأنا أرتدي فستاناً أبيضاً قطنياً أرتديه عادة في أرجاء المنزل، شعري مبعثر وهيئتي مزرية .. غطيت وجهي بكفّي حاجبةً خجلي من نفسي ، وفرحتي بما يدور من حولي.

وقف إيّان باسطاً لي ذراعه يشجعني على النزول. نزلت السلالم بخطى سريعة غير مكترثة للورود تحت أقدامي راميةً بنفسي بين ذراعيه، حملني ودار بي عدّة دورات قبل أن يعيدني إلى الأرض ثمّ عاد وركع من جديد قائلاً وهو يقدّم لي خاتماً ماسيّاً:

" آنسة نور رضا، هل تقبلين الزواج بي؟ "

شهقت متفاجئة ، مصدومة من عرضه ، هل سمعته ؟ إنّه يطلب يدي للزواج ، يطلبني للزواج ، حدّقت به لأراه ما يزال بإنتظار جوابي ، أعطيته يدي مجيبةً بسعادة مفرطة: " نعم، نعم، أقبل الزواج بك سيّد إيّان كرم "

أخذت الباقة منه ، احتضنتها بإستملاك ورميت بنفسي من جديد بين أحضانه.

تنهدّت بفرحة عارمة،مستعيدةً الفرحة التي غمرتني ذلك اليوم والتي عشتها بين ذراعيه عندما طلبني للزواج بين الورود الحمراء والزنبق ، ألقيت نظرة أخيرة الى نفسي في المرآة وباشرت بتبديل ملابسي وألقيت نظرة أخيرة حول غرفتي لأتأكّد من أني لم أنس شيئاً ، فغيابي سيطول عن المنزل إذ رحلتنا طويلة ومتعدّدة المحطات، تركيا هي أوّل محطاتنا، ثمّ فرنسا، إيطاليا، أسبانيا ثم نعود الى هنا.

الجميع بانتظاري عند أسفل السلالم، جلت بنظري افتّش عن إيّان بين الجموع وإذ به بين أصدقائه وقد بدّل ثيابه هو الآخر يرتدي سروالاً رمادياً وقميصاً أبيضاً بدون ياقة من القماش الناعم... يبدو أنيقاً وجذاباً ولا يقاوم وإنّه لي... لي فقط أنا وحدي. ابتسم

لي عندما رآني عند أسفل السلالم مرسلاً لي نظرة اعتذار لعدم تمكنه من المجيء إليّ.لأجدُ نفسي محاطة فجأة بأصدقائي... حاجبين عنّي رؤيته... حضنتني رينا والدموع في عينيها قائلة "أتمنّى لك السعادة الدائمة معه.. إنّه رجل رائعٌ ويستحقّك "

" شكراً لك رينا، وأتمنّى ان تجدي نصفك الثاني قريباً "

ضحك عمر قائلاً بمرح " إنّه بقربها ولكنّها لا تريد أن تراه "

رفعت له حاجبها بمعنى كفى مزاحاً، ثم ابتعدت لتفسح المجال لتمارة. توقفت عن تعداد الحضنات التي تلقيتها من المدعويين في النصف الأوّل من حفل الزفاف. إنّه لشيء مرهق ومتعب أن أكون محطّ أنظار واهتمام الجميع في الحفل.

أتى إيّان آخذاً بيدي منقذاً إيّاي، وقال بصوت عالٍ يخاطب البقيّة المتبقية من المدعوين:

" نرجو المعذرة، ولكن علينا الانطلاق، الطائرة لن تنتظرنا ورحلتنا طويلة. لذا أشكر حضوركم جميعاً وأتمنّى لكم سهرة ممتعه وسعيدة ، المنزل منزلكم... بإمكانكم البقاء والاحتفال حتى الصباح. "

ثمّ ضغط على يدي بخفّة وقال بصوت حالم مثيراً خجلي العميق " ونحن سنحتفل على طريقتنا "

وبحركة مفاجئة حملني بين ذراعيه شهقت دافنةً وجهي بصدره موارية خجلي عن الحاضرين الذين علت ضحكاتهم وهمساتهم وانطلق بي بينهم نحو السيارة حيث كان طلال بانتظارنا مستعداً للانطلاق.

***

استيقظت على أثر قبلات إيّان الرقيقة على وجهي ويده تمشّط شعري، اقتربت منه أكثر دافنةً رأسي بصدره راغبةً بالمزيد من النوم.. أشعر بنعاس شديد، وأريد فقط أن أنام.

همس في أذني " أتريدينني أن أحملك وأنزل بك من الطائرة، لا مانع لديّ بذلك "

طائرة ... وماذا أفعل على متن طائرة ؟ ... ثمّ تذكرت ماذا افعل.

فتحت عيناي الكسولتين وقلت وأنا أتثاءب " هل وصلنا؟ "

الطائرة شبه فارغة، منذ متى وهو يحاول إيقاظي. ناولني كوب عصير برتقال وقال:

" اشربي، سيساعدك على استعادة نشاطك "

أخذت الكوب من يده وشربته دفعة واحدة محاولةً إرواء عطشي ثم أمسك بيدي وقادني نحو مخرج الطائرة حيث ودعتنا المضيفة عند الباب بابتسامة عريضة.

سيارة الفندق الذي سننزل فيه بانتظارنا في الخارج، تحمل لوحة باسم إيّان، ركبناها وانطلقت بنا نحو الفندق.

مع أنّ الوقت متأخر إلاّ أن الشوارع تعجّ بالناس والحياة والمطاعم والأضواء الباهرة وكأنّها مدينة لا تنام.

سألني إيّان: " أما زلت تشعرين بالنعاس؟ "

" لا ... أشعر وكأنّه نهار جديد ليوم جديد "

إبتسم مندساً فِيّ أكثر وقال متوعداً " هذا جيّد، لأنّنا سنصل قريباً الى الفندق "

***

لحظة وصولنا الى جناحنا سألني إيّان:

" أتشعرين بالجوع؟ أأطلب لك شيئاً تأكلينه؟ "

" لا... لست جائعة " يا الله!! ومن يفكر بالطعام في موقف كهذا.

وقفنا في وسط الغرفة نتأمّل بعضنا البعض بصمت، حتّى هو يبدو عليه التوتر.

جلست على حافّة السرير متحاشية النّظر إليه فالتوتر يرهقني.

لا بدّ أنّه لاحظ توتّري إذ باشر بخلع حذاءه فقميصه ثمّ فتح حقيبته أخذ منها بيجامته ودخل الحمّام تاركاً الباب وراءه مفتوحاً، ثمّ سمعت بعد لحظات المياه تطرق في حوض الاستحمام.

يبدو أنّه قرّر إفساح بعض المجال أمامي للتعود على الفكرة وأنا وجدتني أستكشف المكان حولي.. إنّه جناح كبير وواسع إذ يضم غرفة جلوس تطلّ على شرفة ذات بابين زجاجيّين عريضين وزاوية تضمّ طاولة مع كرسيين والسرير الملكي العريض وغطاءه البرونزيّ المطرّز والستائر الشفافة البرونزيّة المتدلية من أعلاه والمرآة العريضة والضخمة المعلّقة عند رأس السرير.

خرج في هذه الاثناء إيّان من الحمّام بشعره المبلّل ، عاري الصدر ، يرتدي القطعة السفلية فقط من بيجامته الحريرية، اقترب منّي بخطوات ثابته صغيرة وكأنّه يسنح لي المجال لأفكر ما إذ كنت أريد الهرب من أمامه أم إنتظاره إبتسم يراقبني بعينيه الزرقاوتين الدافئتين وقف قبالتي وسألني هامساً " أأساعدك في تبديل ثيابك "

ناظرته مرفرفةً بأهدابي توتراً وخجلاً وترقباً للقادم ، أغمضت عيوني مستلذّةً بقرب أنفاسه لحظة إقترب مقبلاً عنقي يفكّ أوّل زرّ من قميصي

أمسكت بيده موقفةً إيّاه هاربةً من أمامه، متمتمةً بخجل:

" أستطيع تدبّرأمري, شكراً لك " أخذت حقيبة ثيابي ، دخلت بها الحمّام وأقفلت الباب ورائي تاركةً إيّاه واقفاً في وسط الغرفة يرمقني بنظرة: ماذا تفعلين بحقّ السّماء؟؟؟

التوتر يؤثر على رجاحة تفكيري، جلست في الحمّام أراقب نفسي عبر المرآة العريضة المعلّقة على الحائط، أخذت نفساً عميقاً ثمّ خلعت ثيابي ، أخذت حماماً سريعاً ثمّ عدت الى حقيبتي أقلب فيها بعصبيّة، ماذا سأرتدي ... ...

رغم أنّها ليلتنا الاولى ، إلاّ أنّي اخترت ارتداء قميص النوم الأحمر المطرّز بخيوط حريريّة سوداء. لا أريده اليوم أن يراني بريئة ولا اريد أن أزرع فيه شعوراً بأنه يجتاح براءتي برغبته، بل أريده أن يراني مندفعة كاندفاعه وأشاركه رغبةً واشتياق.

مع أنّ التوتر يرهقني ولا اعرف كيف أتصرّف أو ماذا سيحصل غير ما قرأت وسمعت هنا وهناك...

لا اريد أن أكون هذه الفتاة البريئة واللاخبرة لها. يكفيني أنه يعرف بأنّي كذلك.

ألقيت نظرة أخيرة إلى نفسي في المرآة شاهقة ، رؤيتي لنفسي اخجلتني، ما الذي كنت افكر فيه عندما اخترت هذا القميص؟ إنّه يكشف مني أكثر مما يغطي. وتّرني شكلي وتركني متردّدة في الخروج أمامه بهذا المنظر ولكن ضوء الغرفة الخافت شجعني على ذلك.

فتحت الباب متسللةً إلى الغرفة أفتش عنه لأجده مستلقياً على السرير ينتظر قدومي .

إلتف نحوي لحظة رآني أخرج من الحمام يراقبني بنظرات غريبة ، غامضة ، إنه جالس على السرير، لا يفعل شيئاً سوى انتظاري، اقتربت منه بخطوات مترددة ، بطيئة، نظراته زادتني توتراً وابتسامته الشفافة زادتني رغبةً به ...

وقفت عند حافة السرير،العب بحافّة ردائي بتوتر، منتظرة منه مبادرة ما ، لكنه لم يفعل، بل اكتفى بمراقبتي والابتسامة لا تفارق شفتيه.

حسناً ، وماذا الآن؟ هل سأبقى واقفة هنا طوال الليل وهو يرمقني بتلك النظرات الشهية ، إنتظرت وإنتظرت وهو إكتفى بإنتظار خطوتي التالية.

فرميت بنفسي تحت الشراشف البيضاء وبحركة خاطفة غطيت رأسي محاولةً دفع الارتباك عنّي.

إنتظر للحظات قليلة قبل أن يرفع الغطاء عنّي ضاحكاً ثمّ راح يزيح بأطراف أصابعه خصلات شعري عن عنقي يثبّتهم خلف أذني. ملامسات أصابعه أصابتني بالقشعريرة فأغمضت عيوني أحاول إحتواء مشاعري وإذ به يقترب من أذني آخذاً نفساً عميقاً من شعري وهمس ضاحكاً:

" أتعرفين أمراً؟ حتّى لو ارتديت الأحمر، فهذا لا يُبعد عنك الشبهات من أنك من فصيلة الملائكة. ولكنه يجعلك ملاكاً متمرّداً يحتاج الى ترويض. "

دفنت وجهي بالوسادة غير قادرة عن التوقف عن الضحك لأشعر بشفتيه على كتفي متمتماً " أعشقك أيتها المجنونة ، أعشقك "

ايان :

الان عرفت معنى شغف نور عندما كانت تتسلل الى غرفتي في منتصف الليالي ، فقط لمراقبتي نائماً.

وها أنا ذَا اجلس بجانب السرير أراقب هذه المرأة الفاتنة التي قلبت كل موازين حياتي ، وحولتني من شبح يجوب الارض ، الى رجلٍ مكلل بكل معاني الحياة ، دفعت الروح فِيّ دفعاً ، وأَقفلت عليها مخبِّأةً المفاتيح في اعماق روحها.

علّمتني كيف أحب ، اشعر وأحلم بالغد. لقد كانت كالضوء الساطع في احلك ظلماتي تنير لي دروبي الضيّقة والوعرة ، حتى وصلت بي الى بر الأمان . انتشلتني من ماضيّ ، أخذت بيدي ، علّمتني خطواتي الأولى ،لوّنت حياتي بِأرقى الألوان ،

حررت روحي من الشوائب والخطيئة ، جمعت كوابيسي وأقفلت عليها في اعماق المجهول، بحيث لا يصل اليها عاقل.

أراها رسالةٌ من الله لكل مُعذّبٍ في هذه الدنيا ، بأن العدل والرحمة موجودان ، وعلى الانسان فقط ان يُؤْمِن بوجودهما ، ويفتش عنهما ويتمسّك بهما عندما يجدهما، ولا يحارب نفسه ظنّاً منه انّه لا يستحق فرصة ثانية من هذه الحياة،وبأنّ الخطيئة والظُلمة هما كل ما يستحق.

هناك دائماً ضوءٌ ساطعٌ بعد كل ضلمةٍ، مهما طالت ، ونور شمسٍ بعد كل عتمة ليل مهما كانت حالكة.

وها هي مخلّصتي تغط في نومٍ عميق في سريرنا . تتنفس الحياة وتدفعها نحوي غباراً كونياً برّاقاً يغوص بداخلي وينعش فِيّ كل معاني الحياة بكل الوانها .

رحم الله والدها الذي إختارني ليوضِع أمانته وأغلى ما عنده بين يدي ، ما زلت أذكر ذلك اليوم وكأنه البارحة حيث إستدعاني إلى المشفى شارحاً لي ظروفه القاسية

يرجوني أن أتزوج إبنته القاصر ذات الستة عشرة عاماً ، صدمني يومها بطلبه متسائلاً عن سبب إختياري أنا بالذات كزوج لإبنته فأجابني إجابة ضربتني بالصميم ، أجبرتني على كسر كل معتقداتي وأنفذ طلبه دون تردد .

ماضيّ ، لا يريد لإبنته أن تعاني كمعاناتي ، وإنه لواثق بأني سأحميها حتى من نفسي .

تزوجتها عند المأذون زواجاً شرعياً بشهود ولكنّي لم أُسجّله وأثبّته بالسراي الحكومي، تزوجتها فقط كي أتمكن من الاهتمام بها دون المساس بالشرع والقانون ، كي أتمكن من الحفاظ عليها ولكنّي وعدته بأن أخفي عنها هذا الزواج إلى أن تكبر وتختار زوجها بنفسها ، بأنّ هذا الزواج سيبقى صورياً لن يعرف به أحد إلاّ أهل بيتي والمحامي وبأنّي سأطلق سراحها لحظة تصبح مستعدة للتحليق عالياً نحو الحرية .

لم يخطر أبداً ببالي ولا للحظة بأنها ستجبرني هي الاخرى على أن أتزوجها من جديد معلناً زواجي بها وإرتباطي الابدي بروحها الطيبة .

نعم لقد تزوجتها مرتين وأنا هذا الرجل الذي كان عاكفاً عن فكرة الزواج أبدياً وما كان من الممكن أبداً أن تبدل إمرأة رأيّي لهذا القرار إلاّ حبيبتي هنا ، زوجتي القاصر الصغيرة التي إختارتني في النهاية وبعناد أن أكون زوجها ، لتشفيني من عقدة الحب وتبرهن لي بأنّ هناك أشخاص تستحق بأن تُحِب وتُحَب وتعطي من غير مقابل تحت شعار إسم الحب .

تمت

إهداء:

إنه أوَّل عمل لي يبصر النور والفضل بذلك يعود اولاً إلى عائلتي الجميلة التي لم تتوانى عن دعمها المتفاني لي وثانياً الى عصير الكتب الذي اعطاني فرصة النشر عبر صفحته الالكترونية .

" شكر خاصّ لزوجي الحبيب على دعمه وتشجيعه المستمرّ والدائم لي.

وأطفالي لتفهمهما وضعي وانشغالي الدائم عنهما ولتقديمهما الدعم لي عن غير قصد عبر كونهما طفلين غير مشاغبين وهادئين في أرجاء المنزل."

في ظلال الماضي

امل القادري